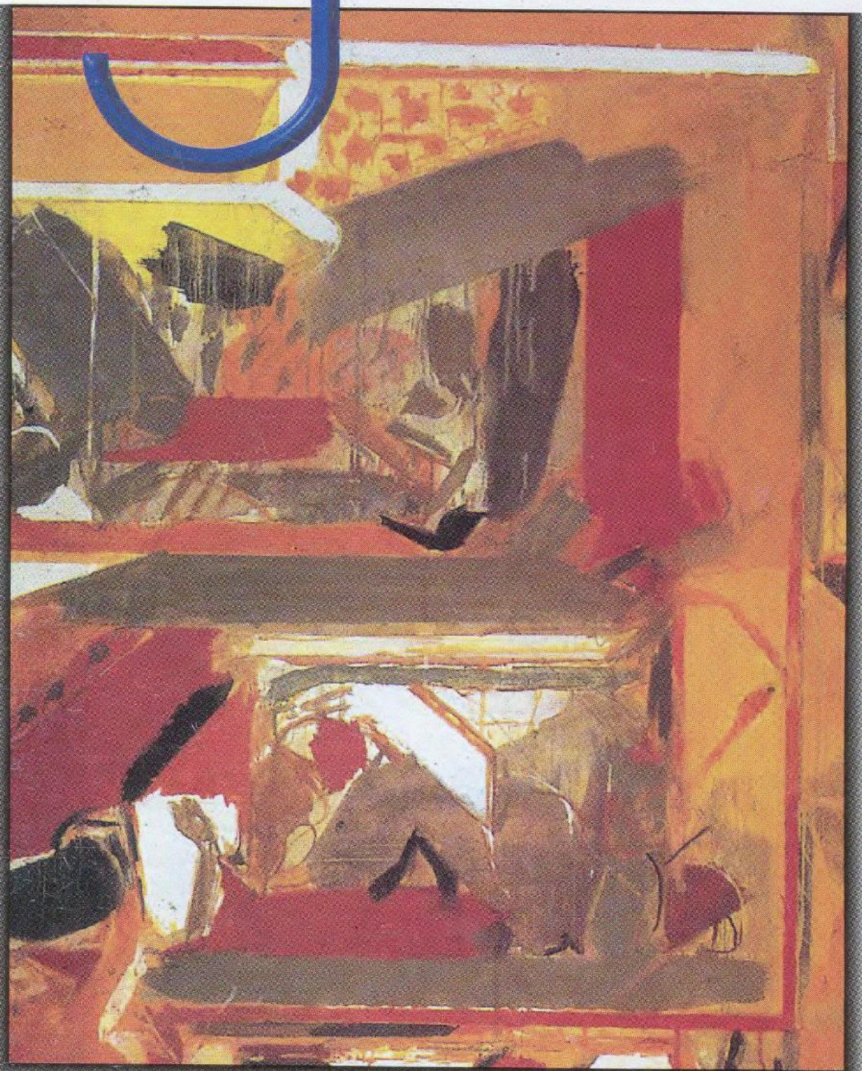
المجلس الأعلى للثقافة

طول الليل

المشروع القومى للترجمة

86



جمال مير صادقى

ترجمة : أحمد يوسف شتا

مراجعة : إبراهيم الدسوقى شتا

المشروع القومي للترجمة

رواية:

{ طول الليل }

تأليف

جمال مير صادقي

ترجمة وتقديم : د / أحمد فتحي يوسف شتا

مراجعة : د / إبراهيم الدسوقي شتا

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٩

درازنای شب

تألیف: جمال میرصادقی

چاپ اول . تهران . ۱۳۴۹ هـ . ش . کتاب زمان

إهــداء

إلى زوجتي وشريكــة عمــرى / **هــدى زكريــا شتــا**

رمز الحب والعطاء والحنان مع خالص الدعاء بالشفاء ،

أحمد شتا

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

أقدم للقارىء العربى هذا النص الروائى الموحى للكاتب الإيرانى المعاصر جمال مير صادقى ، والتى اعتبرها النقاد الغربيون أفضل تعبير أدبى عن صراع القديم والجديد فى إيران قبل قيام الثورة الإسلامية ... وسوف يلمس القارىء عن كثب وصفا أخاذا للبيئة التى وقفت تدافع بعزم لا يلين عن سمات المجتمع القديم أمام هجمة التحضير والتجديد الشرسة التى لم تقدر مواضع خطوها حق التقدير ، فكان أن فقدت أرضيتها وألقت بجيل كامل مغمض الأعين، مغلق الآذان خلف ما ظنوه دفاعا عن الهوية والأصالة .

أخذ على عاتقه ترجمة هذه الرواية التى تتميز بتشابك فى الأحداث والشخصيات ، وبمادة لغوية صعبة أخى وتلميذى الدكتور أحمد فتحى شتا رئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب - جامعة المنصورة ... ولم يكن الأدب القصصى المعاصر غريبا عليه .. فقد بدأ دراساته العليا برسالة عن فن السخرية فى أدب صادق هدايت رائد الفن القصصى المعاصر ، مما جعله متمرسا بالأساليب الإيرانية المعاصرة وبخاصة فى فن القصة ، وكتب رسالة الدكتوراة عن متصوف إيرانى ذى حضور جماهيرى فى المجتمع الإيرانى هو شاه نعمة الله ولى الكرمانى فضم إلى دراسته للمعاصرة دراسة فى الأصالة وهى لا غنى عنها لدارس إيران الذى يريد دراستها كما ينبغى .. ومن هنا جاءت ترجمته للرواية ترجمة متفهمة وواعية ومشرقة .. أرجو أن تثرى المكتبة العربية ، وأن تزيد

القارئ العربي فهما بخلفيات ما يجرى فى إيران ، ووعيا بخلفيات الشخصية الإيرانية المعقدة ذات الأبعاد التى لا تدرك بسهولة ..

ومن هنا أرجو أن تصادف الرواية ما أتمناه لها من تفهم ، وأن تسد فجوة فى المكتبة العربية ،

والله من وراء القصد .

دكتـــور
إبراهيم الدسوقى شتا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

جمال مير صادقى وعالمه القصصى :

ولد جمال مير صادقى سنة ١٩٣٣ فى طهران ، ويعتبر من كتاب ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وليس بين أيدينا معلومات عن تفصيلات حياته أو ثقافته إلا أن الإنتاج القصصى الذى قدمه منذ أوائل ستينيات هذا القرن يؤكد أنه من كتاب إيران المرموقين . كما اعتبره المستشرق الروسى كميسيروف أحد الكتاب الإيرانيين القلائل الذين يصورون حركة المجتمع الإيرانى تصويرا يرصد تطوره والصراع المستمر بين القديم والجديد فيه .

كما انتبه النقاد الإيرانيون إلى اهتمام جمال مير صادقى بالطبقات الفقيرة فى الريف وفى المدن ، كما يجمع قصصه القصيرة خط ذهنى واضح يهتم أخص ما يهتم بعملية الصراع الفكرى بين الأجنحة المختلفة فى إيران (١) .

وقد اهتم جمال مير صادقى بحركة تفاعل المجتمع اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وإلى تاثير ذلك فى نمو الشخصية الإيرانية ، هذا العالم القصصى لجمال مير صادقى يتضح من خلال أعماله التى بدأ فى نشرها سنة ١٣٤١ هـ.ش (١٩٦٢) فى مجلتى " سخن " و " نجين "

---

(١) Critical perspectives on modern persian literature . Edited and compiled by Thomas M. Ricks .An original by three continents press 1984 washington .P 566 .

وجمعها فى مجموعته الأولى " مسافرهاى شب = السراة " ثم ثناها بمجموعته الثانية "چشمهاى من خسته = عيناى متعبتان " التى أصدرها ١٣٤٥ هـ . ش (١٩٦٥م) والتى علق عليها الناقد الإيرانى محمود كيانوش قائلا : " إن جمال مير صادقى بهذه المجموعة قد سجل اسمه كمؤسس فى حركة الواقعية الاجتماعية حيث يهتم بحياة الناس البسطاء من طبقة المهنة والطبقات القديمة فى إيران عموما ، ويرى أيضا أن تعامله مع البسطاء من الناس يجعله لا يهتم مثل معظم الكتاب الإيرانيين المعاصرين بالبعد الفكرى والذهنى للشخصيات" [(١)] .

وهذه السمات تظل سائدة فى أعمال جمال مير صادقى التى استمرت فى الصدور إلى يومنا هذا ، وآخر أعماله التى بين أيدينا رواية طويلة تحت عنوان " كلاغها وآدم ها = الغربان والبشر " والتى صدرت طبعتها الأولى ١٣٦٨ هـ.ش (١٩٩٠م) ، يتابع فيها حركة المجتمع الإيرانى بعد انتصار الثورة الإسلامية ويقدم صورا من المجتمع الإيرانى كمجتمع فى حالة تطور فجائى وسريع .

وجمال مير صادقى فى رأى للناقد محمود كيانوش يود أن يقول : " حذار إنكم تعيشون فى هذا المجتمع المضطرب الذى ماتت فيه العدالة . إن الفساد هو نتيجة الفقر ، والفقر نتاج لانعدام العدالة الاجتماعية ، وليس الشر فى نفس الإنسان بل هو نتيجة ظروفه ، وفى مثل هذه البيئة

---

(١) محمود كيانوش : بررسى در شعر ونثر فارسى معاصر ١٣٥١ هـ . ش . تهران ص ١٥٠ : ص١٥٢

إما أن تكون سيئا وتعيش وإما أن تكون طيبا وتموت ، وعلى أى حال فإنك إذا كنت سيئا أيضا فلن تكون محمود العاقبة . " (١)

وثمة سمة بارزة فى كل أعمال جمال مير صادقى تتردد فيها بشكل أو بآخر هى تتبع التأثير الغربى وتسلله فى المجتمع الإيرانى وصراعه الظاهر والذى لا تخطئه العين مع القديم . هذه السمة يقدمها أبرز ما تكون فى الرواية التى بين أيدينا والتى تعد أشهر أعمال جمال مير صادقى على المستوى العالمى ، فثمة ترجمة روسية لها وأخرى انجليزية .

وكان أول لقاء لى بهذه الرواية ذلك العرض الوافى الذى قدمه د . ابراهيم الدسوقى شتا فى كتابه " مطالعات فى الرواية الفارسية المعاصرة " (٢) للرواية كنص أدبى يصور جيل إيران فى الستينيات ، وحيرته بين القديم والجديد ، وضياعه فى مجتمع يخرج جزء منه عن جلده بسرعة شديدة بينما يظل الجزء الآخر متشبثا بالقديم خائفا من الجديد .

هذا الصدام بين عالمين هو النبرة الرئيسية فى هذه الرواية العجيبة ، والتى ازددت إعجابا بها عندما قرأت نصها كاملا ، وبرغم أن المؤلف كان يكتب روايته وعينه على المحاذير التى تحيط به سياسيا فى إيران فجاءت خلفيتها السياسية غامضة إلى حد كبير ، والصراع بين القديم والجديد فيها يقف عند حد المظاهر ولا يبتعد عن السطح لكى يتناول

---

(١) بررسى در شعر ونثر فارسى معاصر : ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٢) د . ابراهيم الدسوقى شتا : مطالعات فى الرواية الفارسية المعاصرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م . ص ١٣٧ : ص ١٦٨ .

الأعـمـاق إلا أن هذا هو مـا أعطى الرواية هـذه التلقـائيـة الـغـريبـة فى التعبير والبساطة التى قلما تتسم بها رواية إيرانية .

فإذا شئنا الدقة نستطيع أن نقول إن الرواية التى بين أيدينا رغم أنها قائمة على هذه الفكرة إلا أنـها لا تعبر عنها أبدا فى أى جزء من أجزائها بشكل مباشر أو بشكل خطابى .

نحن فى الرواية أمام ثلاث عائلات :

أولا : عـائلة البطل كـمـال ، وهـى تعـيش فى حى قـديم يتـمسك بمـظاهـر الدين ، بينما ترتع فيه كل أنواع المفاسد الاجتماعية ، ولا يمثل الدين فيه إلا أساسا للاعتقاد ولمكاسب الدنيا كما ورد فى الرواية .

يقدم لنا الكاتب احتفالات عاشوراء ، يقوم بها فى ورع مبالغ فيه لصوص وقتلة ومرتشون ومقامرون ، ويقدم لنا مشاهد حية ذات دلالة على الصراعات المستمرة بين هؤلاء الناس المحافظين وبين كل مظهر من مظاهر الحضارة ، يرون أنه دليل على الكفر وعلى ضياع الدين .

ويقدم لنا مشهدا ذا دلالة على دخول السينما فى هذا الحى ، وكيف أثار الناس ثورة عارمة ضد هذا الاختراع القادم من الغرب والذى يستهدف حياة الناس ودينهم .

ثانيا : العائلة الثانية عائلة منوچهر ، صديق كمال وزميله فى الدراسة والذى يعيش حياته بالطول وبالعرض ، ويعتبر كل ما تؤمن به عائلة كمال وطبقة كمال من الخرافات التى تعقد الحياة والتى لا أساس لها فى الدين ولا فى الإيمان ، وتأخذ بطرف من الحياة الغربية دون أن تسير فيها إلى نهاية الشوط . فهى أسرة عصرية إلا أنها تقف فى

عصريتها عند حدود معينة ، ولا تخلط بين مظاهر الحضارة والانحلال القادم معها . وإن كانت فى آخر الرواية تضيق بالحياة فى الحى القديم وهو يرمز إلى كل قديم فى إيران ، وتستعد للرحيل إلى شمال المدينة حيث العالم الجديد بكل مغرياته .

ثالثا : أما العائلة الثالثة فهى عائلة سوسن ابنة خالة منوچهر صديق كمال ، وهذه العائلة يقدمها المؤلف كنموذج للعائلات التى تسير مع الجديد وتصل إلى حالة انحطاط ناشىء عن فهم خاطىء للتقدم . وتسقط فى حمأة الرذيلة سقوطا تاما .

الرواية التى بين أيدينا تقدم صراع شخصيات هذه العائلات اليومى ، وهذا الصراع ظاهر برغم الصداقة والود الذى يربط بين هذه الشخصيات .

فكمال بطلنا يمر فى مسيرة التقدم من عائلته إلى عائلة منوچهر إلى عائلة سوسن ويعانى خروجه عن جلده مرحلة بعد مرحلة ، ويرفض كل هذه العوالم ملقيا نفسه فى آخر الرواية فى ضياع لجيل يبحث عن طريق ، ويتنازعه البيرقان ، البيرق الأحمر والبيرق الأسود ، ويتجلى هنا استشراف الكاتب الذى قدم روايته فى الستينيات لأزمة الشباب الإيرانى المعاصر التائه بين تيارين يرى فيهما الحل ، تيار وافد يتجلى فى البيرق الأحمر ويمثله فى الرواية شخصية محمود الذى انفصل عن بيئته انفصالا تاما ، وبين دين ترى معظم شخصيات الرواية أن الدخيل عليه أكثر من الأصيل فيه .

إن محمودا فى الرواية هو لسان الكاتب وهو الذى يفلسف العصر ، لقد نجح فى أن يلقى بهذا المجتمع وراء ظهره وانتهى ، وينتهى الأمر بأن يحدث كمالا ومنوچهر قائلا :

" التقاليد القديمة بليت واندثرت وحلت محلها تقاليد جديدة ، مجتمعنا فى مرحلة التحول ، إنه يغير جلده ، لكن آباءنا تشبثوا بكلتا اليدين بالماضى ، وهم يتحسرون الآن عليه ويخافون من التقاليد الجديدة وكأنها حية أو أفعى " .

لكن منوچهر بلا مشكلة ، إنه ليس من الطبقة المتوسطة التى لا تستسلم بسهولة ، ويسأل كمال : ألأنها أشد تمسكا بالدين ؟ ويجيب محمود : "ليس الأمر متعلقا بالدين ، الموضوع مرتبط بالاقتصاد ، إن الدين - هكذا يقول محمود - « ليس إلا وسيلة ، إن والدى يمتلك مصنعا صغيرا لصناعة الجوارب ، إنه لا يستخدم إلا الأطفال أو النساء المحتاجات ، لأنه يعطيهم أجرا أقل ويسمى هذا الأمر مساعدة الضعفاء ، فمن الذى يريد أن يستخدم هؤلاء ؟ فى حين أنهم إن لم يعملوا عنده ماتوا جوعا ، وفى كل سنة يقيم احتفالا أو احتفالين لدق الصدور والنواح ويذبح خروفا يحشو به بطون هؤلاء قائلا : دعهم يشبعون مرة فى العام ويتذكروننا بالدعاء" . أجل ، إن كمالاً يرى أن والد محمود لا يختلف عن أبيه وعمه فى شىء ، إن أباه وعمه يمتلكان كل دكاكين سوق بيع الجلود ، والعمال وعائلاتهم يأتون إلى الاحتفالات الدينية ، وعلى المنبر يتحدث الشيوخ عن كرم هذين الأخوين التقيين السخيين ويزداد احترام عمه وأبيه أضعافا وتربو ثروتهما أضعافا ، "لا شىء

مجانا إذن، لقد جعلوا الدين وسيلة للثراء" ، إنه يتذكر جموع الفقراء الحقيقيين تطرد من أمام منزل عمه أيام الاحتفالات بدعوى أنه لم يحسب حسابهم ، أجل : كل شيء بحساب إنه لا يستطيع أن يمكث في هذا المكان ، إنه يسل معتقداته خيطا خيطا ، قريبا سينتهي وجوده كلية من هذا المكان وينصرف " (١) .

بعد هذا العرض الموجز نرى أن المؤلف قد قدم لنا نقدا مباشرا للحياة العصرية وانسياق الشرق وراء حضارة الغرب ، فقدم لنا صراعا بين القديم والجديد ، وبين لنا نقائض المدنية الحديثة وما يمكن أن تؤدي إليه من فساد أخلاقي ، وفي المقابل بيّن لنا جمود المعتقدات المذهبية الدينية وما هو دخيل على الدين ، ويعتبره المتدينون لب الدين .

وقد قام المؤلف ببيان التفاوت بين القديم والجديد من خلال صداقة بين شابين يمثل كلا منهما طبقة من طبقات المجتمع الإيراني .

ونجح المؤلف في بيان حالة المجتمع الإيراني ، فرسم خيوط الحياة الاجتماعية لكل طبقة من طبقات الشعب الإيراني ، وعرض لنا أكثر من قضية تستحق المناقشة والدراسة من بينها قضية الصراع بين القديم والجديد ، والتقليد الأعمى للحضارة الغربية خصوصا جانبها المادي ، وقضية علاقة الآباء بالأبناء ، وجمود المعتقدات الدينية المذهبية . كما نجح الكاتب في رسم الأماكن التي دارت فيها أحداث روايته بكل التفاصيل الدقيقة والتي بدورها كانت المؤثر على شخصيات الرواية .

١- مطالعات في الرواية الفارسية المعاصرة : ص ١٥٣ ، ص ١٥٤ .

فعرض لنا حياة القصور بحدائقها الغناء وشوارعها العريضة ودور السينما والمقاهى والملاهى والنوادى ، وأسهب - كعادة الإيرانيين فى ولعهم بوصف الطبيعة - فى تصوير الطبيعة فى تلك الأماكن . فولع الكاتب بالطبيعة جعله يرسم لنا صورة تكاد تنطق ، وفى المقابل قدم لنا الأماكن القديمة فى إيران حيث البيوت القديمة والحوارى بأزقتها وحوانيتها المتراصة وأسواقها التى تمتلىء بالغوغاء والبيوت المهدمة فى طهران والتى تركها أصحابها إلى شمال المدينة ، ورسم صورة بيت بطل روايته كمال المبنى على الطراز القديم .

وعرض لنا المؤلف مجموعة من الشخصيات الأساسية والثانوية ، فنرى كمالاً بطل الرواية المضطرب الحائر المهتز نفسيا والذى يمثل القديم ، ونجح المؤلف فى رسم تلك الشخصية وحيرتها بين القديم والجديد ، ونمو تلك الشخصية نموا تدريجيا بإعجابه بشاب من طبقة النبلاء فى إيران وهو منوچهر ، وكيف تبدلت معتقداته ، وكيف قدم الكثير من التنازلات أمام إغراء الحياة الحديثة والأفكار الجديدة .

ولكى يبين لنا المؤثرات النفسية للبطل ، وضح لنا العلاقة الأسرية بين والد كمال وأمه وما يدور بينهما من عراك ونزا ع وخلافات مستمرة .

فقدم لنا المؤلف العالم القديم متمثلا فى شخصية أسرة كمال " الأب ، الأم ، عبد الله ، الأخوات الصغيرات ، العم وزوجة العم وأولادهما " وبعض أفراد الحى الذى يعيش فيه من أمثال " الخال على ، حسن سياه .. "

فكمال ذلك الفتى المطيع الذى لا يغير روتين حياته اليومى ، يذهب إلى المدرسة ويعود بعدها ليحمل أخاه الصغير عبد الله ، وفى شهور الصيف يساعد والده فى حوانيته إلى أن وصل للمرحلة الثانوية ، وبدأت علاقته بشاب من طبقة النبلاء وهو منوچهر الذى يمثل العالم الجديد ، وتبدأ شخصية كمال فى التحول والتبدل ، ويقع فى حالة من الاضطراب النفسى والحيرة بين القديم بمعتقداته المذهبية وبين إعجابه بمنوچهر رغم اعتراضه على بعض عاداته وأفكاره إلا أنه تنازل تدريجيا عن معتقداته وانساق وراء منوچهر ، ووقع فى حب أخته فرشته ، ويبدأ كمال فى التغير والانخراط فى العالم الجديد ناقما على عالمه القديم .

وقد أطال المؤلف فى تصوير عذابات كمال وصراعه النفسى ويأسه كلما اختلى بنفسه داخل حجرته ، ونجح المؤلف فى تصوير ذلك الصراع الداخلى ، فتحول كمال إلى لاهث وراء اللذة وترك لغرائزه العنان ، وانغمس فى علاقة جنسية مع سوسن .

ويرسم لنا المؤلف شخصية أم كمال ، وهى الأم المسالمة المقهورة المغلوب على أمرها والتى نجدها فى أغلب مجتمعاتنا ، كما يرسم لنا شخصية والد كمال وهو الأب المولع بالاحتفالات الدينية ، المتعصب للمذهب ، ورغم ذلك فهو محب للمال يجمعه بشتى الطرق ، "فالحياة بالنسبة له كفتا ميزان ، الدين فى كفة والمال فى كفة أخرى " .

وقدم لنا المؤلف شخصيات العالم الجديد من خلال منوچهر وأسرته ، وسوسن وأسرتها ، وبهرام وبعض الشباب العابث .

فنرى منوچهر الفتى المتأنق الذى لا يهتم إلا بالمتعة والحياة العصرية والذهاب إلى دور السينما ومعاكسة البنات وإقامة علاقات بهن . بينما أخته فرشته الجميلة السافرة التى تحيا حياة عصرية ، ولا تخجل من الحديث مع الشباب ، وأبوها الذى يمثل طبقة النبلاء ، فهو صاحب مركز مرموق يعيش فى منزل بحديقة غناء .

وينتقل بنا إلى أسرة سوسن حيث الانحلال الأخلاقى والتقليد الأعمى للحضارة الغربية وضياع الشخصية المميزة لهذا المجتمع الإسلامى . فسوسن باحثة عن اللذة وإغراء الشباب ، تحب الطرب والمطربين ، وتستمتع بعلاقاتها بالشباب .. بينما الأب يغيب كثيراً عن المنزل ، والأم عشيقة للسيد فريبرز صديق زوجها .

ويعرض المؤلف بذلك جانبا من حياة الشباب العابث اللاهى الذى لا يعبأ بالعلم بل يبحث عن اللذة منساقا وراء الجانب المادى من الحضارة الغربية وذلك من خلال شخصية بهرام .

ويأتى المؤلف بين الحين والحين ليقدم لنا شخصية محمود صوت العقل - لسان المؤلف - ليفلسف لنا الأحداث ويدلى ببعض آرائه حول المجتمع ، وإن كنا لا ندرى عن حقيقة أفكاره أهو يمثل الحلقة بين القديم والجديد أم أنه يمثل تيارا جديدا ينادى بالاعتماد على العقل دون الدين ؟!

وعن كثب يتحدث محمود عن علاقة الآباء بالأبناء ، كما أدلى برأيه حول نظرية الدين والاقتصاد ، ورأيه فى أن المجتمع يمر بمرحلة تحول بين القديم والجديد .

وتدور الرواية بأحداثها فى بداية الخمسينيات حيث أزمة مصدق كما ذكر د . ابراهيم الدسوقى شتا ، (١) وإن كنت أرى أنها تدور بعد انهيار فترة مصدق وجو الاختناق الكامل الذى ساد خلال الستينات .

ومن هنا نجد أن الكاتب ربط بين أحداثه بسلاسة وفهم لمجتمعه ، فتشابكت الأحداث مبينة ظروف المجتمع الإيرانى السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

واستطاع الكاتب أن ينسج خيوط روايته بدقة وفهم وإحكام ، وإن كان قد استخدم شخصية محمود ليدلى بدلوه فى الأحداث ... فبين لنا الاحتفالات المذهبية وبخاصة احتفالات يوم عاشوراء ، ومظاهر تلك الاحتفالات ليكشف لنا عن اعتراضه الخفى على تلك المظاهر من ضرب على الصدور وحلق للرؤوس وضرب بالقُمَّة (٢) وصراخ ونواح وقراءة للروضة . لعل هذه الرواية ضد التيار الدينى والممارسات الشيعية وضد تسييس الدين وإن لم يقل المؤلف صراحة .

ويعرض بعضا من أسماء الجماعات الشيعية التى تحتفل بيوم عاشوراء وكأننا نعيش ونرى تلك الاحتفالات فنجح الكاتب فى تصويرها وبيان نقائضها ...

كما يعرض لحال السوق والتجارة وتصرفات بعض الغوغاء وانتشار النشل والسرقة فى الأسواق الشعبية ... ويصور لنا الصراع والخلاف

---

(١) مطالعات فى الرواية الفارسية المعاصرة .

(٢) القُمَّة : سيف أو خنجر صغير .

الأسرى بين والد كمال وأمه ، وبين رتابة الحياة فى تلك الأحياء القديمة ... ثم صور حياة العالم الجديد من اختلاط وسفور وانحطاط أخلاقى ، وقد بين الكاتب التفاوت الشاسع بين حياة الطبقتين اللتين تعيشان فى مدينة واحدة ، تفاوت فى الملبس والمشرب والأفكار والعادات .

وبين المؤلف كيف وصل كمال إلى قمة عذاباته واضطرابه ويأسه من حب فرشته ، وحيرته بين القديم والجديد إلى أن صدم فى حبه لفرشته ، وكانت نقطة التحول فى شخصية كمال حيث ألقى بنفسه داخل أحضان الحياة الجديدة وأطلق لغرائزه العنان وانساق وراء سوسن ، ثم كانت هناك عودة ثانية إلى أسرة سوسن ، ويعلق سبانلو قائلا : " بعد معرفة كمال بمنوچهر وزياراته المتكررة يرى خيوط تربيته السابقة عبثا وفسادا " (١) إلى أن انفجرت الأزمة بينه وبين أبيه الذى انهال عليه ضربا وصفعا على وجهه ، فيستخدم الكاتب الرمز متمثلا فى كلب الجار الذى مات ، وخرج ليمضى ويتخلص من عذاباته ومن سطوة أبيه وضعف شخصية أمه ، فإذا بالمؤلف يطالعنا بالملجأ والملاذ " محمود " الذى لجأ إليه كمال فى نهاية الرواية مقابلا إياه بالترحاب لينهى بذلك روايته الاجتماعية الهادفة التى تقول الكثير والكثير عن الحياة فى إيران فى الخمسينيات وأوائل الستينيات هذا القرن .

وقد جاء الحوار فى الرواية سلسا معبرا عن لغة العصر ، كما يعبر عن منطق كل طبقة من طبقات المجتمع الإيرانى ، فكان التفاوت واضحا

---

(١) سبانلو (محمد على) : نويسندجان بيشروايران از مشروطيت تا ١٣٥٠ چاپ سوم ١٣٦٩ هـ.ش چابخانه كاروان . ص ١٨٣ .

بين أسلوب وطريقة الحديث للطبقة التى ينتمى إليها بطل الرواية ، وطريقة حديث طبقة النبلاء التى تتجمل وتتصنع فى إخراج الكلام ومطه .

أما الأحداث فجاءت متشابكة فى الرواية لتنسج لنا عملا اجتماعيا رائعا ، وقد أمسك المؤلف بخيوط روايته فلم تنفلت منه الأحداث بل تصاعدت وتشابكت لتعرض لنا محاولة للتعبير عن واقع يرفض التعبير المباشر مع مايحيط به من أخطار وهذا الغموض فى حد ذاته حسنة من حسنات الرواية ، فقد منحتها عمومية خفضت قليلا من الإطار الطلابى الذى تجرى فيه وجعلت مجال الخيال أمام القارئ مفتوحا يذكرنا بأعمال حديثة فى الآداب العالمية .

والله ولى التوفيق

دكتــور

أحمد فتحى شتا

طــــول الليــــل

نزل كمال إلى الشارع مع سيل من التلاميذ ، ومرَّ من بين السيارات وانتقل إلى الناحية الأخرى من الطريق . كانت السيارات والأتوبيسات تطلق أبواقها محدثة صخبا وضجيجا .

ظل كمال منتظرا فى منتصف الطريق ، وأخذ يبحث عن منوچهر بين التلاميذ ، لكنه لم يجده . فتقدم التلاميذ وأخذوا يصطدمون به وهم يمرون ، فذهب بعيدا ، ووقف تحت شجرة بينما كان يحمل فى يده الأخرى حقيبته الكبيرة الثقيلة ودار بنظره باحثا عن منوچهر .

كان الشارع مليئا بالتلاميذ الذين خرجوا من المدرسة جماعات جماعات ، وأخذوا يعبرون الشارع حيث تقف السيارات لتسمح بعبور التلاميذ .

ورأى منوچهر واقفا فى الجانب الآخر من الشارع يتحدث مع جمع من التلاميذ ، مستندا على شجرة منتظرا إياه . وبينما نفد صبر السائقين فأخذ المتأخرون يطلقون الأبواق مرارا وهم فى انتظار من فى المقدمة . وأحيانا كان أحد السائقين يقتحم صفوف التلاميذ ويمر ، والسيارات الأخرى فى إثره مما حال دون مرور التلاميذ . وكان التلاميذ لايزالون يتوافدون من بوابة المدرسة الكبيرة إلى الشارع .

ظل منوچهر واقفا مشغولا بالحديث وكأنه قد نسيه تماما . وشقت سيارة فورد رائعة الجمال بلون الكريز مستعملة آلة التنبيه لجمع التلاميذ ، ومرت من بينهم .

كان شاب حسن الملبس جالسا إلى عجلة القيادة ، وإلى جواره فتاة أخرجت لسانها الأحمر الصغير وشكلت صورة ساخرة بوجهها ،

وأسرعت السيارة الفورد والسيارات الأخرى من ورائها ترفع أصوات أبواقها فى الشارع .

وسلك منوچهر الطوار المقابل بصحبة التلاميذ سالكا طريقا مختلفا عن طريقه المعتاد . كان كمال قد بقى حائرا ناظرا إلى أولئك الذين كانوا يسيرون وهم منهمكون فى الحديث ، وفى كل لحظة كان ينتظر ، لعل منوچهر يعود و يمضيان معا كعادتهما . كان يعرف التلاميذ ، فبعضهم كانوا زملاء فصل والبعض الآخر فى الصف السادس أى يسبقونه بصف هو ومنوچهر، ولم يكن يعجب بهم خاصة عندما كان يلاحظ تقربهم من منوچهر . كان يغار . وضع حقيبته فى يده الأخرى ودمدم هامسا :

" أيها الصيع المخنثون ! "

منذ أن جاء منوچهر إلى مدرستهم الثانوية وهو رفيق طريقة . لم يتحدثا معا طيلة الأيام الأولى ، ولم يتفوها معا إلابضع كلمات ، وحينما كان منوچهر يصل إلى منزله ، كانا يفترقان ويظل كمال وحيدا فى طريقه حتى منزله . بعد ذلك كان يساعدهم فى مسائل الجبر وكان يذهب إلى مدرسته فى الصباح الباكر وكان منوچهر يأتى ليسأله فيما يصعب عليه وبالتدريج ازداد حب كمال لمنوچهر خاصة عندما كان يرى التلاميذ الآخرين يحجلون حوله ، فكان يزداد محبة له . كان سلوك منوچهر معه دائما سلوك محبة وصداقة ، على عكس الآخرين لم يكن يسخر منه ، فقط كان يعترض على كمال على مظهره الخارجي قائلا له :

" ماهذا المظهر الذى تظهر به ؟ كل من لايعرفك يظن أنك ابن شيخ طرد من المسجد . أوضاعك ياصديقى لاتسر . "

كان منوچهر أنيق الملبس . حلته مكوية دائما ، وحذاؤه مدهون ، وكان يحلق لحيته بالموسى وشعره دائما مدهون بالزيت . كان ممشوق القوام شامخا . عيناه واسعتان خضراوان وكان هناك لمعان دائم فى إنسانىّ عينيه . كان كمال ينظر إليه بإعجاب عندما يسير بخطوات واسعة وصدره إلى الأمام . كان يود أن يكون فى موضعه محبوبا جديرا بأن يحب . حلو الحديث زينة للمجالس .

مضى منوچهر بصحبة التلاميذ ، وعند انحناءة الشارع غاب عن بصر كمال . كان التلاميذ يمرون من أمامه ويتفرقون هنا وهناك ، وكان الشارع يفرغ .

توقف ثانية لبضع دقائق بلا هدف ، ظل فى انتظار منوچهر ثم مضى إلى حال سبيله نافد الصبر محزونا . وأخذ يدور بعينيه وسط الناس بحثا عنه ، حتى تعب ومل . وكان يفكر لماذا لم يقل له منوچهر شيئا ومضى .

" *هل* غضب منى ويعاندنى ؟ *هل* يصرفنى *بالحيلة* ؟ ! " *لماذا* ؟

ساورته شكوك كثيرة . وتقدم بضع خطوات ثم توقف ثانية ونظر خلفه وقال لنفسه يائسا :

" لا ، لن يأتى ، إنه نسى فى الحقيقة . نسى ! "

وبين الفينة والفينة كان ينظر خلفه . وعلى الناصية الغطف إلى

شارع آخر . لم يكن يود أن يغضب منوچهر ويضايقه . لم يكن يود أن يفقده . كان منوچهر صديقه الوحيد . لمدة سنوات كان يمضى إلى المدرسة ويعود منها وحيدا . ولم يجد من يصاحبه . كان قلبه قد انقبض...

عرج من الشارع إلى زقاق ترابى عريض ، فوجد طائفة تحمل الرايات والبيارق قادمة من نهاية الزقاق . أولاد صغار ورجال كانوا يدقون على صدورهم وينوحون ويتقدمون ببطء . فكر .

" لقد سارت الجماعات . الليلة والليلة القادمة حافلتان . إن جماعات محترمة تقطع الطريق : جماعة الأتراك ، جماعة قم ، الجماعة الهمدانية ... لكن لايعلو على جماعة طاهر . "

تملكه الانفعال . فقد تذكر أنه منذ بضع سنوات كان يطوف مع جماعة طاهر حول السوق ، يوم القتل .

كانت الجماعة تبدأ الطريق من منزل عمه الحاج ، وكان مصطفى الجزار حاملا الراية . وعندما كانت الرايات تتواصل كانوا ينحنون ويطلقون السلامات ، وكان أهل منزل عمه يحتفون العشر الأوائل من محرم كل عام ، يقرأون الروضة ليلا ، وكانوا يسدلون ستارا وسط الفناء ، كانت النساء تجلس فى ناحية والرجال فى ناحية أخرى . فالليالى التى كان يطوف فيها مع أبناء عمه بالشاى كان الناس يشيرون إليه أيضا :

" إنه ابن السيد مصطفى الدبّاغ ، عن أدبه وكماله وحسن سلوكه... إنه يدرس أيضا . "

عندما كان يحين توزيع الشاى على النساء كان ينفعل ، فكانت النسوة والفتيات تنظرن بعيون دامعة لامعة . وكانت نظراتهن ذات مغزى خاص . لم يكن كمال يتحمل نظراتهن ، أحيانا كن يجمشن قدمه ويبتسمن فى وجهه ، وأحيانا أخرى كن يخضعن بالقول ويناديته برقة ودلال :

" سيد كمال ، ألن تقدم لنا الشاى ؟ "

وكن يضحكن فى وجهه ويهمسن :

" كمال أيها الفتى العزيز ... إعطنا سكر "

كان كمال يرتبك . يصرف بصره ويسرح ، وكان جسده يسخن ويمتلئ قلبه بمشاعر حلوة ، لقد اقترب منهن ذات مرة حاملا السماور ، فوقع بين أحضان امرأة سمينة جميلة وكانت المرآة قد داعبت قدمه ! .

وقف إلى جوارالحارة يتفرج ، وكان يقف إلى جواره شيخ ينظر مندهشا إلى الجماعة التى مرت من أمامهم . كان وجهه منفعلا ، وبين الفترة والفترة كانت أصوات ما تخرج من حنجرته وقد امتلأ الزقاق عن آخره بصليل السنج ونواح الضاربين على الصدور ، وبالتدريج أخذ كمال يهمس دون إرادة مع النائحين وقد تملك الحزن قلبه .

وعندما كان ينشد فى ليالى الإحياء[1] رثاء العظماء ، كان نفس هذا الحزن الحلو يجتاح قلبه ويحمله إلى عالم آخر. كان لهذه الليالى موضع خاص فى حياته ، فكانت تثير إحساسا جميلا فى قلبه ، وفى إحدى هذه الليالى تعرف على شيخ قارئ الروضة ومطرب كان قد أعلن توبته وكان يرتل التراتيل الدينية .

أثنى الشيخ على صوته كثيرا وعلمه الألحان والمقامات ، فثابر كمال حتى ينفذ تعليمات الشيخ ليبدأ بشجاعة فى التغنى برثاء الأئمة الأطهار . وعندما أحس أن صوته مؤثر وأنه يدعى خصيصا إلى هذه المجالس الليلية لكى ينشد ، شعر برضا خاص فى نفسه . كان الإنشاد يعطيه ثقة فى نفسه بحيث يبعد عن نفسه عقدة النقص الناشئ عن سلوك أبيه معه ، وكان أبوه بسبب تدينه وتعصبه الشديد ومجالس الروضة التى كان يعقدها موضع احترام من أهل الحى وقربى منهم .

كانت عينا الشيخ تلمع كالبرق ، وانفعلت أسارير وجهه تماما ثم واصل الإنشاد ثانية . فتوقف كمال عن الإنشاد وأنصت ، ووسط أصوات الجلاجل والضرب على الصدور سمع صوته الرقيق ذا الجرس وهو يصيح :

" أيها الحسين المظلوم . "

وفجأة صرخ الشيخ بلا إرادة ، وبيده قطع الشريان الرئيسى من فوق رأسه الحليقة .

عندما مرت الجماعة من أمامه ، سار ثانية فى الزقاق وكانت

---

(١) المقصود إحياء ذكرى الأئمة .

أصوات نقر الدفوف والمراثى لاتزال ترن فى أذنيه وتملكه الانفعال .

كان قد أسرع الخطى يفكر بسعادة فى يومى تاسوعاء وعاشوراء وكذلك فى الضاربين أنفسهم بالسيوف القصيرة والضاربين على صدورهم والجماعات ... منذ عامين أو ثلاثة ظل يسير حافيا مع جماعة مصطفى الجزار ، وكانت الجماعات قد اختلطت ببعضها ، وعند عودتهم - دون أن يتنبه - اختلط بجماعة أخرى وتناول الغداء فى أحد المساجد .

ولم يكن قد وصل بعد إلى نهاية الحارة حتى ناداه شخص ما ، فاستدار ونظر . إنه منوچهر . وقف سعيدا حتى وصل إليه منوچهر :

" جئت مسرعا لألحق بك ... لماذا لم تنتظر حتى آتى ."

قال كمال :

" ألم أنتظر ؟! انتظرت كثيرا . ظننت أنك ذهبت مع أولئك الذين لم تخبرنى بشئ عنهم قط . "

" لم يحدث شئ أقوله لك ، لقد ذهبت مسرعا فى الاتجاه الآخر ، ففقدتك ."

قال كمال :

" لو لم تأت الجماعة ، لكنت الآن فى المنزل ... ويالها من جماعة... رأيتها ؟ "

كان منوچهر يسير إلى جواره ، وهز رأسه وقال :

" نعم . "

كرر كمال قوله :

" يالها من جماعة . "

كان منوچهر سارحا فى شئ آخر ، فهز رأسه ثانية .

" إنها أيضا لاتعد شيئا بجوار جماعة طاهر . "

لم يقل منوچهر شيئا ، فقال كمال :

" كانت جماعة طيبة . "

كان منوچهر ساكتا فسأله كمال :

" ألم تر جماعة طاهر ؟ "

رفع منوچهر رأسه :

" ماذا ؟ "

" ألم تر جماعة طاهر ؟ "

قال منوچهر :

" لا . "

" لقد رأيتها ... إنها تستحق المشاهدة . "

قال منوچهر :

" لا يا بنى . "

" مشاهدة ممتعة ، ذات طبول وصاجات وذى الجناح . "

" ذو الجناح ؟ "

" إنه بعينه حصان الإمام الحسين . "

" أجل . "

شرد منوچهر بفكره ثانية ، فقال له كمال :

" لقد وقفت فى انتظارك كثيرا ... فإلى أين ذهبت معهم ؟ "

قال منوچهر :

" لم نذهب إلى مكان ما ، كنا نرتب لحفل ليلة الغد . "

سأله كمال مندهشا :

" حفل ؟ "

" أجل ، تقرر أن يأتوا إلى منزلنا بصحبة أخواتهن ... لا يمكن الذهاب إلى مكان قط فى هذين اليومين حاجة تقرف بجد ، فدور السينما معطلة ولا يمكن عمل شئ قط . "

سأله كمال :

" ما الذى تودون عمله ؟ "

نظر إليه منوچهر وضحك ضحكة مكتومة :

" ماذا نود أن نعمل ؟ شئ واضح بقى . نضع أسطوانة ونرقص .

بهت كمال :

" تريدون أن ترقصوا ؟ إنه إثم ، إنها ليلة القتل . "

ابتسم منوچهر وقال بلهجة ساخرة :

" رح لحالك يابنى . "

وهز كتفيه ، فنظر إليه كمال ولم يقل شيئا ، فلم يكن يتوقع مثل

هذا التصرف من منوچهر . أراد أن يفحمه بنفس هذه اللهجة ، لكنه كلما فكر لم يرد إلى خاطره شئ ، فتقطب وجهه وأطرق رأسه وتقدم بضع خطوات وقال منوچهر :

" انظر ياكمال . "

وقال بأدب كان يستحسنه في سلوكه :

" لا أقصد شيئا . معذرة ... "

شعر كمال للحظة بارتياح . فمن خلال سلوك منوچهر الساخر كان يتجلى حب وعطف قليلا ما ضايق كمال لكنه كان يدفعه إلى التفكير كثيرا . أراد أن يبتسم لكنه لم يستطع ، فقد داهمت رأسه أفكار محزنة :

" لماذا يسخرون منى جميعا ؟ "

كانت هناك فتاة في زى مدرسى تمر أمامهما تحمل كتبها تحت إبطها . وكانت تسير بخطى مسرعة وحركات قدميها الخفيفة ترعش جسدها المتناسق المشوق . قال منوچهر :

" أظنها فرشته . "

عرجت فرشته في زقاق آخر . عندما وصلا إلى ناحية الزقاق كانت قد دخلت المنزل ، فسلم عليه منوچهر مودعا إياه وتوجه إلى المنزل ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى توقف ونادى : كمال فاستدارالأخير فرأى منوچهر منحنيا يفتح حقيبته . وقال منوچهر :

" كدت أنسى . اللعنة على هذه الذاكرة . "

ثم أخرج كتابين من حقيبته :

" كنت قد أحضرتهما من أجلك ... إنهما كتابان ممتعان . "

انفرجت أسارير كمال ونسي ضيقه وابتسم قائلا :

" أشكرك جدا . "

وتقدم بسعادة وأخذ الكتابين من يده .

ابتسم منوچهر وضغط على يديه وتوجه إلى منزله ، وتوقف كمال وأسند حقيبته الثقيلة على نجد حائط وأعاد فتحها ووضع الكتابين فيها .

منذ فترة ، وذات يوم عند عودتهم من المدرسة متجهين إلى المنزل ، قال منوچهر :

" بالأمس قرأت كتابا جذابا ... روعة .أعطيك إياه لتقرأه أيضا ؟! ... حتما سوف يعجبك ."

نظر إليه كمال متحيرا ، حتى ذلك الحين لم يقرأ كتبا أخرى سوى كتب الدراسة وبعض الكتب الدينية وكتب التراث ، ولم يكن يعتبر أن الكتب الأخرى جديرة بالقراءة وكان ينصرف عنها . فكان والده يقول دائما إن هذه الكتب غير الدينية قد أذهبت عقول البشر وإنها صرفتهم عن الله ورسوله ، وكان جده الحاج الكبير يقول له :

" جاء الكفار واستقروا وقالوا ، ماذا نفعل حتى نخدع الناس ونأخذ منهم دينهم وإيمانهم ، قالوا ، نأتي بهذه الكتب غير الدينية وكتب الحب ونعطيها لهم حتى ينصرفوا عن الصلاة والصوم والمساجد فينسوا الله ! "

عندما فهم منوچهر أنه لا يقرأ الكتب ، نظر إليه مندهشا :

" ألا تقرأ شيئا ؟ ! "

فأجابه كمال :

" أقرأ الكتب المدرسية و ... "

فقال منوچهر ساخرا :

" لا يابنى ! ألست تمزح ؟ "

" تجرنى فى الكلام ؟ "

فضحك منوچهر ولم يجب عليه ، فسأله كمال :

" تقول إذن أى كتب أقرأها ؟ الكتب التى تضلل الإنسان ؟ ! "

ضحك منوچهر بصوت عال :

" تضل ؟ ... ومن ثم فأنا لابد ... لابد أن أكون الآن شريدا آوى إلى الجبل والصحراء . من أى صندوق عطار أتيت بهذا الكلام ؟ ! "

اضطرب كمال وقال فى عجالة :

" ليس هذا هو قصدى ، وإنما قصدى أنها تبعد الإنسان عن مشاغل الحياة وتخدع الناس . "

" انظر إلى مثلا أنا الذى أقرأ الكتب هل تعطلت عن مشاغل الحياة ؟ ! "

عجز كمال عن الرد ، وبدأ منوچهر فى قص حكاية الكتاب الذى قرأه بينما كان كمال منصتا فجذب اهتمامه شيئا فشيئا . وعندما أنهى منوچهر القصة أخذ كمال الكتاب ليقرأه وتوجه إلى المنزل وقرأ منه

صفحتين أو ثلاث حتى مل ونفد صبره فأعاده إلى منوچهر قائلا : لقد قرأته . لم يكن يفهم مابداخل هذه الكتب حتى تشد منوچهر هكذا . فكل مرة كان يعطيه منوچهر كتابا كان يقول له :

" أراهنك أنك لو أمسكت به لن تستطيع تركه . "

فأحضر الكتاب إلى المنزل وجاهد فى قراءته لكنه لم يتقدم عن الصفحات الأولى ولم يكن لديه الميل للقراءة ، وهكذا رد عدة كتب إلى منوچهر دون أن يقرأها . ولكن بعد أن رأى أن منوچهر يشك فيه ، بالتدريج بدأ فى قراءة كتاب وصمم أن يقرأه حتى نهايته . وأصابته الصفحات الأولى بالتعب وغلبه النعاس ، فأراد أن يتركه جانبا ، لكن ثناء منوچهر على الكتاب أثار فضوله ، فكلما تقدم فى قراءته جذب اهتمامه أكثر إلى موضوعات الكتاب ، وما إن انتهى منه حتى تملكت قلبه نشوة حلوة ، فرفع الكتاب بيده وقرأه ثانية من البداية فأعجبه أكثر . وفى الليل والوقت متأخر ، طوى الكتاب ونام . وبينما هو نائم مرت عليه موضوعات الكتاب متفرقة ومختلطة . وأثناء نومه تخيل نفسه مكان الفتى الفدائى بطل الكتاب والذى ضحى بروحه لينجى أخاه وخدع أعداء وطنه بذكاء ومهارة .

وفى الليلة التالية ، أخبر منوچهر عن الكتاب بانفعال بحيث أحضر له كتابا آخر لنفس الكاتب ، فقرأه فأعطاه كتبا أخرى . كان والد منوچهر يمتلك مكتبة حافلة ، وكان منوچهر يحضر لكمال الكتب التى قرأها وأعجبته .

وكانت أغلب الكتب قصصا مليئة بالمغامرات ، وكانت موضوعاتها المتنوعة تسلب لبه و إدراكه ، فكان يقرأ بعضها على سبيل الفضول بعضها الآخر على سبيل الميل والرغبة . لم يكن يفهم موضوعات الكتاب أحيانا ، وأحيانا أخرى كان يندهش ويبهت بها ، كانت مزاولة العشق بين النساء والرجال وشهوتهم تصيبه بدوار فيترك الكتاب أحيانا ليجلس مليا يفكر فيما قرأه وهو مبهوت ، ويظل مستيقظا أغلب لياليه ، يجر فتيلة المصباح إلى أسفل ويقرأ بهدوء خشية أن يشم والده خبرا فيحدث ضجيجا وعجيجا . وكانت المرة الأولى التى يشك فيما يقوله والده .

" كيف يمكن أن تغوى الإنسان ؟ كتب بهذا الجمال ... لا . ليس صحيحا . "

عندما كان يطفئ المصباح وينام ، كان يتعامل مع أبطال الكتاب ، كان يقاتلهم ويأمرهم ، وكان يبارز القراصنة بالسيف ويسافر ويرى مدنا عجيبة وغريبة وخيالية ويعاشر أناسا غرباء عجيبين ، يتحدث مع نساء جميلات ناعمات ويضاحكهن ويعاشقهن . وذات مرة وهو نائم جاءته عروس جاره الجديدة الجميلة فى صورة بطلة الكتاب الذى قرأه ، جلسا معا ، تسامرا ومارسا اللهو ... قبل كمال يدها ثم احتضنها واعتصرها وقبل شفتيها الغليظتين الحمراوين ، فقفز من نومه مضطربا وارتعد خوفا من المعصية ونهض من مكانه ، وخرج من الحجرة وهو يرتعد وجلس جانب حوض الماء وتوضأ ثم عاد إلى الحجرة بجسد مرتعد ، ووقف يصلى وتعهد أمام الله ألا يقرأ هذه الكتب ثانية . تاب ثم نام

ومالبث أن نقض توبته ثانية بعد أيام وتبدد عهده فأخذ الكتاب الذى تركه عند منتصفه وبدأ يقرأ مرة أخرى بشغف .

أبطأ خطاه فى الزقاق الذى كان مزدحما ، ومر بمنزلين أو ثلاثة من المنازل التى كانت تقيم مجلسا لقراءة الروضة . ففى هذه الأيام كان يصل دائما مسرعا إلى المنزل ، يترك حقيبته ويبدل ملابسه ويذهب إلى منزل عمه الحاج ، لكنه الآن لم يكن على عجل فأبطأ السير . وبعد الظهر ولمدة نصف ساعة ، هطلت الأمطار الربيعية كأنها السيل ، وارتفعت رائحة التراب المشبع بالأمطار فى فضاء الحى ، كانت الأشجار يانعة مخضرة ، مر بعدد من الأزقة حديثة البناء ، فمنذ فترة كانت الأحياء القديمة واحدا تلو الآخر تهدم وتشيد بدلا منها المنازل والشوارع والحوانيت الجديدة ، فقد باع كثير من السكان القدامى منازلهم وحوانيتهم انتقلوا إلى جنوب المدينة ، الزقاق الذى كان يقع فيه منزل منوچهر لم يكن قد مضى على بنائه أكثر من بضع سنوات ، وتم رصف الشارع القريب منه العام الماضى ، وقد أقيم على جنباته صف من الحوانيت الجديدة ، وعندما وصل إلى المنزل دخل حجرته ففتح حقيبته وأخرج الكتابين اللذين أعطاهما له منوچهر وخبأهما خلف كتبه المدرسية داخل المكتبة . سمع صوت زمجرة أمه يرتفع فى فناء الدار :

" اجلس ياعبيط ، خلص شغلك حتى آتى . "

أطل من نافذة الحجرة ، فوجد أخواته يلعبن مع ابنة الجيران فى فناء الدار ، وكان صراخهن وصخبهن يعلو ، وأمام وجهه كانت حديقة

الجيران مليئة بالورد والبراعم ، وكانت الشمس مسلطة على وجوه الفتيات والشجر الأخضر كأنها جماعة من طيور الكنارى .

جلس بجانب النافذة واتكأ على الحائط ، كان يشعر خلافا للأيام الأخرى بعدم الرغبة فى الذهاب إلى الروضة ولم توقظ الرغبة بداخله فكرة الذهاب وسط النساء وتقديم الشاى لهن مرة أخرى ، فجلس القرفصاء وأخفى وجهه بيديه وكان يرى نفسه مضطربا جدا .

* * *

سمع صخبا من داخل صحن الدار ، كان الصباح فقال لنفسه :

" بدأ ثانية . شجار . دائما شجار ... "

كان أبوه يصرخ ويصيح :

" يا امرأة سيبك من شغل الغجر بتاعك واتركينى أمشى هادئا ... طلع النهار ولازلت واقفا هنا . "

سمع صوت أمه :

" اذهب . من الذى يمنعك ؟ أفى هذه المرات التى كنت تحنى رأسك وتذهب سألك أحد لماذا تذهب ؟ وإلى أين تذهب ؟ "

انتحى النافذة جانبا ، فكان أبوه واقفا فى صحن الدار يحرك مسبحته بعصبية ، وأمه جالسة على طرف طست الماء تغسل سروال عبد الله بينما وقفت أخواته أمام الحجرة ممسكات بيد عبد الله ، فقالت أمه ثانية :

" إذن كم أجلس فى هذا المنزل وأقوم بكل العمل !! ... وأيضا كم مرة ستنهض كل ليلة جمعة وتخرج ولا تخبرنا . فنحن أيضا بشر ، لقد تعفننا من كثرة بقائنا فى هذا المنزل القذر المتعفن . هل قلت مرة انهضوا وتعالوا لنذهب معا ، هه ؟ ليس معلوما ماذا تخفى من خداع والزيارة ليست إلا حجة . "

قال أبوه :

" ما هذه الحجة ؟ يا امرأة لا تختلقى كلاما . حرام عليك . "

" إذن لماذا لا تريد اصطحابنا ؟ "

" فى النهاية يا امرأة أقول مرارا ليس اليوم هو اليوم الذى تخرج فيه النسوة ... إنه يوم الحشر . "

قالت أمه :

" قلت إن كل هذه حجج ، فتلك الأوقات أيضا التى ليس فيها ازدحام وضوضاء بحثت عن مخرج وتعللت ، وتلك الأوقات كنت تقول أيضا أنك لاتحبذ أن يمضى نساؤك وأطفالك فى إثرك يوم الحشر ؟ ليكن يوم الحشر ! ترى ماذا نريد أن نفعل ؟ نذهب للزيارة ثم نعود ولا نرغب فى أن نبقى هناك . "

كان والده يمشى فى صحن الدار ويحرك مسبحته بعصبية :

" محال ، أقول دوما : محال . لا تعاندى إلى هذا الحد يا امرأة . ربما فى مرة أخرى عندما يكون الجو أقل ازدحاما . ليس مقبولا أن يأخذ الإنسان حريمه ويمضى فى هذا الزحام . تكون معصية والله . "

" ما المعصية فى هذا ؟ هؤلاء الخلق جميعا الذين يمسكون بأيادى زوجاتهم وأولادهم ويذهبون للزيارة ، هل يرتكبون معصية ؟ أى كلام تقوله . ترى ماذا تريد أن نفعل ؟ أتريد أن تحملنا إلى أين ؟ ... نركب السيارة هنا ، بعد ساعتين أو ثلاث نصل إلى قم . وبمجرد أن نزور نعود . بالله إذاطأطأت رأسك ثانية ومضيت آخذ كمالا والأولاد ونسير خلفك . "

قال أبوه :

" إن كمالاً لا يقترف خطأ من هذه الأخطاء . أهو تحت سيطرتك ؟! "

فنظر كمال إلى وجه أمه الحزين المتألم وقال :

" أنا ذاهب معهن . "

فرفع والده رأسه ونظر إليه بتفحص وعين غاضبة :

" أنت مخطىء . "

هز كمال كتفه وقال :

" أنا ذاهب معهن . فلماذا لا تصطحبهن ؟ "

" لا دخل لك بهذا ، فأنا الذى أوافق على أخذهن معى أو لا ، أفهمت ؟ "

" والآن لابد وأن أرد على هذا الضب . "

صاح كمال :

" سآخذهم وأعود بهم ، وإن لم أعد بهم . "

نظر إليه والده وهو حائر وقال له بلهجة الأمر :

" إنك مخطيء . "

" أنا لا أخطيء أبدا ، فالكلام ليس كلامك دائما . "

فرد أبوه بغلظة :

" ياالله . اخرس بقى يا كلب ميت ... لابد أن جسدك يأكلك . "

سكت كمال ورأى أمه تنظر إليه بعجب ودهشة ... لم يكن قد تحدث مع أبيه هكذا قط . وما إن وضعت أمه سروال عبد الله على طرف الحوض حتى نهضت من مكانها قائلة :

" كمال لا تتحدث قط ... فمنذ الصباح عندما استيقظ وهو كابن ملجم . فدعه يمضي ... نحن نعرف ماذا نفعل ؟ "

هدأ أبوه وبدأ يعبث بالمسبحة ثانية :

" إذن يا حبيبى لو تريدون سلوك الطريق جميعا وتأتون ، من يحرس المنزل ؟ "

قالت أمه :

" فليذهب إلى سقر . وكل ما فيه يسرقونه ويمضون . كل هذا الوقت الذى قبعته فى المنزل وحفظته ... ماذا جنيت؟ أمامى أيضا آخرة، ولابد أن أدخر لها شيئا أيضا ؟ "

قال كمال :

" لو لم يكن عندك عذر آخر أنا الذى سأحرس المنزل . "

صاح والده :

" يجب عليك ألا تبرح المنزل بقدميك . "

" موافق . سوف لا أبرح المكان . "

" تعرف ، لو تركت المنزل وخرجت ... "

قاطع كمال كلام والده :

" قلت لن أخرج من المنزل ... لن أخرج . "

قال والده :

" حسنا جدا ، هيا استعدوا الآن لتخرجوا ، فلو تأخرتم فبالله العظيم أترككم وأمضى ولن آتى المنزل لمدة أسبوع . "

غسلت أمه وجهها على طرف الحوض وهى سعيدة ونهضت من مكانها قائلة :

" ليس عندنا شغل قط . لا نريد أن نذهب إلى عرس بحيث ... "

كان والده يمشى فى صحن الدار يسبح ، وكان وجهه عابسا مكفهرا . رجع كمال من ناحية النافذة ، وكان سعيدا من أعماق قلبه لأن والده سيصحب أمه ، وأخذ يسأل نفسه :

" لماذا يذهب أبى وحده دائما ولا يصحب أمى معه ؟ "

كان يذهب كل سنة إلى مشهد مرة أو مرتين ، وكل بضع سنوات كان يذهب مرة إلى كربلاء . وفى السنوات الأخيرة كانت تراوده فكرة الذهاب إلى مكة . كان يسكت ويسكت وعندما كان يعزم كان يتحرك . كان يقول لأمه إنه أخذها معه إلى مشهد مرة أو مرتين ، وكان يمن عليها دائما :

" ألم أصطحبك إلى مشهد ؟ سوف آخذك إلى كربلاء فى حينها ...

وما الفائدة ، مادام لاهدف لديك ؟ "

كان يذهب إلى الحمام ليالى الجمع ويصبغ شعره بالحناء ، ويضع عباءته على كتفه ، ويذهب إلى قم . كان قد تملك قلبه شعور بالرضا ، فمنذ أن اشتبكت أمه مع أبيه من أجل ذهابه إلى المدرسة ، فى كل مرة كان يأخذ جانب أمه ضد أبيه ، كان يشعر بالسعادة والرضا ، وكان أبوه يقول دائما :

" عندما يأخذ شهادته ، سوف آخذه بيدى حتى أعلمه دقائق الصنعة ... حينئذ آخذ له حانوتا على ناصية السوق ، وأعطيه رأس مال حتى يتكسب بنفسه ولا يحتاج إلىّ ثانية ... "

لكن عندما نال كمال شهادته منذ بضع سنوات ، أصر خاله وأمه من جديد على أن يكمل تعليمه . وكان خاله يقول :

" خسارة ... والله خسارة يا سيد مصطفى ، انظر إلى شهاداته... انظر إلى الدرجات التى حصل عليها . "

كان والده يقول :

" يكفيه هذا القدر من التعليم . ماذا يريد أن يفعل أكثر من ذلك ؟! أحب أن تنظر إلىّ . فأنا لم أبلغ من التعليم أكثر من الصف السادس فهل عجزت فى حياتى ؟ هذه المدارس تخرب دين الأولاد وإيمانهم ... "

كانت أمه تقول :

" فى رأيى إنك تريد أن تدفع أموالك للأطباء والدواء هذا حاله ، إنه مريض دائما ، فما بالك لو عاش وسط تلك الجلود المتعفنة فى ذلك

الدكان المغلق منذ الصباح حتى المساء ؟ "

وكان خاله يقول :

" لو تسمع منى يا سيد مصطفى فلتتركه يتعلم ويدرس . لديه رغبة وميل فعلا ، فلماذا تريد أن تمنعه ؟ الناس يدعون ربهم أن يواصل أبناؤهم الدراسة . "

كان أبوه يقول :

" أنا لا أفهم ، هل لو وافقت على أن يدرس أكثر ، صفين أو ثلاثة ، ألن يأتى ويقع فى يدى فى النهاية ؟ إذن لماذا لا يأتى من الآن ، ولماذا يضيع وقته ؟ لو آخذه من الآن بنفسى إلى الوكالة ليتعلم جيدا طريقة العمل وأصوله، بعد بضع سنوات سوف يكون تاجرا محترما ."

فكان خاله يقول :

" أمن الضرورى أن يأتى ليتعلم على يديك ؟ هل من الضرورى أن يكون تاجرا ؟ ربما يتعلم ويرقى ويصل إلى أعلى المناصب . لعلك لم تر الحاج عبد الله صانع الزجاج الذى ترك أبناءه الثلاثة يدرسون . "

كان والده يقول :

" الحاج عبد الله مختل العقل ، يتمنى أن يكون من بين أولاده مهندسا أو طبيبا ، الجمل يرى فى نومه بذرة قطن . "

وكانت أمه تقول :

" وما العيب فى هذا ؟ إنه مجال فخر . "

كان والده يقول :

" إذن لماذا لا تفـهـمـى يا امـرأة ؟ مـتـى يكون أولادنا أطبـاء أو مـهندسين ؟ ثم من يسـتطيع أن ينفق عليـه حـتى ذلك الوقت ؟ ألا ترين الأرباح تنقص يوما بعد يوم ؟ ربما يريد الحـاج عبد الله أن يلقى بأمواله فى بئر ، أينبغى علينا كلنا أن نفعل هذا ؟ والله إننى لا أملك الكثير من المال ... وحتى هذه المرحلة ما أنفقته عليه كثيرا . "

فقدت أمه أعصابها دفعة واحدة وصاحت :

" أيكون الرأى رأيك دائمـا . لا أملك . لا أملك . إن شـاء الله ربنا يفـقرك حـتى لا تتـحدث عن الفـقـر إلى هذا الحد . عندمـا مـات أبوك لم يتـرك لك أكثـر مـن حـانوتين ، وأصـبـحـوا سـبـعة ... وتتـحـدث دائمـا عن كسـاد الشـغل . مـاذا بك ؟ مـا الخـبـر ؟ غدا عندمـا تسـقط مـيتـا يرثونك ويهـبـونك حـبـقين . مت من قـولك لا أملك لا أملك لو الأمـر بيـدى لبـعت القطـع الأربعـة من الذهب التى أمـتلكهـا ليـدرس ولدى . كـأننى أقل من زوجـة الحـاج عبـد الله أينمـا تجلس تـأخذ بوز لأن ولديهـا يدرسـان ، وتود أن يكون أحدهمـا طبيبا والآخـر مهندسا . "

اشترت له أمه حقيبة كبيرة ، وصحبته من اليوم الأول حتى بوابة المدرسـة ، تدعـو له وتنفخ الدعـاء فى وجـهـه وتقـول له وعيناهـا مليئـتـان بالدموع وهـى ترجوه :

" كمال يا حبيبى ! تعلم . أنت عارف أبوك . شفت كان بيقول إيه ؟ لا تعطيه فرصة حتى يخرجك من المدرسة ... يا حبيب أمك ، جُعلت فدى شبابك ، ذاكر دروسك حتى لا ترسب فى الامتحان . "

سمع صوت أمه ، فاستدار ثانية تجاه النافذة . كانت أمه مرتدية ملاءتها السوداء وممسكة يد عبد الله ، بينما كانت أخواته وراءها . رفعت رأسها وقالت بسعادة :

" عزيزى كمال ... غداءك فى المطبخ ... سخن وكل . نحن خارجون . "

صاح والده :

" يا بنى لا تترك المنزل لحظة وتخرج ، خذ بالك أن ... "

فأجاب كمال :

" أجل إنك تقول مرارا ... "

صاح والده ثانية :

" سوف نعود فى أول العصر حتى تلحق شاى أول روضة ، قال عمك الليلة الماضية أن أخبرك أن تذهب الليلة مبكرا ، فله معك شئون كثيرة خذ بالك ؟! "

" أجل يا أبى . "

وما إن سمع صوت باب الحارة حتى شعر بارتياح ، وتراجع عن النافذة ، وأخرج من خزانة الكتب كتابا من الكتب التى أعطاها له منوچهر ، وتمدد مسترخيا فى جانب من الحجرة وبدأ القراءة .

* * *

استيقظ من نومه على صوت أبيه . كان والده قد أتم صلاته فى الحجرة المجاورة ثم بدأ فى المناجاة . كان يرفع أنفه محدثا جلبة معطيا

صوته رنة أنين وهو يقرأ :

" إلهي ! انظر إليّ بكرمك أنا الفقير . أنت المعز ذو الجلال والإكرام فانظر إليّ أنا جريح القلب . "

كان الجو لا يزال مظلما ، ولم يكن يسمع فيه صوت ، وكل شيء قد غاص في سكون الصبح العميق وصمته . فنهض من مكانه ملقيا بسترته على كتفه وهبط درجات السلم . كانت أمه تشعل النار في صحن الدار ، وحلقة النار تدور حول رأسها كالهالة بينما يتطاير الشرر في كل جانب .

توضأ على الحوض وعاد إلى الحجرة . كان والده لا يزال يدعو ويناجي في الحجرة المجاورة . أنهى صلاته وجاء بجوار النافذة . كان الجو بديعا رطبا ، وعندما كان يشهق الهواء كان ثمة سرور يغمر وجوده ، وكان كل شيء باعثا للسكون أمام عينيه ، فحديقة الجار يلفها الظلام والنجوم متلألئة في السماء ، والقمر يختفي خلف قطع من السحاب ، وكان نجم السحر كبيرا مضيئا معلقا في زاوية السماء وكأنه المصباح وكان سعيدا . لكن لم يكن يتملكه شعور بالانفعال مثل السنوات السابقة ، فالليلة الماضية كان مع أطفال الحي ، وكان كل حديثهم قد دار حول الضرب بالسيف في كل عام وكان الضرب بالسيوف القصيرة يجري في منزل عمه الحاج ، وهذا العام كانوا قد منعوا الضرب بالسيف ، وكان ابن عمه يقول : إن مصطفى الجزار قد ذهب إلى رئيس الشرطة وقال له :

" بروح المصطفى ! تجاهل هذا الأمر هذا العام ، ومن العام القادم أنا خادمك المطيع ولا أرد ما تقوله مطلقا " .

ينبغى أن يقوموا فى الصباح الباكر للضرب بالسيف وأن ينهوا هذا الأمر بلا ضوضاء أو صياح . ارتدى ملابسه ونزل . كانت أمه قد فرشت لوازم السماور فى ركن من الحجرة . بينما كان السماور يغلى والبخار يتصاعد منه وأبوه وأخواته يجلسون بعيدا عن السماور ، كان النوم يغالب عينى عبد الله وهو جالس بجوار أمه ووالده يقول بعصبية :

" لقد تزعمت هذا شرذمة لا مذهب لها ولا دين ، تأمر وتنهى . أولاد الملعونين يقومون بنوع من الألاعيب . لا أدرى ماذا يريدون من حياة هؤلاء البشر المبتلين ، لماذا لا يتركون الناس يؤدون مناسكهم الدينية ؟ منذ أن وجد العالم والناس قد ضربوا أنفسهم بالسيف يوم عاشوراء ويقيمون الحداد والعزاء ، ولم يقل أحد أن الضرب بالسيف القصير ليس عملا طيبا ، والآن جاء حفنة من أولاد الزوانى قائلين : إن الضرب بالسيف يوم عاشوراء وحشية . لا تضربوا أنفسكم ثانية ... فالحكم حكم الدولة وأمرها . "

قالت أمه :

" الليلة الماضية كانوا يقولون فى الروضة إن السيد مصطفى ذهب لمقابلة رئيس الشرطة وأرضاه . "

تبسم والده بسخرية قائلا :

" أجل لقد أرضاه ، وروح أهله . ابن كلب ، مادام لم ير رزم النقود ، فإنه كان يرفض ويقول :

لا يمكن ، ضد القانون ، فيه مسئولية . "

عندما شرب الشاى ، أمسك يد عبد الله وخرج من المنزل مع والده .

كان الجو بين النور والظلمة ، وقد خيم السكون على المنازل الصغيرة والقليلة التى تشبه علب الكبريت المتراصة . كان حيهم من الأحياء القديمة المزدحمة بالسكان فى المدينة ، ففى النهار تكون الأسواق والأحياء ممتلئة بالرجال والنساء والأطفال ، لكن الآن كأنه لا يسكنها أحد قط ، ليس بها أحد قط ، والأزقة الطويلة قليلة العرض كثيرة المنحنيات والتى كانت تؤدى من ناحية إلى السوق ومن ناحية أخرى إلى الشارع المزدحم قد صمتت تماما . منذ سنوات كان جد كمال قد باع منزله الصغير الذى كان فى عمق أحد هذه الأزقة وأقام منزلا أكبر بالقرب من السوق ، فالمنزل بالنسبة للمنازل الأخرى يعتبر أجمل وأكثر احتراما ونظافة ، لكنه كان مثل المنازل الأخرى منحنيا ورطبا بحوائطه وجدرانه المرتفعة بحيث لا يستطيع القط أن يجد له طريقا داخل الفناء ، وكان كمال وأختاه اللائى هما الآن فى الصف الخامس والسادس الابتدائى ، وأخوهم عبد الله فى سن الرابعة أو الخامسة قد ولدوا جميعا فى هذا المنزل .

كان اعتدال الجو وهدوئه يبعثان فى نفس كمال الراحة ، وكان يسير ببطء حتى يستطيع عبد الله أن يماشيه ، وكان والده يتقدمهم بكثير بينما كانت قامته القصيرة وهيكله الغليظ يملآن أكثر من نصف الحارة . كان حذاؤه يكنس التراب من قلب الزقاق وكان يتقدم تعبا لاهثا .

وعندما عبروا الزقاق وصلوا إلى فضاء مفتوح حيث صار الجو أكثر نورا وقد صب على ظلمة السماء بياض ذاهل ، وقطع السحاب

بيضاء قطنية تعلو من جانب الأفق ، والديكة تصيح ، كما كانت حوانيت السوق كلها موصدة ولم يُر أحد قط ولم يكن هناك خبر عن الصخب والضجة والحركة التى تجرى كل يوم ، وقد تجمعت بضع كلاب حول كلبة وكانوا يتقافزون معا ويشخرون ، فانحنى والده وأخذ حجرا وفرقهم ، ثم أخذ حذاؤه ثانية يمسح الطريق ومضى إلى سبيله ، وكان صف حوانيت السوق ملكا لوالده ، وأول كل شهر كان والده يجر كمالا خلفه قائلا :

" يا بنى افتح عينيك جيدا ... السوق ملىء باللصوص والنشالين ، وحتى يعود المرء إلى وعيه ويتحرك يسرقون نقوده بلا شرف ويفرون . "

وعندما كان يصل إلى حانوت ، كان يذهب إلى نجد الحانوت مناديا ، فيأخذ إيجار المحل ويعده ، ثم يلفه فى منديل كبير مربعات ، ويعقده بإحكام ثم يربط طرفى المنديل حول منطقته معلقا النقود بين ساقيه ، إلى درجة أنها تبدو وكأنها فتق وهى معلقة بين فخذيه وهو يسير فى السوق بينما كان أصحاب الدكاكين يضحكون قائلين :

" السيد مصطفى شرَّف يا أخينا ، والنقود لاتعوَّض هنا ! "

وكان أبوه الذى جمع الإيجارات وتحسن مزاجه يقول :

" وإن سرقوها ، ليسرقوها ... ماذ تظنه يحدث ... هه ؟! "

بينما كان أصحاب الدكاكين يضحكون قائلين :

" ماذا تفعل بذهابك إلى قم ليالى الجمع يا سيد مصطفى ؟ "

" أنتم أيضا لديكم نزواتكم فقد بلغتم أخيرا سنَّ الرجولة ...

بالنسبة لى فأنا مطمئن الحال . "

وكانوا يقولون أحيانا :

" يا سيد مصطفى ، متى نأتى لنأكل الحلوى فى عرس السيد كمال ؟ ما شاء الله لقد صار رجلا ... "

كان والده يهز رأسه قائلا :

" لا تنظروا إلى ساقه الطويلة ، فرائحة الرضاع لازالت فى فمه . ثم فأنى لى المال لأزوجه ... ؟ لا تزال يده ممدودة إلىّ عندما يكون له أب مثلك فماذا يحتاج إليه بعد ؟ "

وكان والده يعبس :

" ومن أكون أنا ؟ قل له الله ، فلابد أن الله يهيئ له أسبابه ووسائله . من أكون أنا ؟ مع هذه الأحوال الراكدة مع كساد هذا السوق ، يتولانا الله جميعا . "

فى تلك الأيام عندما كان كمال لا يزال طفلا ، كان أبوه يأخذه فى يده ويصطحبه إلى مجالس الروضة والمسجد ، وكمال يسمع نفس هذا الكلام من فمه : " الأعمال راكدة ، والسوق فى كساد الناس قصمت الديون وسطهم . "

وفى أوقات كانت المدرسة ترسل خطابا ، وتطلب إعانات للطلاب الفقراء ، كان والده يقول نفس الشيء :

" فى النهاية ... من أين لى حتى أعطى ... لست جالسا على كنز ... اذهب وقل ، إن أبى يقول : الأحوال راكدة .. اذهب وقل ، ليس عند

أبى من النقود ما يعطيه . "

من بعيد كان كلوب يبعث ضوءا خافتا على باب منزل عمى الحاج .

قال عمه ، " ليلة الأمس آخر مجلس الروضة .

ابن أخى . تعال فى الصباح مبكرا ... لا يغلبك النوم ، أنت تعرف أن وراء نا أشغالا كثيرة ... "

وكان أبوه قد أجاب بدلا منه :

" من الخطأ أن يغلبه النعاس ... سآتى به معى يا أخى الحاج ... أرح بالك . لابد أن يفخر بأن مثل هذه الأيام فى حاجة إلى وجوده . "

وقع اضطراب فى قلبه ومضى مسرع الخطى بلا إرادة ناسيا عبد الله . وتعلق عبد الله من خلفه بيده وانبطح أرضا ، فوقف بغيظ وصاح به :

" تحرك يا قذارة ... "

عندما وصلوا إلى منزل عمه الحاج ، ترك يد عبد الله وبخطوات واسعة عبر دهليز المنزل . وفى الدهليز كان هناك كلوب مضاء ، وكان الرجال يمرون بقمصان سوداء مفتوحة الجيب والنساء بعباءاتهن السوداء . صعد درجات السلم إلى الدور العلوى ، وعند انحناءة السلم واجه عمه وهو يلهث وكرشه البارز يعلو ويهبط . توقف عمه الحاج ، وفى النور الباهت الذى كان يأتى من الدور العلوى نظر إليه وكانت عيناه حمراوين يغلبهما النعاس ، ربت على ظهره وقال :

" أسرع إلى أعلى يا حبيبى ... أسرع لقد جئت فى الوقت المناسب . "

كان فى السواد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه حالقا شعره من منبته ، وسأله :

" هل جاء أبوك أيضا ؟ "

هز كمال رأسه وصعد درجات السلم .

فى الدور العلوى ، كان المصباح مشتعلا ، بينما كان أبناء عمه قد جلسوا أمام كومة قماش بملابسهم الداخلية يقطعونها بالمقص ، كان المعلم أصغر الدلاك منحنيا ، يحلق وسط رأس حسن سياه بالموسى ، وكان هناك بضع أشخاص يجلسون أيضا بجانب حسن سياه إلى أن يأتى عليهم الدور . كان الخال على القهوجى يضع الفحم الأسود فى السماورات الكبيرة ويدور ويلف ، وكان صبيه يحرك الأكواب الصغيرة وأطباق الفناجين فى طست ماء دافىء ، ثم يضعها مقلوبة على صينية إلى جواره ، وفى ركن ما فى الظلام كان يجلس الشيخ أحمد المداح ، وهو يغمس السيوف القصيرة الملوثة بالدماء فى العام السابق تباعا فى حوض ماء وضع أمامه ، وكان يغسل الدماء الجافة من عليها ثم يجففها بالمنشفة .

جلس كمال بجوار أبناء عمه أمام كومة القماش ، فقال أكبر :

" حسنا أنك جئت ، كأن الكافر لا يفكر فى أن ينتهى . كلت يدى . "

سأل كمال :

" من أين وصلت كل هذه الأقمشة الجديدة ؟ "

قال أصغر الابن الآخر لعمه :

" بالأمس ، جاءت امرأة وقالت لقد نذرتها للإمام الحسين . "

قال كمال :

" حسنا جدا ... لا أظن أن كله يوزع . "

قال أكبر :

" ما يتبقى يكون للعام التالى ... إنه لا يفسد ! "

قال أصغر :

" لا أظن أنه سوف يكون ضرب بالسيوف القصيرة أو غيرها العام القادم ، فأولاد الزوانى قد منعوه . "

قال أكبر :

" لا تحزن من أجل هذا يا أخى ... فالنقود تصحح كل الأمور والأعمال . "

قال كمال :

" يجب أن يكون السيد مصطفى موجودا ليتوسط . "

قال أكبر :

" إذا وجد المال يا أخى ، يكون السيد مصطفى زيادة أو نافلة . "

نهض حسن سياه من تحت يد المعلم أصغر ونزل من الدور العلوى . نظر كمال إلى سحنته الجادة وقامته الغليظة ومنكبه العريض فأيقظ الشعور بالاحترام فى قلبه .

في كل سنة كان عمه الحاج يوكل كل أعمال الروضة إلى حسن سياه ومصطفى الجزار ، فكانا يأتيان ويمكثان يوما أو يومين لقراءة

الروضة ، وكانا أيضا يأتيان بأتباعهم وينصبان الخيام فى صحن الدار ويفرشونها ، ويغطيان الأبواب والجدران بقطع سوداء من القماش ، ويكونون الجماعات يوم القتل ، وفى الطرقات كان مصطفى الجزار يدق خفايا كل مكان حتى الشوارع الشمالية ، وكانوا يتحدثون مرارا أنه تلقى ضربات السكين من طاهر . وكان ذا قامة طويلة وبدن غليظ ، وقد رسم خط السكين الأحمر من تحت عينيه حتى أسفل ذقنه ، وكان حسن سياه معه دائما ، وكان منصتا لكلامه مطيعا له وتساءل كمال :

" لم يظهر درويش ، إنه يأتى هنا كل عام . "

قال أكبر :

" سقط فى الدور السفلى ... شرب الكافر العرقى كالحمار . "

اتسعت عينا كمال :

" هل سكر ؟ ... لا . "

ضحك أكبر وقال :

" إذا لم يشرب فإنه لا يستطيع أن يضرب نفسه بالسيف القصير بهذه الطريقة ، الفاسد يضرب نفسه بلا هوادة . "

قال أصغر :

" العام الماضى أيضا ضرب حسن سياه نفسه بشكل محترم . "

قال أكبر :

" كان أحمد الجميل يقول إنه حل محل محمد آجان ، وأصبح مقامرا فى وكر قمار مصطفى الجزار ... "

تساءل كمال مندهشا :

" أيوجد فعلا وكر للقمار عند السيد مصطفى ؟ "

قال أكبر :

" منذ خمسة شهور أو ست ، جعل مقهى الخال عليّ وكرا للقمار . "

وصعد عمه الحاج درجات السلم وهو يلهث ويداه تهتزان ولسانه خارج من فمه ، والدم واللعاب يتدفقان بين شفتيه ، ونظر إلى قطع قماش السراويل التى كانت متراكمة قائلا :

" هذه تكفى ، احملوها واغسلوها وانزلوها أسفل ... ثم تحرك قائلا : يا الله ، طلعت الشمس . "

فقاموا وحملوا قطع القماش تحت آباطهم ونزلوا ، بينما الضجيج والزحام فى صحن الدار، فقد امتلأ صحن الدار بالضاربين أنفسهم بالسيف والرجال والنساء والأطفال ، وكان الضاربون أنفسهم بالسيف يطوفون ويدورون حول حوض صغير بصحن الدار وهم ينشدون المراثى مع الداقون على الصدور بينما الصبيان والرجال يقفون بجوار حائط صحن الدار ، وكانت النساء بعباءاتهن السوداء تملأن الحجرات والشرفات وحول أسطح المنازل ، وبجانب الحوض كان يقف مصطفى الجزار وفى يده السيف القصير ، والعيون كلها تترقبه ، وحسن سياه يصُفّ الضاربين أنفسهم بالسيوف ، الصغار فى المقدمة والكبار وراءهم . بدأ مصطفى الجزار بالصغار ، وقد جاء درويش وحسن سياه لمساعدته ، وعندما كانت الخناجر تستقر على مفارق الرؤوس كان الدم

يفور وكأنه قمة جبل أحمر ، وتعلو الصرخات ونحيب الأطفال والصيحات العصبية من كل جانب ...

وفقد رجل الوعى وسقط ممددا فتقاطر أتباع مصطفى الجزار وأخرجوه من صحن الدار ، وكان رجل عجوز يبكى بلا صوت ذارفا الدمع ، وخمش صدره بقبضته وسقط . كان كمال واقفا يناول عمه الحاج قطع القماش التى كانت توضع على رؤوس الضاربين أنفسهم بالسيف وكان يضعها على حافة الحوض وكان يغسل الوجوه الدامية بالماء الدافىء ، وفجأة ودفعة واحدة شعر كمال بأن شيئا حارا وناعما يسيل على يده ، فنظر فرأى بقعة كبيرة من الدم كانت لا تزال حارة وحية وتتسع فوق يده ، فتملكته رعشة وشعر فجأة بأنه فى سبيله إلى التقيء ، فأعطى قطع القماش إلى الشيخ أحمد الذى كان يقف مجنوبا فى ركن وجرى ناحية الحوض ، وكان ماء الحوض صافيا شفافا فوضع يده فى الماء واغتسل ، فتناثرت ذرات الدم فى الماء واجتاحت طراوة حلوة بشرة يده وشعر بسكينة ، ثم نهض من جانب الحوض وانتحى جانبا ، وانعكست فى أذنيه أصوات الصرخات وصياح الأطفال وبكاؤهم ، وكان كل شىء مختلطا متلاطما ، وكان الناس يتزاحمون ، والضاربون أنفسهم بالسيوف القصيرة برؤوس ووجوه دامية أخذوا يطوفون حول الفناء وكانوا يضربون أنفسهم بأكف أيديهم ، والضاربون صدورهم أخذوا يضربون صدورهم ويبكون بحرقة ، وكان الأطفال يبكون وينوحون والنساء يصرخن .

فجأة ازدحم ما وراء كمال ، وتجمع الحاضرون على بعضهم ، وفتح الطريق ، وكانوا يحملون أحد الضاربين أنفسهم بالسيوف فوق الأكتاف ، ومن تحت القماش الغارق فى الدماء والذى كان مربوطا على رأسه كانت خيوط الدماء تسيل من عروقه .

فشعر كمال ثانية بأن حالته تسوء ، فرأى والده حافيا لاهثا وهو يحمل على كتفه شخصا آخر من الضاربين أنفسهم بالسيف وقطرات الدم تسيل من رأس الرجل على صدر أبيه ، بينما كانت البقع البراقة والسوداء ثابتة ومستقرة على قميصه الأسود .

لقد أحضر أحد الآباء طفله البالغ من العمر ثلاثة شهور ليضرب نفسه أيضا بالسيف ، وكان ممسكا طرف يده ، ويصرخ كالمجانين ، ويكرر شيئا ما على وتيرة واحدة .

فتملكت كمال رعدة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ودارت رأسه، فشق طريقه خائفا من بين الضاربى صدورهم ليختلى فى مكان ما حيث كان المكان كله مزدحما ومليئا بالضوضاء .

فى الممر كان الرجال والأطفال يصطفون حتى يخرجوا من المنزل فى صورة جماعة ، فعبر الممر وصعد السلم بسرعة . كانت الحجرات مليئة بالنساء ، فتوقف حائرا إلى أين يذهب ؟ وكانت حالته سيئة ، فالصراخ والعويل يطن فى أذنيه ويؤدى به إلى الدوار فصعد السلالم حتى بلغ سطح المنزل ، وكان السطح أكثر خلوة اللهم إلا من بضع نسوة محجبات كن يجلسن فى طرف السطح وقد ركزن أبصارهن على ما يجرى أسفل ، فشعر بارتياح واختفت الضوضاء وجلس فى ركن

بعيدا عن النساء .

كانت الشمس قد طلعت والسماء الزرقاء الصافية الساكنة كأنها مرآة ، بينما تحلق فى السماء ثلاث حمائم أو أربع بيض صغار كانت تظهر ثم تختفى ، فأمعن النظر فى الزقاق الذى امتلأ بالنساء والرجال وصكت مسمعه غمغمة :

" درويش يريد أن يضرب نفسه بالسيف ... "

" درويش يريد أن يضرب نفسه بالسيف ... "

كانت الأصوات تأتى من داخل الفناء ، منذ سنوات كم كان ينتظر مثل هذه اللحظة وكم كان الضرب بالسيف يثير فى قلبه الوجد والهياج . وكان درويش شيخا عجوزا نحيلا قصير القامة وكانت الشمس قد أحرقت جلد وجهه المتيبس ، وكانت رأسه الصلعاء حمراء تماما فى لون النحاس ، وبينما كان الجميع يضربون أنفسهم بالسيف ، كان درويش يصرخ ممزقا قميصه حتى نهايته ، وكان يعدو حول الفناء ينشد المراثى ، ويحرك السيف فوق رأسه ، ويعلو صوته تدريجيا ويزداد علوا ويمسكه به من شدة انفعاله ، وكان شكل وجهه وعيناه يتبدلان ويتغيران ، وتتملكه جذبة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وبينما كان يسرع كالمجنون حول الفناء ، كان يتوقف فجأة رافعا رأسه إلى السماء ويصرخ صرخة عالية ثم يفرق رأسه بالسيف بكل قواه فتنبثق نافورة الدم إلى أعلى ويسقط درويش ويفقد الوعى .

ظل سنوات يشاهد الضاربين أنفسهم بالسيف قاطعا الشوارع سائرا فى صحبة إحدى الجماعات وهو يضرب صدره . ومنذ بضع

سنوات كان قد أوشك أن يضرب نفسه أيضا بالسيف ذلك أنه عندما بدأوا الضرب بالسيف تملكته حالة عجيبة فجرى إلى أعلى كالمجنون حتى يجد الأسطى أصغر ليحلق رأسه ، ولم يكن الأسطى أصغر فى الدور العلوى ، فجرى مسرعا إلى أسفل بحثا عنه فى الممر والحجرات فلم يجده . فأسرع مضطربا داخل الفناء ، وأراد أن يضرب نفسه بالسيف دون أن يحلق رأسه ، ولكن الضرب بالسيف كان قد انتهى . وبعد ساعة وحتى ذلك الحين كان سعيدا لأنه لم يضرب نفسه بالسيف ، ولكن لم يكن قد فهم شيئا عن حالته الانفعالية والعجيبة .

والآن قد انتحى جانبا وكان مذهولا وحائرا ، خلافا لكل عام لم يكن الضرب على الصدور والضرب بالسيف قد أحدث فيه أى نوع من الانفعال ولم يكن يدرى لماذا ؟ وأخذ يفكر :

" على أية حال ، إذن فقل ، لم يكن درويش فى حال تسمح أن يضرب نفسه بالسيف بهذا الشكل ، إنه ثمل تماما ثم يقول أبى ، إنه حبا فى الحسين . أعوذ بالله . "

كان قلبه قد تلوث :

" إن مصطفى الجزار كان عنده بيت للقمار وحسن سياه يحصل المال من المقامر الرابح..."

وكان أبوه يقول دوما :

" لولا وجود السيد مصطفى والسيد حسن لما سار الأمر بهذه الطريقة قط . ما شاء الله إنهما يقومان بعمل جيش من الرجال ...

حفظهما الله ... "

كان يشعر أنه مشتت وحائر ولا يستطيع أن يفكر تفكيرا سليما ، فمن قبل كان يفكر بنفس الطريقة التي كان يفكر بها أبوه ، ويرى الأشياء بنفس الطريقة التي كان يراها بها أبوه ، كان يصدق كلام أبيه من كل قلبه .

كان أبوه يقول دائما : إن الضرب بالسيف يجسد صحراء كربلاء أمام عيون الناس ، ولا يسمح لهم بنسيان شهداء كربلاء ، كان الضرب بالسيف يحرك فيه الشعور بالأسى والحزن دائما ، لكنه الآن كان يسأل نفسه : ما الحاجة إلى هذه المذابح بهذا الشكل أيضا وعلى أيدى هؤلاء الأشخاص ؟!

منذ بضعة أيام كان قد دعا منوچهر أن يأتي لمشاهدة الضرب بالسيف ، وكان يظن أنه سيقبلها بسعادة وسوف يمتن له أنه دعاه ، ولكن على عكس تصوره كان منوچهر قد عبس وهز كتفه ساخرا :

" آتي لأفعل ماذا ؟ آتي لأشاهد وحشية البشر . "

قبل ذلك أى احترام كان يشعر به فى قلبه بالنسبة لمصطفى الجزار وحسن سياه متمنيا أن يكون مكانهما ... فبعد سنوات أخرى حتما كان يستطيع أن يرفع العلم ويتقدم إحدى الجماعات ، والآن كان يشعر بنفس هذا الشعور العجيب فى عيون الأطفال المنبهرة فيجتاح الحزن قلبه ... فالتفكير فى هذه الأشياء كان يزيد من حيرته ، ففى الزقاق كانت الجماعة تتشكل هناك . وكان مصطفى الجزار وحسن سياه

يخرجان الأعلام والبيارق من المنزل ، وكانت الشمس متوهجة فى الزقاق العريض . وبينما كانت نسمات الهواء تداعب البيارق فتتمايل وتهتز أمام الجماعة ، كان الأطفال فى المقدمة يشقون الطريق ببيارقهم السوداء الصغيرة ، وكان يأتى خلفهم الضاربون أنفسهم بالسلاسل والضاربون على الصدور ، وبعد الجميع ، الشيوخ ولابسى القمصان السوداء والنسوة .

كان الزقاق مزدحما بالنساء والأطفال ، وكانت السحنات مهتاجة والعيون تلمع . وما إن رفع مصطفى الجزار الراية الثقيلة الكبيرة ذات الأحد عشر حافة [١] وشق طريقه أمام الجماعة حتى تحركت الجماعة وارتفعت أصوات الجلاجل الكبيرة والأبواق .

وفجأة شعر كمال بأنه محاط ومعصور من كل جانب ، فاستدار فرأى من خلفه زحام النسوة والبنات وضوضائهن اللاتى جئن للمشاهدة من الطرف الآخر للسطح إلى هذا الطرف . نهض من مكانه ، مفكرا :

" أنا لست بخير . أنا مريض . "

سحب نفسه من بينهم ببطء وهبط سلالم السطح بينما كانوا ينشدون الروضة فى الحجرات ، كان صحن الدار خاليا ، فرأى قطع القماش الدامية وبقع الدم فوق صحن الدار والماء الدامى الذى كان قد اتخذ طريقه داخل مسارب الحوض . كان الماء الصافى للحوض الذى تغير لتوه قد صار عكرا . كان هناك قط أسود سمين يلف حول الحوض

---

(١) كناية عن الإحدى عشر إماما .

ويلعق الماء الدامى فى المسارب . مر كمال من صحن الدار دون صوت ، فرأى أخته ممسكة بيد عبد الله تأخذه إلى دورة المياه فمر من الدهليز وخرج من المنزل . كانت جماعة قد مضت وفى صحبتها الداقون على الصدور والضاربون أنفسهم بالسيوف والأطفال ، وكان الزقاق ساكتا تماما . ومر من سويقة خالية وجاء إلى المنزل وفتح الباب بالمفتاح الذى كان معه ولم يكن هناك أحد قط وكان المنزل قد غرق فى السكون .

توجه إلى حجرته ، وأخذ من الرف الكتاب الذى كان قد قرأه دون أن يتمه ، وتمدد فى جانب من الحجرة وتصفح الكتاب إلى أن وجد موضع العلامة ، لكنه قبل أن يبدأ فى القراءة احتدت أذناه فسقط الكتاب من يده . ونهض من مكانه مضطربا وتقدم ناحية النافذة فسمع أصوات الداقين على الصدور المحزنة والمؤلمة والمنشدين للمراثى التى تأتى من بعيد .

ففى السنوات الماضية كان رفيقا للجماعة ومع كل المقيمين للعزاء ، بينما جلس الآن وحيدا تماما فى المنزل وجلس بجوار النافذة ينصت إلى أصوات الباكين والداقين على الصدور التى كانت تتباعد وتتباعد . كان يحس بالحزن إلى حد أن قلبه قد أوشك على البكاء .

* * *

عندما خرج من المنزل ، كان لا يزال ناعسا . فالليلة الماضية ظل يقرأ فى الكتاب حتى وقت متأخر إلى أن غلبه النوم والكتاب فى يده ، وعندما استيقظ فى الصباح وكانت الشمس قد أشرقت وصارت صلاته

قضاء ، توضأ وهو خائف وأقام صلاته ، قلما حدث أن أدى الصلاة قضاء . لماذا لم يناديه أبوه ؟ لماذا لم يوقظه صوت آذان المسجد الموجود على الزقاق ؟ كان يحس باضطراب ممتزج بالذنب .

نزل وهو متضايق ، وكان السماور يغلى فى الحجرة بينما أمه نائمة فى ركن منها ، واضعة عباءتها على وجهها فقالت أخته الصغيرة التى كانت تصب الشاى له ، إن أباها مكث الليلة فى منزل عمها الحاج .

" تصورنا أنك أيضا أمضيت الليلة فى منزل عمى الحاج مثل أبى العزيز ، وكان ثم رجل واحد قد تبقى فجئن إلى الدار ... "

لم يفهم أحد أنه ترك منزل عمه الحاج منذ الصباح ، فكان سعيدا لأن أحداً لم ينتبه إلى خروجه .

تحسنت أحواله خارج المنزل . فالجو البديع أخرج الكسل والضعف من جسده ، وكان اليوم مشمسا ذا شمس دافئة مقبولة ، والسماء صافية زرقاء والزقاق لازال خاليا والحوانيت موصدة والحافلات والسيارات تمضى بضوضاء من الشارع الترابى . كانوا قد فرشوا الشارع بالرمال ليرصفوه ، وكان الغبار والتراب يتصاعدان من بين الرمال نتيجة مرور السيارات ، وقد بقيا معلقين فى الجو على شكل طبقات بيضاء . كانت أوراق الأشجار اليانعة تتلألأ على جانب الشارع تحت ضوء الشمس يحركها النسيم . وعندما وصل إلى المدرسة كان هناك آحاد من الأولاد . ولم يمض وقت طويل حتى امتلأ فناء المدرسة بالأولاد . فالليلة الماضية ، مات أحد العظماء وتجمع الأولاد جماعات جماعات ، يتحدثون بسعادة (قائلين) إنهم قد عطلوا المدارس ، بينما كان كمال صامتا منصتا إلى كلام الأولاد الآخرين . قال منوچهر :

" بالأمس قلت لنفسى : ليت ضجة تحدث ليعطلوا المدرسة فى اليوم التالى . ليتنى طلبت شيئا آخر من الله . "

" واضح أنك قضيت وقتا طيبا . "

" الأوقات تمر دائما طيبة على سيدك ... "

" لا يا بنى . "

قال أحد الأولاد :

" ذهبت مع خالى للصيد . "

التف الأولاد حوله بفضول وسألوه :

" حسنا ، ماذا اصطدتم ؟ "

" لا شىء مطلقا . "

قال أحدهم :

" برافو ... لم يذهب سعيكم هدرا . (١) "

ضحك الأولاد . وسأل أحدهم منوچهر :

" ألم تذهب للصيد ؟ "

فأجاب آخر :

" ولم لا ... ؟ صيد البنات ! "

تساءل آخر :

" حسنا ، ماذا اصطدت ؟ "

---

(١) حرفيا : داخل إبطكم .

وقال آخر :

" لا شيء على الإطلاق . "

ضحك الأولاد ، وقال منوچهر :

" في الليلة الماضية ، أقمنا برتيتة طيبة . الدور ، عشرون تومان . "

" عشرون تومان ؟ الله ... كسبت ؟ "

قال منوچهر :

" ثمانين تومانا ."

" ثمانين تومانا ؟ ليس مبلغا هينا . "

" لو كنت مكان منوچهر لدعوت الأولاد إلى السينما . "

" كم يشتاق قلبي إلى لعبة الإحدى وعشرين ... "

" أنا أيضا . "

" وأنا أيضا . "

كان كمال صامتا ، فسأله منوچهر :

" ماذا فعلت أنت ؟ "

" لا شيء قط . "

" لا شيء قط ؟ "

" قرأت كتابا . "

فقال أحد الأولاد :

" ماذا ، كنت أظن أنك ذهبت تضرب صدرك . "

" لا يابنى ، لقد ذهب وقرأ كتاب أدعية . "

" قرأت القرآن يا بنى ، يقول إنه قرأه عدة مرات . "

ثم ضحك الأولاد .

فى النهاية جاء مشرف المدرسة ودق الجرس ، واعتلى درجات السلم ووقف أمام المكتب وألقى خطبة :

" ... كان ذلك المرحوم من أسرة عظيمة القدر والشأن . يا سعدى ! إن الرجل الطيب لا يموت أبدا ... إن الميت هو الذى ... "

فسكتوا دقيقة حدادا ثم أخبرهم المشرف أن يمضوا إلى بيوتهم دون ضجة ... وعندما خرجوا من المدرسة شق كمال طريقه بصحبة منوچهر والأولاد الآخرين . لم يكن يرغب فى الذهاب إلى المنزل ، فكان قلبه منقبضا ، كان ينصت إلى أحاديث الأولاد وهو صامت . لم يكن بينه وبينهم علاقة ما اللهم إلا السلام والسؤال عن الأحوال بشكل جاف ، وكان يتبادل فيما بينهم النظرات عندما يأتى إلى المدرسة لدرجة أنه لم تكن له علاقة بهم ولم يكن له صاحب منهم سوى منوچهر .

والآن كان ينصت إلى أحاديثهم الشيقة وينظر إلى سلوكهم التلقائى غير المتكلف والودى معا ويزداد حزنا ، كان الأولاد يتحدثون عن فيلم شاهدوه الأسبوع الماضى ، ولم يفهم كمال شيئا من كلامهم وكان يمشى خلفهم ساكتا شريدا يائسا ، وكان يفكر لماذا لا يكون واحداً من بينهم ويشاركهم أحاديثهم ... وبينما كانت الأفكار تتوالى تباعا على رأسه لم يلتفت إليه أحد إلا منوچهر الذى كان ينظر إلى وجهه

أحيانا بود وابتسامة ، بينما الأولاد الآخرون يتجاهلون وجوده ، ولعدة مرات قرر أن يبتعد عنهم ويعود إلى المنزل ، وكالعادة كان يتجادل مع أخيه عبد الله الصغير وكان يموع بطنه ، وكان يعلم أنه بمجرد أن يضع قدمه فى المنزل تسلمه أمه عبد الله وتمضى إلى أعمالها .

وهكذا وصل منزل منوچهر بصحبة الأولاد ودخل المنزل وراءهم . مر الأولاد من أمام المبنى ودخلوا الحديقة . حديقة جميلة تحتوى على أشجار الحور وأغصان الصفصاف وشجر القيقب التى كانت أغصانها قد اخضرت ، وكانت الأغصان الشامخة تلمع تحت أشعة الشمس ، كما كانت الحديقة مليئة بزهور البنفسج مختلفة الألوان ، ممتلئة بعبق الخضرة والعشب .

وفى ركن ، جلس الأولاد تحت شجرة صنوبر وانشغلوا بلعبة الورق التى أحضرها منوچهر . وجلس كمال بجوارهم ينظر بفضول وتفحص إلى بعضهم ، إنها المرة الأولى التى كان اهتمامه يجذب إلى لعب الورق وكان ينظر بتفحص شديد . كانت أنظاره تنتقل بين الوجوه المنفعلة إلى الأوراق ومن الأوراق إلى الوجوه . وللحظة اختفى الخوف الذى كان يسيطر عليه من الورق . واشتهى أن يلعب هو أيضا ، ولم يكن يعرف لعب الورق لكنه فكر أن يتعلمها . لقد توقفت عيناه على النقود التى تجمعت أمام منوچهر وعاد خوفه . كان قد سمع أن لعب الورق أسقط عائلات من الوجود ، فكان ينظر وهو حائر إلى هذا الورق المقوى المنقط ذى الصور . فالنقود التى كانت تتداولها أيدى الأولاد كانت تلقى فى

نفسه الخوف ، وكان يلاحظ أن وجوه الأولاد تشتعل من الانفعال وعيونهم شديدة اللمعان ، وانتظر كمال فى كل لحظة أن يحدث عراك وخناق وأن يمسك الأولاد بخناق بعضهم البعض ، ولكن اللعب استمر على نفس هذه الوتيرة . وانتهى قلقه تدريجيا ولم تجذب المكاسب والخسارات اهتمامه بعد ، وشعر بتعب ونفد صبره فنهض من مكانه ، والأولاد منشغلون فى لعب الورق بانفعال وصخب وهم يوزعون الورق على بعضهم ويلعبون بسرعة شديدة وقد نسوه تماما .

ابتعد عنهم وظل يتمشى تحت الأشجار . بينما السكون قد خيم على الحديقة ، وأشعة الشمس تنفذ من خلال الأشجار المتشابكة وكأنها قوادم طيور صغيرة مستقرة على زهور البنفسج والأعشاب ، فأبطأ الخطى ناظرا بعيون الإعجاب إلى ما حوله :

" يا لها من حديقة عظيمة ... تصلح تماما لقراءة الروضة . "

خرج من بين الأشجار وابتعد عن الحديقة المليئة بالورود والخضرة ، ووصل إلى حمام سباحة صغير :

" إنهم يغطون حمام السباحة ويضعون وسطه منبرا ... هذه الناحية للرجال ، وتلك للنساء . ليس هناك حاجة أيضا إلى خيمة . "

كان حمام السباحة قد قبع تحت ضوء الشمس ، وكان ماؤه الصافى الشفاف يومض كالمصباح . وبجوار حمام السباحة جلس على أحد الكراسى الحديدية وغرق فى المشاهدة ، وكانت زهور النيلوفر الزرقاء تتهادى وتتمايل ، والأسماك الحمراء والسوداء تتجول تحت الماء

، والأمواج الصغيرة تعلو بحركة دائرية وتتعاقب حتى حافة الحمام وهى تجعل سطح الماء الذى يومض يرتعش .

ومع الفضاء المليء بالنور ، والحديقة ، وحمام السباحة ، والأسماك... انتابته حالة من السعادة فتمدد فوق الكرسى وأخذ يشدو بمرثية من المراثى .

وللحظة حط طير فتاح على حافة الحمام ، حرك ذيله ونظر إليه وكانت عيناه السوداوان الصغيرتان تلمعان ، وكان يحرك ذيله بشكل بطيء وغمس منقاره فى الماء وشرب ثم رفع رأسه بسرعة ثم نظر إليه ثانية . كان جسده الصغير ينحنى إلى الأمام ثم يستقيم ، وكأن توازنه قد اختل ويوشك أن ينزلق ويسقط فى الحمام . وفجأة مد قوادمه وطار . تجمع وصفر . وذهب وكأنه ينزلق فى الهواء ومضى نحو الجدار كرصاصة .

وتتبعته نظرات كمال حتى اختفى خلف الجدار . وعندما استدارت عيناه ثانية تجاه حمام السباحة ، اندهش . فكانت هناك صورة لفتاة منعكسة على الماء ، ارتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه واستدار سريعا ودون إرادة منه فزع من مكانه ، فكانت هناك فتاة رشيقة القوام جميلة تقف خلفه تنظر إليه بعينيها اللامعتين العسليتين ، لقد عرفها ، إنها فرشته أخت منوچهر . خفق قلبه كالمجنون ، رد نظره عنها وأطرق برأسه خجلا وكان قد فوجيء بشدة وألقى التحية بصوت مرتعش مخنوق وكأنه يقر بذنب من الذنوب ، ظلت رأسه مطرقة هكذا وكان يلعب

بأزرة سترته بيديه كيفما اتفق وقطع الزر ووقع فى يده ، ولم يعرف ماذا يفعل ؟ هل يذهب ؟ هل يبقى ؟ هل يجلس ؟ هل يقف هكذا ؟ ماذا يجب عليه أن يفعل ؟

بينما كان الزر يعلو ويهبط بين أمواج أصابعه سمع ضحكة فرشته المنخفضة ، وقالت له بصوت عذب و مهذب :

" تفضل يا سيد كمال . تفضل . "

امتثل كمال للأمر وجلس مستقيما على كرسى كأنه طفل مطيع وأطرق رأسه ثانية ، بينما جلست فرشته أمامه على كرسى آخر وسألته:

" لماذا لا تلعب معهم ... ربما لا يعجبك لعب الورق . "

وقبل أن يرد كمال ، استمرت فرشته فى حديثها :

" حقيقة لا يعجبنى أنا أيضا . إن أبى دائما يقول إن هذه الاثنتين وخمسين ورقة كانت نحسا وشؤما على اثنين وخمسين مليون عائلة على الأقل ... "

نظر إليها كمال خلسة ، فابتسمت له فرشته بود وحنان . كان جسدها اللطيف قد غاص فى سترة ضيقة فى لون الليمون بينما كانت قد ارتدت تنورة بيضاء ضيقة ، وكان شعرها الأسود الكثيف منسدلا وراءها بشريط أحمر .

فأطرق برأسه ثانية ، وأخذ قلبه يدق بسرعة ، وتشتتت حواسه فسمع صوت فرشته :

" أنا واقـفـة هنا منذ وقت طويل ، ولم يكن لديك أدنى إحـسـاس .
كنت تنظر إلى الحمام . حمام جميل ... لا ... لا ... نريد أن نجعله أكثر
عمقا . وفي فصول الصيف ... "

قطعت كلامها وسألته فجأة بسخرية :

" هل فقدت شيئا ؟ لماذا تنظر إلى الأرض ؟ "

احمر كمال . فعندما كان يتواجه مع امرأة دائما كان يستيقظ فيه
وسواس بالنظر إلى المرأة . كان يحس بالخجل والذنب ويطأطىء رأسه .
وكانت أمه تقول دائما :

" عيني ولدى طاهرتان عفيفتان . "

رفع عينيه بصعوبة ونظر إلى وجه فرشته المبتسم وهو حائر . حتى
ذلك الوقت لم تكن امرأة قط قد اعترضت عليه فى هذا الشأن . وفكر
(قائلا) :

" حقا إنها لا تخجل منى ، وكأنه لا يجلس أمامها غير محرم . "

كان ما حولها خاليا لهما ولم يكن أحد قط يرى بالقرب منهما ،
وكان الحمام بوميضه الممتلىء فخامة كشط من النور قابعا أمام
أعينهما . دار بخلده :

" عيب جدا لو وصل أحد فجأة ورآنا وحيدين . "

وكان الأولاد فى الجانب الآخر من الحديقة ، يعلو صوتهم أحيانا
من وراء الأشجار ، وكانت أغصان الأشجار المتشابكة تحيط بهما . نظر
بقلق حوله قائلا :

" لا يوجد أحد قط ، لا أحد قط ، نحن بمفردنا ، لكنها لا تهتم ، إنها لا تخجل أصلا ، لا تخاف منى فى الأصل . "

وعندما رأى فرشته تنظر إليه بحيرة وقد بقيت ساكتة ، تذكر أنه لم يرد عليها إلى الآن ، فقال بارتباك :

" لا ، لا ، لم أفقد شيئا ، لا شىء ، لكن ، فى النهاية ليس مقبولا أو مستحبا ... عندما يكون رجل مع امرأة ... "

ثم سكت ، وشعر أنه لا يستطيع أن يكمل كلامه ، فابتسامة فرشته على شفتيها وبريق عينيها كان يجعل قول الموضوع شديد الصعوبة بالنسبة له . بدل كلامه بسرعة :

" أجل ... أجل ... إنه حمام جميل ... أسماكه كبيرة جدا ... الحديقة شديدة الجمال . من أجل مجالس الروضة ... "

عض شفته واحمر وقال بسرعة :

" من أجل عرس ... "

عض شفته ثانية وتلعثم :

" حسنا ... نعم ... الحديقة ... من أجل ... من أجل ... ممتازة . أليس كذلك ؟ "

اتسعت عينا فرشته ، وزمت شفتيها ونفخت :

" تصلح من أجل عرس ؟ ... هاهاها ... من أجل عرس من ؟ "

وارتفع ضحكها ، فاحمر كمال وأطرق رأسه خجلا قائلا لنفسه :

" أى مطب وقعت فيه ! "

كان يرغب أن ينهض من مكانه ويذهب إلى الأولاد ، كان يفكر وهو غير راض :

" ياله من خطأ عجيب أن جئت إلى هنا ... لماذا نهضت فجأة وجئت إلى هنا ؟ "

ركز بصره حائرا فى وجه فرشته وكان كل شيء حولهما ساكنا ، وكانت الشمس تصير أكثر حرارة وسطوعا . توقفت فرشته عن الضحك واعتذرت له ثم سألته :

" لماذا تطرق برأسك دائما ؟ "

وخطر لكمال أن يقول :

" فى النهاية فى هذا ثواب . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما يطرق رأسه ويسير ويمضى فى طريقه . "

لكنه أطبق شفتيه ولم يجب . كان يحس أنه لا يستطيع أن يتفوه بمقصوده ، ولم يكن يعلم لماذا ؟ لو أن نساء الأسرة ، النساء اللائى كان يعرفهن وجهن إليه مثل هذا السؤال لتحدث دون تفكير بكل ما يريد ، وكان يعلم إلى أى مدى سيزيد قدره عندهن ، ولكنه أمام فرشته كان يرى نفسه متلعثما مكتوف اليدين والقدمين ، وجلست فرشته والابتسامة على شفتيها قائلة :

" إنك تعلم أنه كلما أراك فى الزقاق من النافذة ، أراك مطرق الرأس ، وفى ذلك الوقت الذى لم أكن أعلم بعد أنك زميل منوچهر فى الفصل انتابنى الهوس أن ألقى بشيء من أعلى على رأسك لأرى هل

ستترفع رأسك أم لا ؟ ... "

ضحكت وأضافت :

" رأيتك عدة مرات فى طريق المدرسة وكنت أيضا مطرق الرأس . فى البداية كنت أظن أنك تبحث عن شىء وقع منك على الأرض ، شىء ضاع منك . "

نظر إليها كمال وهو مندهش وأراد أن يقول :

" إذن ليس ظريفا منك فى النهاية ، تعلمين أنه عندما يطرق الرجل رأسه لا تقع عينه على وجه غير محرم له ؟! لا يعصى الإنسان بعينيه ولا يسقط فريسة لوسوسة الشيطان ، لقد ورد فى الحديث ... "

لكن لسانه لم يدر ولم يخرج شىء من فمه ، وكان يشعر أنه لو فتح فمه لجعل من نفسه صغيرا وموضع سخرية . لم يسأله أحد قط لماذا هو مطرق الرأس دائما ؟ إنه لم ير نفسه مطلقا فى مواجهة نظرات فتاة ، ولم يختل بفتاة قط .

ففتيات أهله وأقاربه كن يحتجبن عنه ، وقليلا ما يقتربن منه ، ولم يحدث قط أن جلس معهن وحده وسامرهن ، ففى أغلب الأوقات عندما كان يواجههن كن يضطربن بسرعة شديدة بعيون تلمع ووجوه منفعلة ، كن يخفين أنفسهن داخل العباءة ويمضين مسرعات ، وأخذ يحس أن الفتاة الجالسة أمامه تختلف عنهن .

" إنها لا تخجل منى مطلقا ، ولا يتلعثم لسانها أمامى قط ، وكأننى لست رجلا فى الأصل . "

رفع عينيه وقال بصوت مختنق :

" فى النهاية ... إنها عادتى ، فمنذ طفولتى وأنا لم أكن لأرضى أن أرفع رأسى . "

ابتسمت فرشته ولم تقل شيئا . كانا قد جلسا إلى جوار الحمام متواجهين ، وكانت فرشته تبتسم له بود ، وتحرك يديها أمام وجهها وترعشهما ، وكان كمال قد ركز بصره على وجهها الجميل السعيد ، وكانت نظرته تتابع حركات يديها اللطيفة ، ومن النظر إلى يدى فرشته البيضاوتين الصغيرتين كان يحس باللذة . فكانت رعشات يديها تذكره بالراقصة الجميلة التى رآها ليلة عرس ابن خاله . فأمام عينيه كان ساعدا فرشته الرقيقان خفيفا الحركة يلوحان ، وكانت أصابعها الرقيقة الجميلة تتثنى وتستقيم وتفتح وتقفل كأنها ترقص .

" إن منوچهر يثنى عليك كثيرا . لكنه يقول دائما إنك مغلق على نفسك . "

لم يفهم كمال كلامها وطلب أن توضح ، لكن لمعة الشقاوة التى أسرعت فجأة داخل عينى فرشته والابتسامة الباهتة التى خطت على وجهها شتتت حواسه تماما ، فصرفت فرشته عينيها عن وجهه ونظرت إلى الحمام وكأنها كانت تضع غطاء على ذلك الشيء الذى سبب ابتسامتها فأفصحت عن مكنونها :

" كان يقول إنك ذات مرة بدلت ورقتك له في امتحان الجبر وكان نصيبه ستة عشر درجة . وهذا شيء لا يصدق ، ولو عرف معلمكم لساء

مآلكما . "

فقال كمال بصدق :

" لا ، لم يكن شيئا يذكر . منوچهر فتى طيب وأردت مساعدته . بأى أسلوب لايهم . كنت أستطيع أن أدرأ الخطر عن نفسى مهما عظم ... ومن ثم فإن له دين فى رقبتى . فنحن رفاق وأصدقاء معا ، تعلمين أن كل كتاب جميل كان يقرأه يقدمه لى كى أقرأه أيضا ؟ ! "

" أعلم ، لقد قال لى ، لكن ... "

بدت نفس الابتسامة على وجه فرشته وومضت عيناها . جاهد كمال أن يتجاهلها قائلا :

" يالها من كتب طيبة ! "

نظرت إليه فرشته ثانية وضحكت ، وتساءل كمال فيما بينه وبين نفسه متضايقا :

" على أى شىء تضحك ؟ "

تركزت عينا فرشته على ملابسه وتوزعت الابتسامة على كل وجهها ، ثم قالت فجأة وبلا مقدمات :

" حقيقة ما يقوله منوچهر إنك فى الأصل مغلق ... "

لم تكمل كلامها ، وبرقت عيناها وملأ الضحك وجهها . تذكر كمال اعترافات منوچهر وانتقاداته :

" يا بنى إنك آثرت الأقاويل ثانية بأنك متسيب جدا ، لماذا لا تزيل الشعر من وجهك ، ولماذا لا تمشط شعرك ؟ ! لماذا لا تلبس رباط عنق ؟

! هل أنت سعيد بالقيام بدور ابن الشيخ ؟ ! والله إننى أقولها لك من أجل نفسك فالأمر لا يهمنى . "

ضحكت فرشته وقالت بخبث :

" سقط زر سترتك وأيضا زر قميصك . "

وضحكت شفتاها بسخرية ، وانقلب وجه كمال فتلوى داخل نفسه من تحقيرها واجتاح الغضب قلبه وخطر بباله :

" أرغب ألا يكون لسترتى في الأصل أزرار ، أرغب فى ألا يكون لقميصى ... "

نظر إلى الأزرار المقطوعة ، وندم على أنه جاء هذا المكان ، أخذ يفكر أنه تبع منوچهر بلا داع ، وأنه وثق به إلى هذا الحد وهو خاضع له ، ليس معلوما أية أشياء قالها عنه بحيث تتحدث أخته إليه هكذا وتسخر منه .

وانتبهت فرشته إلى غضبه وتوقفت عن الضحك قائلة :

" أقدم اعتذارى لك . "

وركزت نظرتها الحنونة فى عينى كمال وقالت بود :

" لم يكن قصدى . هل غضبت ؟ "

هدأ قلب كمال وقال بلا إرادة :

" لا . "

وسقطت عيناه على طرف جيبه الممزق فوضع يده عليه بسرعة . لم يكن قد رأى نفسه ذليلا ضئيلا أمام أحد قط . فكلما كانت نظرات فرشته تتركز على ملابسه كانت الرعدة تصيب جسده ، وكان ينظر إلى وجهها ليرى هل تسخر منه أم لا ؟ والآن وهو يضع يده على طرف جيب سرواله الممزق ويخفى حذاءه المغبر تحت الكرسى تذكر ملابسه وقميصه الجديد كما تذكر حذاءه اللامع وخطر له :

" لأرفع رأسى ولأجىء إلى منزلهم ... "

ألقى نظرة على باب الزقاق ، وفكر أنه يستطيع بخطوتين أن يوصل نفسه إلى مدخل الزقاق ويخلص نفسه مرة واحدة . عزم وحرك نفسه ونهض من مكانه فأمعنت فرشته بنظرها فى وجهه ، وكانت عيناها تضحكان بود فنظر كمال إلى عينيها الضاحكتين العسليتين ، وابتسامتها الحانية وأصابعها الراقصة ووهن ، فجلس على الكرسى ثانية مسحورا وركز نظره على فرشته ساكتا مطيعا ، ووصلت صيحات فرح منوچهر من خلف الأشجار :

" بنك ... كله بنك ... "

ضحكت فرشته :

" أوه ، انظر أى صخب فعله ، بالتأكيد سحب ورقة رابحة . "

ثم سألته :

" ألست أضايقك ؟ ألاتريد الذهاب إليهم ؟ "

اعترف كمال :

" أنا لا أعرف اللعب ... ينفد صبرى . "

كانت الشمس قد ارتفعت وغرقت الأشجار وكل مكان بالحديقة فى ضوء الشمس ، وكانت العصافير تنتقل بين الأغصان وهى تشقشق . قالت فرشته :

" أتعلم عندنا فى أول النهار حصتان متتاليتان رياضيات ... حاجة تضايق ؟ ! وعندما جاءوا وقالوا أجازة ، كأن الله أعطانى الدنيا وفرحت لدرجة لا توصف . إلهى يموت كل من له صلة بالرياضيات ... رأسى كالجبس . هذه الرياضيات الملعونة لا تدخل رأسى ، لا أدرى كيف أوصلت نفسى إلى هذا الموضع . هذا العام عندى ملحق فى الجبر والمثلثات . فلابد أن آخذ معلما وأذاكرها بشكل جيد ، وإلا صار صيفى مصيبة إذا لم آخذ درسا فيها فى النهاية . فما فائدة مادة العلوم A وحساب المثلثات B؟ ! "

قال كمال :

" لاشىء . إننى أستطيع أن أعلمها لك فى أسبوعين ، فلا صعوبة فيها مطلقا . "

قالت فرشته بسعادة :

" بالله عليك ؟ ! كان منوچهر يقول إن مستواك رفيع فى الرياضيات . ولوجئت واشتغلت معى يكون شيئا ممتازا . حتما ستأتى ؟ "

هز كمال رأسه موافقا ، فكان سعيدا بأنه قد جاءت فرصة يستطيع فيها أن يظهر قيمته .

" إننى لم أحصل على درجة أقل من ستة عشر درجة فى أى وقت ، ودائما تسعة عشر درجة وعشرين درجة . فأنا أول الفصل فى الرياضيات . "

كان ضجيج الأولاد قد ارتفع ، والنسيم يهز الأغصان ببطء ، ويكوِّن فوق سطح الماء أمواجا تتواصل ببعضها البعض وتهجم على حافة الحمام ، وكان الماء يطف من سطح الحمام ويصب فى المسارب . وكان الحديث بينهما قد حمى . كانت فرشته تتحدث عن الفيلم الذى رأته منذ أسبوع مضى : كلب بتضحياته وحيله أنقذ روح صاحبه من الموت عدة مرات .

" لا تدرى كم هو كلب عجيب ؟ ! كان يفهم كل شيء كالإنسان ، فقد كان يتشمم ويكتشف آثار أقدام صاحبه ويصل لنجدته ، لا يصدق الإنسان أن الكلب يفهم كل هذه الأشياء . "

تذكر كمال كلب الرجل الشيخ جارهم وأخبر فرشته بأن الرجل الشيخ كان يضرب كلبه بالسوط ويضحضحه حتى النزف .

" تعلمين إذن أن المرأة الشابة هجرت الشيخ إلى عشيقها ... مع أحدهم ... ؟! ذهبت مع أحدهم . فكر الرجل الشيخ ... أن الكلب ملك لزوجته ... والآن يريد أن ينتقم من الكلب بدلا من المرأة ... "

أصبح حديثهما ذا شجون ، وأخذا يتحدثان فى كل شيء ، وكان كمال يتحدث عن الكتب التى قرأها بانفعال ، ولم تكن فرشته قد سمعت عن الكتب الأخرى التى أورد كمال أسماءها ، فكان سلوك فرشته معه منذ هذه اللحظة بلا كلفة ، وأخذت تتحدث معه وكأنها تعرفه منذ فترات ،

وكان كمال يحس بسرور لا ينكر أنه أحس بمثله . وحتى ذلك اليوم لم يكن قد فهم قط أن الحديث مع فتاة ممتع ومثير إلى هذا الحد .

وتبدت فرشته أمام عينيه جميلة ومحبوبة بحيث أخذ يشتهى أن يظل جالسا كما هو ينظر إليها .

وعندما خرج من منزلهم كانت عاصفة قد اجتاحت وجوده ، فكان يتطوح ويتمايل فى مشيه كالسكارى كما كان أكثر تشتتا واضطرابا من أن يفهم أين وكيف يجب أن يجمع حواسه ؟ ! سمع عدة مرات صوت مكبح السيارة وسب السائق وشتمه ، وتعثرت قدماه لمرات فى حجر ، وانكفأ واصطدم فى سيره ، وكان يتقدم ذاهلاً مبهوتا . وذات مرة كان الحبل الذى ربطه الأولاد بين جدارى الزقاق ليلعبوا الكرة الطائرة ، سقط تحت حلقه ، وسمع من خلفه قعقعة ضحكات الأولاد ولمزهم عليه :

" عفوا يا سيدى ، الحبل أعمى ولم يرك ! "

كان مضطربا ومنفعلا وتبعثرت خيوط أفكاره ، وكلما كانت عينيه تقع على موضع الأزرار الساقطة من سترته وقميصه ، كان يحس بوخز فى قلبه ويدق الأرض بقدميه مغتاظا ، وما كانت لحظة حتى تملك قلبه شعور لطيف . كان وجه فرشته يتماثل أمام عينيه وهى تبتسم له بعينيها الواسعتين الجميلتين العسليتين متمنيا لو أنها لا زالت جالسة أمامه ينظر إليها . بحكم العادة أوصلته قدماه إلى المنزل ، ودخل حجرته وأغلق الأبواب ووقف أمام مرآة الحجرة الطويلة ونظر إلى نفسه طويلا ، فضاق قلبه بوجنتيه البارزتين ذات العظام ... وهذا الأنف الطويل غير المتناسق ... وهذه السحنة غير المقبولة ثم تقدم بجانب نافذة الحجرة وجلس ، ونظر إلى السماء الزرقاء الصافية ، فارتعشت شفتاه وهمس : " فرشته ... "

بدت صورة فرشته أمام عينيه ، وشعر بحرارة أخاذة فى قلبه .
فكرر اسمها على شفتيه ثانية . وكان قلبه يخفق حتى إنه كان يسمع بأذنيه صوت دقاته ببطء . وحتى ذلك الوقت لم يكن قد بدا لنظره اسم بهذا الجمال كلما كان يتفوه به بلا إرادة ، وأخذت رعدة جميلة تتمشى فيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وعندما كان يغمض عينيه كان يراها جالسة فى الحديقة بجواره وصوتها يقع فى أذنيه وكأنه غمغمة لذيذة وبعيدة تنصب فى أذنيه . كم كانت حلوة !! ... وكان يغمض عينيه ، فكل شىء كأنه حلم ، حلم جميل لا يريد أن يصحو منه ولم يكن يود أن يفتح عينيه ...

* * *

ومن أسفل ، ارتفع صوت أمه ثانية :

" ألن تتناول الغداء يا كمال ؟ سوف تنزل أم لا ؟ "

ففكر :

" أقول إننى لن أتغدى ؟ أأقول لها إننى شبع ؟ "

لم يكن يريد أن يخرج من حجرته ... لم يكن جوعانا ، إنه يريد أن يتركوه لحاله هكذا وحده مع أحلامه وخيالاته الحلوة . فكر :

" لو قلت لا ، ولم أنزل ، فسوف تصعد هى . "

أنصت إلى صوت أمه :

" كمال ، مابك ؟ أنت مريض ؟ لماذا لا تأتى لتتغدى ؟ هل أكلت

شيئا فى الخارج ثانية ، هه ؟ فقد كل لسانى من كثرة ما قلت لك ألا ترمرم ، قاوم بطنك هذه التى مات صاحبها . فى النهاية ستمرض وتقع على كاهلى أنا المسكينة . فى النهاية هل لى أكثر من نصف روح . إلى أى مدى ينبغى أن أقلق عليكم . "

وعندما نزل كانت السفرة قد بسطت ، وكانت أمه تفرم الحمص واللوبياء واللحم بالمفرمة بينما أخواته يهشمن الخبز من أجل الثريد . وضحكاتهن عالية زائدة عن الحد ، وكان عبد الله يلعق عظمة بينما اللعاب يسيل من فمه . فسأل كمال :

" ألم يأت أبى ؟ "

فقالت أمه :

" سنترك له طعامه ، لا نستطيع أن نبقى جوعى هكذا بينما جنابه قد يأتى وقد لا يأتى !"

ولم يكونوا قد تناولوا بضع لقيمات عندما جاء الأب فعبس وغمغم وارتفع ضجيجه :

" لتشق السكين على هذه البطون ! ألم تستطيعوا الصبر دقيقة ؟ "

قالت أمه :

" كم ننتظر حتى يشرف السيد ؟ لو أنك أغلقت باب ذلك المجحوم مبكرا قليلا ، ماذا سيحدث ؟ هل يبطل كتاب الله ؟ "

" لا ، لا يحدث شىء قط . لن تجد أفواهكم الآكلة شيئا تأكله على عجل ، وإذا لم أكن أنا ، ينبغى عليكم أن تذهبوا للتسول ... فأنتم لا

تقدرون أبدا كل هذا العناء الذى أعانيه وأتحمله من أجلكم . "

قالت أمه :

" أف ... قلبى يطش شفقة عليك . "

بينما كانت الأخوات جالسات على الجانب الآخر من المائدة غير مكترثات بحديث الأب والأم يتناولن غداءهن ويتحدثن ويضحكن ، صرخ الأب :

" أخرسن ، يا كلبات ... بدأن ثانية فى الضحك . "

قالت أمه :

" عاد شمر [1] إلى البيت . "

قال أبوه :

" قولى لى أنا الذى أقول لأذهب لأتناول الغداء مع زوجتى وأولادى . "

قالت أمه :

" وحياة حضرة العباس عندك ، حيثما تكون تناول غداءك ثم تعال ، فما فائدة مجيئك إلى المنزل ؟ إلا أنك تأتى لنا بأخلاقك التى هى كأخلاق الكلاب . "

قال كمال :

" أبى . كفاية بطلوا بقه ! إنكما تريدان الشجار ثانية . "

قال أبوه :

(١) شمر هذا ، هو ابن ذى الجوشن قاتل الحسين فى كربلاء ، وهى كناية عن الشيطان .

" أخرس أنت أيضا ! هل سألك أحد عن شيء ؟ "

قالت أمه :

" لابد أن يخرس الكل في هذا المنزل ، الكل ماعدا هذا البلطجي . "

قال كمال :

" بالله عليك يا أمي أسكتي ... في النهاية لا يصح الشجار كل يوم !! "

نهض من مكانه وخرج من الحجرة ، وما إن دخل حجرته حتى شعر بالضيق . لقد تبددت حالة الوجد والسعادة ، فارتدى ملابسه وخرج من المنزل وسأل نفسه وهو في الزقاق :

" أين أذهب ؟ هل أذهب إلى منوچهر ؟ "

ودق قلبه سعيدا من التفكير في فرشته ، لكن دار في خاطره :

" لو سألوني لماذا نهضت ظهرا وجئت إلى هنا ؟! فماذا أقول ؟ وبماذا أجيب ؟ هل أقول إنني جئت لأرى فرشته ؟ ليت كل عمل يريده المرء يستطيع أن يفعله . ليتني لم أكن أخجل قط ، فأمضي في الطريق هكذا وأذهب إلى منزلهم وأقول جئت لأرى فرشته . "

صرف عن ذهنه الذهاب إلى منزلهم ومشى في الزقاق بلا هدف ، وكان في حاجة إلى أن يمر فيه كي يفكر ويفسر سبب ذلك الانقلاب والانفعال الذي كان قد استيقظ منذ الصباح .

كان الزقاق خاليا والشمس دافئة محببة وغير بضع أولاد صغار كانوا يلعبون معا بالبلي ، لم يكن أحد في الزقاق فتذكر طفولته ورفاقه

فى اللعب ، والآن صار أغلبهم من التجار وواحد أواثنان منهم لديه زوجة وأطفال ، وعندما يتقابلون يضحكون ويسألون عن أحوال بعضهم البعض ثم ينصرفون .

كان كمال يشعر أن صداقة فترة الطفولة وبساطتها أيضا شيء لم يدم ، فالمساعدة التى وجدت بينهم كانت تجعلهم غرباء بلا مشاعر ، بالنسبة لبعضهم البعض ، وعندما كانوا يجلسون إلى جوار بعضهم فى مجلس روضة أو عرس لا يتحدثون معا إلا عن استعادة ذكريات الطفولة .

وظل فترة يروح ويجيء فى الزقاق ينظر إلى لعبة الأطفال ، وأثر حماس لعبهم والشمس المشرقة فى الحارة على قلبه وسكن وعاد إلى المنزل . كان أبوه قد تناول غداءه ونام بينما أخواته كن يغسلن الأوانى بجانب الحوض ، بينما كانت أمه قد فتحت بقجتها وأخذت تخيط . كان المنزل صامتا ، دخل حجرته واسترخى وحاول أن ينام . كان متعبا ... عندما رآه أبوه عصر ذلك اليوم ، نظر إليه وهوحائر مندهش وسأله :

" هل أنت مريض يا بنى ؟ إنك شاحب الوجه . "

ثم أعطاه الكتاب الذى كان فى يده :

" ضعه فوق المدفأة إلى جوار مصلاتى ، وعد لنذهب إلى منزل الحاج أصغر الدباغ ، فمنذ عدة أيام كان فى منزله مجلس للروضة ونحن غافلون وله حق الشكوى . "

أخذ كمال الكتاب وتحرك :

" الكتاب المستطاب حلية المتقين بالإضافة إلى كتاب الحسينية من

مؤلفات العالم الربانى ثقة المحدثين المرحوم ملا محمد باقر المجلسى رحمة الله عليه . "

كان كتاب والده المحبب إلى نفسه والمفضل عنده ، فقد ورثه عن جده وكتب على ظهر جلده تاريخ ولادته :

" ميلاد ابن ... فى يوم السابع عشر من محرم سنة ... "

عندما يكون أبوه فى المنزل لا يبعده عن نفسه ، فيجلس فى وقت وفى غير وقت واضعا نظارته المكبرة على أنفه ويقرأه مرات ومرات باشتياق ، وترتسم على وجهه لذة القراءة ومتعتها ، وعندما يصل إلى الأوراد تختلط شفتاه وتضطرب ويسيل الدمع من عينيه ويتمتم من تحت شفتيه .

وتصفح كمال الكتاب وهو يصعد السلم :

" فى بيان آداب لف العمامة ووضعها على الرأس – فى آداب لبس النعلين – فى فضل حلاقة الرأس وآدابها – فى آداب الذهاب إلى بيت الخلاء – فى دعاء الخوف من الجن – فى الأوقات التى يكون الجماع فيها مكروها ... "

وضع الكتاب بجانب المصلاة وسمع صوت أبيه يناديه ، ونزل السلم وجرى بسرعة فى صحن الدار فاصطدم بشدة بفتاة فى منعطف الممر تخفى وجهها بقماشة شفافة سوداء ، فأشاحتها عن وجهها وسمع آهة مخنوقة لأمرأة . كانت بنت عمه نزهت ، شريكته فى اللعب وقت الطفولة . فعندما كانت تأتى إلى منزلهم كانا يلعبان معا لعبة العروس والعريس ،

وكانت نزهت هى العروس بينما كمال هو العريس ، وتقوم نزهت بدور أم العروس وكمال والد العريس ، نزهت أخت العروس وكمال أشبين العريس ، ونزهت الراقصة وكمال ناقر الدف ، كان كمال ينقر الدف بشفتيه ويغنى : ليكن ليكن ... ليكن مباركا أيها الرفيق ، كانت نزهت ترقص وتتثنى راقصة واضعة رأسها على قدمه تطلب النقوط من العريس ومن والد العريس ومن أشبين العريس . إنه لم يعد يراها وحدها منذ بضع سنوات ولم يعد يختلى بها . كانت نزهت تشيح بوجهها وتبتعد . والآن وكان يراها بلا ملاءة صعق ، كانت نزهت قد كبرت وصارت جميلة ، وتركت شفتاها الحمراوان الغليظتان ووجنتاها السمينتان وعيناها السوداوان أثرا جميلا ومثيرا للذة فى قلبه .

كانا يقفان فى مواجهة بعضهما ، ينظران إلى بعضهما بعيون مليئة حرصا وظمأ ، وكانت حمرة الخجل قد تصاعدت على وجه نزهت كما كانت عيناها كاللهب . وكان كمال يسمع صوت أنفاسها السريعة ويرى التموج الهادىء على صدرها البارز ، ويصير أكثر انجذابا . ولو لم يرتفع صوت أبيه ، لظلا هكذا على تلك الحالة ، فى نفس هذا الشوق ، مجذوبين هكذا بالقرب من بعضهما البعض . فلم يكن ثمة شيء قط يبعدهما عن بعضهما ، ولم يكن ثم شيء يدع مسافة فيما بينهما ، كانا وحيدين ، ولا شيء آخر قط ... ولا أحد آخر قط ... وكأن صيحة أبيه قد أيقظتهما واضطرب حلمهما الجميل وكأنهما جاءا من عالم آخر إلى هذا العالم . تحركا وعادا إلى وعيهما وسحبت نزهت ملاءتها على وجهها وأسرعت داخل صحن الدار ، وشق كمال طريقه نحو باب الممر مشتت

الحواس وظل أبوه واقفا للحظة بسحنة عبوسة :

" هل ذهبت ومت يا ولد ؟ كل هذا التأخير فى الذهاب والمجىء ؟ "

ثم عاد وقال بجفاف :

" هيا لنذهب . "

فجأة شعر كمال أنه لا يريد الذهاب إلى الروضة ، فكانت لديه رغبة شديدة لا تقاوم للبقاء فى المنزل ، وقال :

" اذهب أنت . لست فى حالة طيبة . لا أستطيع المجىء معك . إننى أشعر بألم شديد فى رأسى . "

عاد أبوه ونظر إليه بفضول وقطب وجهه قائلا له :

" ليس بك شىء . هيا لنذهب ، إنها روضة طيبة جدا ، مدعو فيها عدة أشخاص من ذوى الحيثية . خسارة ألاتأتى ، فكثيرا ما يسألنى الحاج أصغر عن أخبارك ، ليس طيبا ألاتأتى . "

رد كمال :

" أريد أن أذهب لأنام . لست فى حال طيبة . "

لم يقل والده شيئا آخر وانصرف .

وقف كمال بجوار الباب ينظر إلى أبيه حتى بعد . فما قرأه فى الكتاب كان يدور بخلده :

" حلق الرأس ولف العمامة ولبس النعلين والجماع والذهاب إلى بيت الخلاء ... الذهاب إلى بيت الخلاء ... الذهاب إلى بيت الخلاء . "

حاول جاهدا وهو عاجز أن يبعد عن نفسه الإحساس بالضيق والنفور . فالضيق كان يعلو ويعلو من صدره كالموج الأزرق ويجتاح وجوده كله .

عاد إلى الفناء ، وسمع صوت ابنة عمه المجلجل من الحجرة التى فى الطرف الآخر من الفناء ، وشعر فجأة أن قلبه لا يود أن يراها ثانية . فدخل حجرته وجلس بجوار النافذة ، ناظرا إلى السماء التى تعلوها سحب سوداء وسأل نفسه بهدوء :

" ماذا جرى لى ؟ "

* * *

عندما انصرفوا من المدرسة وقت العصر ، ساروا بجوار بعض وكان منوچهر يتحدث بانفعال عن مكاسبه وخساراته بالأمس قائلا :

" أكلنا بالمجان (١) وشبعنا قمارا . "

كان كمال صامتا ، لم يقل شيئا . فالليلة الماضية لم ينم جيدا ، فهو الآن متعب ومضطرب ، غارق فى أفكاره المضطربة . وكلما كان منوچهر يذكر اسم فرشته أثناء حديثه ، كانت تتملكه حال عجيبة ، وتتملكه رعدة لذيذة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فالحالة الجديدة التى طرأت عليه منذ الأمس أفسدت طبيعته الهادئة عن التفكير . وكان اضطراب يتخذ طريقا إلى وجوده ويصيبه بالدوار . كان يشتاق لرؤية

---

(١) حرفيا : ملأ البطن من وليمة مأتم .

فرشته . كان يود أن يراها مرة أخرى ويحب أن يكون حديثه كله عنها ، وعندما خرج من المدرسة وقت الظهر انتظر لعله يراها فى الزقاق ، وكانت عيناه ترقب كل فتاة من بعيد ، فيدق قلبه وينفعل ، ووقف أمام منزلهم فترة ، ونظر إلى نافذة الحجرة التى تطل على الزقاق . كان قد رفع رأسه ودهن حذاءه ، ولبس سترته وسرواله الوحيدين المناسبين وكأنه يريد أن يذهب إلى عرس أواحتفال . وكلما كانت عينه تقع على منوچهر ، كان يستاء من نفسه ، فكان يرى أن سرواله طويل وواسع فوق المعتاد ، وأن كمى سترته قصيران عن المعتاد ، مع أنه كان قد كوى سترته وسرواله بدقة إلا أنه كان يراها غير مضبوطة على جسده . فى الماضى لم يكن يهتم بهذه الأشياء أصلا ولم يكن يدرك اطلاقا أن سترته ضيقة وسرواله واسع بالرغم من أنه كان قلقا يخشى أن تسخر منه فرشته ثانية ، إلا أنه كان يود رؤية فرشته ويستريح من كل هذا الشوق الذى كان يحس به إلى رؤيتها ، وكلما كان يتذكرها كان يتملك قلبه إحساس لذيذ ، وبمجرد تفكيره فى رؤيتها مرة ثانية تملكه خوف ممتزج بالسعادة .

وبينما كان مستغرقا فى أفكاره كان يتقدم فى الطريق مع منوچهر وعبرا الشارع ودخلا الزقاق ، واستدار منوچهر ونظر بحيرة إلى وجهه وضحك :

" أين حواسك ؟ أنت غارق فى التفكير تماما . "

فوجئ كمال وقال باضطراب :

" لا ، أى تفكير ؟ "

وابتسم بالعافية ، ثم قال منوچهر :

" حقا ، وعدت فرشته أن تساعدها في مادة الجبر ، هه ؟ "

فارتعد جسد كمال وهز رأسه قائلا :

" فى النهاية ، أنها كانت تقول إنها ضعيفة فى الجبر . وأنا أيضا كنت أقول سأساعدها . "

فقال منوچهر :

" لقد صارت سعيدة جدا . فكرة طيبة . ينبغى أن تساعدنى أيضا ياصديقى . فأوضاعى أيضا شديدة السوء وأنت تعرف حقا أن الرياضيات لا تدخل رأسى . "

حاول كمال أن يخفى سعادته :

" لا ، هكذا تظن ... "

" أظن أنه لااستعداد عندى لها أصلا . لا أحب الجلوس فى أى وقت لحل مسألة مثلثات ، اللهم إلا أن أكون مضطرا . "

ضحك كمال :

" سوف أجبرك . "

قال منوچهر :

" حقيقة أريد ألا تطول المسائل وأن ينتهى هذان العامان . قال أبى لو أنى حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية سوف يرسلنى إلى أى مكان أريده ، وأنا أريد الذهاب إلى أمريكا ... "

وعندما وصلا إلى منزل منوچهر ، أمسك الأخير بيده قائلا :

" أليس لديك عمل ؟ ادخل لمدة دقيقة ... "

ارتعد جسد كمال وقال بلا إرادة :

" لا ، لا . "

جذبه منوچهر من يده :

" تعال يابنى ، نجلس ونثرثر . "

رغم أنه كان يعانى انتظار مثل هذه اللحظة طوال ذلك اليوم ، لكنه لم يفهم لماذا تملكه خوف غامض ؟ وبدأت قدماه فى الارتعاد ، وقلبه يدق كالمجنون قائلا :

" فى النهاية ، فى النهاية ، لا أستطيع ، اليوم لا . "

ولكن منوچهر جذبه إلى المنزل .

رأى سيدة فى سن الأربعين أو الخامسة والأربعين تقوم برى زهر الغرنوقى وطرطور الباشا إلى جوار المدخل . امرأة ذات جسد قوى يميل إلى السمنة ، ذات بشرة بيضاء باهتة وعينين واسعتين لامعتين ، لم يستطع كمال أن يتحمل نظراتها فأطرق رأسه ... انحنى منوچهر وقال :

" أقدم رفيقى كمال إلى سعادتكم . "

ابتسمت والدة منوچهر وردت السلام على كمال بود .

ذهبا مع منوچهر وجلسوا على كراسى حديدية بجانب الحمام ، وبينما كانت شمس العصر منبسطة تحت أقدامهم ... كانت نسمة هادئة تهب فتحدث حفيفا مكتوما فى الأشجار . دارت عينا كمال حول الحديقة ، ولم تكن فرشته هناك . فرغم شوقه لرؤيتها شعر براحة لعدم وجودها ،

وكان منوچهر مسترخيا على الكرسى واضعا يديه خلف رأسه ناظرا إلى السماء ، فأمعن كمال نظره فى الحمام الذى كان مضيئا متلألئا كأنه مرآة تحت أشعة الشمس ، ولم تكن الأسماك ظاهرة لهم . قال منوچهر :

" متى يحدث ويمر الشهر أوالشهران ويستريح فكرالإنسان لفترة من المذاكرة ؟! إن قلبى يهفو إلى مجئ الصيف . العام الماضى مرالصيف جميلا جدا ، لو كان بيدى لشطرت العام نصفين ، نصف للمذاكرة ونصف للترويح . "

رد كمال :

" أنا على العكس ، فطيلة فصول الصيف عادة ما أكون منتظرا افتتاح المدارس . "

" تراك ماذا تفعل فى فصول الصيف ؟ "

اعترف كمال بخجل :

" أذهب إلى وكالة أبى وأباشر حساباته له . "

قال منوچهر :

" فليؤجر والدك كاتبا ، أظن أنه لايريد أن ينفق مالا . "

" كاتبه يسافر إلى قريته فى فصول الصيف ويوكل أعماله لى ، فبها يشغل الإنسان نفسه ، فأن يجلس الإنسان فى الدار ماذا يفعل؟ ينفد صبره . "

قال منوچهر :

" ليس هذا صحيحا ، تذاكر فصول الشتاء وتعمل فى الصيف .

فمتى تتسلى إذن ؟ الإنسان فى حاجة إلى التسلية والترويح . "

" لا يفهم أبى هذه الأشياء . فإذا أردت الحقيقة فلقد قرر أن أذهب إلى الوكالة فى الصيف وإلا لن يسمح لى بالمجئ إلى المدرسة ، إنه مستبد جدا . من الأفضل ألا أشتبك معه وإلا فإنه يعاند دائما ويركب رأسه بألا أستمر فى التعليم . فهو يقول دائما : بأى شئ تفيدك الدروس الكافرة ؟ "

هز منوچهر رأسه قائلا :

" تدرس عاما آخر وتأخذ دبلومك ، وتستطيع أن تعمل معلما مثل محمود ، ولا تحتاج إلى أبيك ثانية . "

" من محمود ؟ "

" ألا تعرفه ؟! إنه من أولاد تلك المنطقة النوابغ ، ذكى جدا ، يدرس فى الكلية ، ويدرِّس فى عدد من المدارس ، لقد تخاصم مع أبيه ، فانفصل عن أسرته ، وهو الآن يعيش وحده . "

سأله كمال بانفعال :

" هل تشاجر مع والده ؟ "

" أجل ... فهو نفسه يقول دائما إن الأسرة سند لاقيمة له ، ولابد أن يقوم الإنسان بعمله بنفسه وأن يسلك الطريق بنفسه . من الأفضل أن يتجاهل هذا السند المزيف وأن يقف على قدميه ..."

" هل هو أكبر منا كثيرا ؟ "

" ليس كثيرا ، ربما عامين ثلاثة . مثقف جدا ، فقد جاء إلى منزلنا ذات يوم وجلس مع أبى يتناقشان ، لقد أفحم أبى ونحاه جانبا بشكل لا يقال . تعلم أن أبى مستنير جدا . وهو أيضا كثير الادعاء ، لكن محمود تفوق عليه بشكل محترم ، وعندما ذهب قال أبى : منوچ !! كم لك من أصدقاء عجاب ... بعد ذلك اليوم دائما يسألنى كيف حال صاحبك نارى المزاج ؟ "

اقترب صوت أقدام من ورائهما فارتعد كمال ودفعه إحساس غامض بألا ينظر وراءه وبدأ قلبه يدق بشدة وتشتت ذهنه . وباضطرابه الذى كان يزداد كل لحظة كان ينصت إلى اقتراب وقع الأقدام ، رفع منوچهر رأسه وركز بصره :

" سلام ... "

كان صوت فرشته . ارتعد كمال ونهض من الكرسى فرأى فرشته وهى آتية نحوهما ضاحكة ، مرتدية بلوزة بكم قصير بينما شعرها الأسود الكثيف ينسدل على كتفيها ، كان قد منحها سحنة جديدة .

رد عليها منوچهر السلام ساخرا :

" السلام عليك أيتها المصونة ، أين كنت مشرفة حتى الآن ؟ "

ابتسمت فرشته لكمال وجلست على الكرسى وقالت :

" كنت فى الحجرة . كنت أحيك شيئا ، اللعنة ! "

ضحك منوچهر :

" كم متر من القماش الذى لا لسان له أهدرتى ؟ "

ثم استدار ناحية كمال :

" تعلم أن فرشته خياطة ماهرة . تستخدم المقص فى كومة من القماش بحيث لا تصلح لشئ قط . "

ضحكت فرشته :

" حسنا . إنك تجهل هذا الأمر أيضا ! "

غابت الشمس من تحت أقدامهم، وبالتدريج كان ظل الغروب يسقط وسط الحديقة قليلا قليلا ، وكانت رؤوس الأغصان لاتزال تسبح فى ضوء أحمر اللون . حس كمال أن الضجة التى فى داخله تهدأ ، لكنه لايزال غير واثق فى نفسه . فكلما كانت تدور عينا فرشته نحوه ، وتتركز على جزء من ملابسه ، كان يفقد نفسه ويتعقب مسيرة نظرتها بقلق ، ويبقى فى حالة انتظار حتى تعبر نظرة فرشته تلك النقطة ويستريح باله .

قالت فرشته :

" جاءنا اليوم مدرس الأدب الجديد . اسمه السيد برشيا ، ظريف جدا . "

قال منوچهر :

" حتما إنه من أولئك الذين لايفهمون فهم حمار . "

قال كمال :

" العام الماضى كان معلمنا من أولئك المتأنقين المتحزلقين . "

ضحك منوچهر :

" إنه متأنق متحزلق ، رأيت هكذا . حتما قرأ عليكم بضعة من تلك الأشعار الجيدة وعلق قلوبكم جميعا . "

قالت فرشته :

" ياعم روح ... "

قال كمال :

" ليس عنده ثقافة قط . "

قال منوچهر :

" لأى شئ يريد هؤلاء الثقافة أو غيرها ؟ "

قالت فرشته :

" وحياتك بتقول الحق . "

قال كمال :

" إنه يجبر الإنسان أن يكتب إنشاء بالضرورة . "

قالت فرشته :

" ما أفضلها ! إن كتابة الإنشاء بالنسبة لى مثل شرب الماء . "

رد كمال :

" أنا على العكس منك ، فما أثقل على نفسى من وقت حصة الإنشاء . "

قال منوچهر :

" أخوك نقل من كتاب الإنشاء وأخذ درجة خمسة عشر ... "

جاءت أم فرشته ، ممسكة بطبق وابتسمت قائلة :

" ألم تحتفيا بضيفكما ؟ عجبا لكما من أولاد بلا تمييز . "

ردت فرشته بدلال :

" ليس السيد كمال ضيفا "

ثم غمزت بعينيها لكمال ، فاحمر كمال وارتبك وأطرق رأسه ، لكنه رفع عينيه بسرعة ، ونصب رأسه ناظرا إلى وجه فرشته ، ولم يتحمل نظرتها ، وأدار عينيه إلى الحمام ثم نظر إلى السماء .

كانت قطع السحاب ترتفع من قاع السماء إلى أعلى واشتد هبوب الريح بحيث بدأت الأشجار فى الاهتزاز والمقاومة . وضعت أم فرشته الطبق أمام كمال فالتقط قطعة حلوى لكنه استكره أن يأكلها ، فلم يحدث له من قبل أن قدمت إليه حلوى فى أيام المحرم ، وكان أبوه يقول دائما :

" الحلوى للعيد . "

علق يده فى الهواء واعتصر شفتيه ، وظل لحظة لايدرى ماذا يفعل ؟ وضعت فرشته حلواها فى فمها ونظرت إليه فارتفعت يد كمال تلقائيا ووضع الحلوى فى فمه ، وبدأت فرشته فى المضغ وقالت بلذة :

" أوهو ! يالها من لذيذة . "

لكن الحلوى كانت فى فم كمال تعطى طعم التراب ، وأرادت فرشته أن تلتقط قطعة حلوى أخرى لكن الطبق كان فارغا ، فقالت بضيق :

" هذه القطع القليلة يا ماما ؟ أنا أريد ثانية "

ضحكت أمها ولم تقل شيئا . قال منوچهر :

" من الأفضل أن تأكلى قليلا حتى لا تجبرين على عمل رجيم . "

قالت فرشته :

" خسئت . لست فى حاجة إلى رجيم في أى وقت . أنت الذى تحتاج إليه يامن بطنك كالقربة . "

" إنت التى لك بطن كالقربة ، افهمى كلامك يابنت . "

قالت أمها :

" بدأتما ثانية العراك كالكلب والقطة . "

نظر كمال إلى طبق الحلوى الفارغ وهو مندهش ، فأمه تضع كمية من الحلوى فى الطبق لو أكل منها عشرون شخصا لظلت منها كمية فيه . استقرت نظرة أم فرشته الدافئة وانطبعت ابتسامتها الحانية على وجهها قائلة :

" ليلة الأمس ذكرناك بالخير أنا وفرشته . "

وتبودلت نظرة بين الأم وابنتها ، وطبعت ابتسامة ساحرة فى زاويتى شفتى فرشته ، وأبدى كمال شكره بصوت مخنوق ، ورأى ابتسامة فرشته قد اتسعت ، ولم يكن يدرى لماذا ينسى نفسه أمامها ويخرس لسانه وقالت فرشته :

" وعدنى السيد كمال أنه سيعمل معى في الجبر ... إنه ممتاز فى الرياضيات . "

قال منوچهر :

" كيف ؟! ترى عودتنا من المدرسة عصراً إلى منزلنا . أفيها إشكال لك؟ "

قال كمال :

" لا . "

قالت أم فرشته :

" لابد أن تكونا شاكرين له جدا إذ سينفق وقته عليكما . "

وابتسمت في وجه كمال ، فقد كان سلوكها عفويا بلا تكلف وكأنها تعرف كمال منذ فترة طويلة ، وأراد كمال أن يجيب عليها بشئ لكن منوچهر بادر قائلا :

" لا توجد هذه الأمور بيننا وبين كمال . "

قلدت فرشته صوت منوچهر ولهجته قائلة :

" نحن أيضا هكذا ."

وضحكوا . كان كمال يشعر أن فرشته وأمها تحاولان بأى شكل أن تبعدا عنه الملل والشعور بالغربة فكلما كانتا أكثر تلقائية معه كان يزيد ارتباكه .

كانت لديه حالة الطفل الذى سقط بين عدد من الغرباء ، ولم يكن يعرف كيف يجلس وكيف يتحدث وماذا يفعل ؟ . وفى لباسه الجديد لم يكن أيضا يحس بالراحة . وكانت نظرات فرشته التى كانت تسمرها علي وجهه ويديه وحركاته وملابسه بين الحين والحين تجعله أكثر اضطرابا وارتباكا ، ولكن لا يفهمون اضطرابه ، كان يضحك عندما يضحكون ويهز رأسه موافقا على كلامهم . فعندما نهضت فرشته وأمها ، نهض أيضا من مكانه وأراد الخروج لكن منوچهر أجلسه ثانية وقال :

" إلي أين ؟ ليس عندك شغل . اجلس . "

كانت السحب السوداء تغطى السماء ، وكانت عاصفة محملة بالتراب قد بدأت في الهبوب وانتابت جنوع الأشجار رعدة وأخذت الأغصان تتمايل وتستقيم بضجة وصخب وترتعش . كان منوچهر جالسا على الكرسي وكمال صامتا ، قال منوچهر :

" عجبا لسوء الجو ! فالإنسان لا يصح أن يبقى في المنزل في مثل هذا الجو . "

نهض من مكانه ونظر إلى ساعته وقال :

" هيا نذهب إلى السينما ، أنت ضيفي وعندنا وقت للوصول فى الموعد . "

فوجئ كمال :

" ماذا ؟ سينما ؟ ... لا . "

نظر إليه منوچهر :

" ولم لا ؟ إنها تعرض فيلما جميلا . "

فقال كمال ثانية باضطراب وإصرار :

" لا ، لا . "

نظر إليه منوچهر متعجبا وقال :

" إذن لم لا ؟ ! أنا لا أفهم . "

قال كمال وهو خائف :

" الخلاصة ... السينما ... "

ووقعت عينه على فرشته وأمها اللتين كانتا تنزلان سلم المبنى فانعقد لسانه ونسى ماذا كان يريد أن يقول ؟ ! ثم تركزت عيناه على الحمام

حيث كانت صورة السحب السوداء قد ارتسمت على الماء وكان الماء قد تموج ، وقال بصوت منخفض وكأنه يحدث نفسه :

" غاصت الأسماك تحت الماء ! "

استدار منوچهر وسأله :

" الأسماك ؟ "

ونظر إلى كمال الذى كانت عيناه شاردتين فى الحمام وفى عينيه حالة عجيبة وقال :

" أين أنت يابنى ؟"

التفت إليه كمال وسأله :

" ماذا ؟ "

قال منوچهر :

" لا شئ قط ، أريد أن أعرف هل ستأتى لنذهب إلي السينما أم لا ؟ لقد ذهبت فرشته الأسبوع الماضى ، وهى تمدح . "

تساءل كمال ولازالت صورة الأسماك عالقة فى ذهنه :

" تمدح فيه ؟ "

" كثيرا ، لنتحرك هكذا ، من الممكن ألا نحصل على تذكرة دخول."

جلس منوچهر على حافة الحمام ثم بلل شعره بالماء ومشطه وقال :

" جو بشع . "

أخذ ينظر إليه كمال باستمرار وأفكاره مضطربة ، كانت السينما دائما فى نظره موضعا للفساد ، كما كانت تثير خوفه وكان يظن أن

السينما مكان تأتى إليه النساء حتى يكشفن عن عريهن للرجال ، فصور النساء العاريات وصور الرجال المتأنقين والملابس العجيبة التى يرتدونها تثير فى نفسه النفور ، والآن قد استيقظ فى قلبه كل إحساس بالنفور من السينما ، وكان يتذكر كل هذه الأشياء التى كان يسمعها من أبيه وعمه الحاج عن السينما فيجتاحه الخوف . وفجأة برز برق فى السماء أضاء الحديقة كلها ، ورعدة واحدة طيرت كمال من مكانه وجعلته ينهض من الكرسى بلا إرادة ، ونظر بخوف إلى السماء التى كانت تغطيها السحب السوداء ، وكان الجو مظلما . لقد عم المكان كله صمت عميق وعجيب .

سمع صوت منوچهر :

" هيا بنا هيا ... لماذا تضيع الوقت بلا طائل ؟ ! "

ابتعد عن منوچهر وقال بصوت مخنوق :

" لا ، لا ، أنا لن أستطيع المجئ . "

وفى الوقت الذى سيطرعليه خوف خفى ، سلك طريقه نحوباب المنزل ، وسمع صوت منوچهر الحائر من خلفه :

"إلى أين ؟ إلى أين تذهب ياكمال ؟ "

وبلغ كمال باب الزقاق وصاح دون أن ينظر خلفه :

" أنا ذاهب ، وداعا . "

ألقى بنفسه فى الزقاق مسرعا مضطربا ، كان الزقاق خاليا وكان ظلام فى غير وقته مخيف قد سيطر على المكان . فاعتراه خوف غريب

ونظر إلى السماء وإلى الزقاق المظلم ، وأسرع خطاه ثم جرى فى الزقاق وكأن أحدا يتعقبه ، وعندما وصل إلى الشارع وقف يلهث وهو يشعر بالراحة وخفة الحمل وسط الناس ثم توقف فى ركن حتى التقط أنفاسه ، ولم يكن يفهم شيئا عن الخوف العجيب الذى اعتراه لبضع لحظات مضت . لكنه منذ أن خرج من منزل منوچهر ، كان سعيدا . شق طريقه ببطء والناس تروح وتغدو بجانبه بينما أصواتهم وأبواق الحافلات والعربات تملأ أذنيه ، وكان بائع اللوز الفج يحمل طبقا على رأسه ، ومر بجواره وهو ينادى بصوت عال على بضاعته ، وقد تجمع عدد من لابسى الأسمال حول بائع الكرشة فى ركن الشارع وفى أيديهم قطع من الخبز فوقف كمال ونظر إليهم ، ومد متسول عجوز يده إليه ثم سار كمال ثانية . فمنذ سنوات كان يروح ويجئ من المنزل إلى المدرسة ومن المدرسة إلى المنزل من هذا الطريق وكأنه دمية تملأ ، وكان قداعتاد أن يطرق رأسه ويأتى ويعبر دون أن يجذب اهتمامه ومشاعره شئ .

وكانت تمر أمامه امرأة طويلة القامة ذات جسد جميل ترعشه بحركات ملفتة ، وظل كمال يسير خلفها على عادته ، والتفت دفعة واحدة ، إن نظرته قد توقفت بلذة على حركات المرأة بنصف جسدها الأسفل ، وتذكر كلام أبيه :

" كل من يخطو خطوة واحدة فى الخارج ويعود يصبح غريقا فى المعصية . "

اجتاحه شعور بالذنب وتذكر الكلام الذى قاله فى منزل منوچهر فقد تحدث عن الروضة ومنشديها والضاربى أنفسهم بالسيوف فجذب اهتمام

فرشته وأمها بشدة وحدثهم كيف كانت النساء تجمشن له عند توزيعه للشاى فضحكوا مقهقهين . كان يتعجب من نفسه فقد تحدث عن الروضة ومنشديها بلهجة لم تكن لها سابقة عنده . ولوحدث منذ أسبوع واحد أن تحدث إنسان آخر بمثل هذة اللهجة لنفر منه بلاشك ، والآن هو نفسه ... توقف وسط الشارع وكور قبضته وعض شفتيه بأسنانه ، كان يحس بالذنب والندم بشدة . لماذا تحدث بهذا الشكل ؟ لم يكن يدرى قط . فأطرق رأسه وأسرع الخطى بعيدا عن المرأة ، وعندما وصل إلى المنزل جلس على الحوض بإحساس الإنسان الذى ارتكب ذنبا وتوضأ ، وجاهد أن يقف فى الصلاة بنفس خلوصه وحضور قلبه المعتادين .

* * *

وبعد أسبوع اصطحبوه إلى السينما . وطوال الطريق كان مرهقا ومضطربا وحائرا كما كانت رأسه مزدحمة (بالأفكار) .

" لماذا وافقتهم ؟ لماذا سرت مسلوب الإرادة ؟ ياترى هل سيعرف أبى ؟ جعله الله لا يرانى ... دعهم يرون ... دعهم يفهمون . لن يقطعوا رأسى . "

لو لم تمسك فرشته يده وتصر ، لما وافق على المجيء أبدا ، ولما خطا بقدميه إلى السينما ، فملمس يد فرشته الصغيرة والجميلة ونظراتها الممزوجة بالود سلبت مقاومته .

كان مضطربا الآن ، يدور بنظره فى كل ناحية ، ومن وجه إلى وجه آخر كان فزعا ، كان يسير بجوار منوچهر وفرشته لكن حواسه لم تكن

فى موضعها ، ولقد كانوا يسألونه عن الشيء عدة مرات فيجيب عليها بإجابات تعلى من ضحكات فرشته ومنوچهر .

لم يفهم ماذا حدث ؟ وإلى أين ذهب ؟ عندما أفاق من حرجه وجد نفسه فوق كرسي إلى جوار فرشته ، كانت أذناه تملأهما صخب الناس وضجيجهم فتملكه خوف غامض ، وشعر بحرارة شديدة ، كانت أذناه تطن وقلبه يدق بشدة ، وحالته سيئة ، ولو لم يخجل لنهض من مكانه وأخرج نفسه من هناك .

وما إن أطفئت المصابيح حتى أحس بالسكينة فى الظلام ، وفجأة انقطعت أصوات الناس وخيم السكون على المكان ، وأخذ ينظر بعينيه بفضول ونفور أمامه ، وهو يضغط يد الكرسى بيده وينظر باضطراب إلى الصور التى كانت تمر أمام عينيه ، ولكنه لم يكن يدرك العلاقة بين الصور حتى إنه كان يسمر بصره فى إحداها ويرد إلى ذهنه تصور مبهم عنها ، كانت صورة تمر أمام عينيه وصورة أخرى تحل محلها والألوان والبشر والأشياء والمناظر تختلط ببعضها فتشتت حواسه وتربك رأسه . وبالتدريج بدا في رأسه إدراك بعيد ومبهم ، واستطاع أن يميز ما بين الصور وأن يفصل البشر عن الألوان والمناظر ليصبح أكثر دقة وعمقا ويحصل على بداية موضوع الفيلم وأصله .

... كان هناك غلام صغير يسير بين الأشجار :

" هذه الجذوع والأحجار التى وقعت إلى جوار بعضها ... أين هذا المكان ؟ هنا ... آهاه ، إنه جبانة ، وهذه صلبان . حقا مثل صورها فى الكتب . يالها من جبانة هادئة وجميلة . "

وبعد ذلك كانت الأشجار تهتز بشدة .

" تهب الرياح ، وينقلب الجو إلى عاصفة . "

كان يرى فزع الغلام الصغير على وجهه وخطواته التى كان يجعلها أكثر سرعة وسرعة .

" لو كنت مكانه لتملكنى الفزع . ياله من أمر يثير الخوف . لا يوجد أحد قط . "

فجأة بدأ الصغير فى الجرى بين الأحجار والأشجار المتشابكة حيث كانت ظلالها تتحرك كالأشباح المخيفة على الأرض ، وتوقف الصغير لاهثا ينظر فى كل مكان وهو خائف .

" ضل طريقه ، لا يدرى من أى اتجاه يسير ، يكاد المسكين يهلك من الخوف . "

وكانت الأشجار تتمايل بشدة محدثة حفيفا .

" يالها من رياح عجيبة وعواصف ! "

كانت السماء قد أظلمت ، والقمر قد قبع بين السحب السوداء ، والصغير يجرى خائفا حيث كانت الأشجار تتحرك والظلال تتنقل . وفجأة من خلف شجرة خرج شبح ضخم أسود واحتضن الغلام ، فنهض كمال من الكرسى دون إرادة وصرخ صرخة مكتومة :

" أىْ "

ظهر القمر من تحت السحاب ، واتضح جسد الشبح . كان شيخا ضخما طويل القامة . وجلس كمال ثانية على الكرسى .

" آه . "

لكن قلبه كان يدق بشدة :

" عجيب أننى خفت ! "

وبالتدريج نسى متاعبه . والخوف من الذنب والدوار والحيرة تركوا مكانا لدهشة عميقة . ثم انحنى مسحورا إلى الأمام ... وصار حائرا ... وصار غريقا .

وعندما أضيئت الأنوار كان كأنه استيقظ من حلم ملىء بالمغامرات والأشياء الحلوة ، فكم من لحظات لم يستطع أن يفهم ما الوقت وأين هو ؟! كان ينظر حوله حائرا ، ثم أذى نور المصابيح الشديد عينيه وملأت أصوات الناس أذنيه .

نهض الناس من أماكنهم ، وامتزجت أصوات الكراسى والموسيقى التى كانت تبث . أمسك منوچهر بيده وأوقفه ، وضحك وقال :

" قم لنذهب ، انتهى يا صاحبى . "

لم يكن يحب أن ينتهى بهذه السرعة ، إنه كان يحب أن يستمر الفيلم على ذلك النسق ، ويجلس على ذلك المنوال ويشاهد . سلك طريقه بصحبة منوچهر وفرشته مع الناس ،

ولا زالت مشاهد الفيلم أمام عينيه وكان يريد أن يعرف ما هى نهايته ؟ دنا من منوچهر وسأله بصوت منخفض :

" حسنا ،هل تتزوج تلك الصبية بالغلام ؟ "

التفت منوچهر نحوه وقال :

" ماذا يفعلان ؟ "

كانا يمران من ممر خافت الضوء رطب ، وقد ملأت أصوات المارة آذانهما وكرر كمال سؤاله بصوت أعلى:

" أقول لك هل سيتزوج هذا الغلام من الصبية فيما بعد ؟ "

ضحك منوچهر :

" معلوم بالطبع . ثم من بعدها يتناسلون ويموتون . "

" يموتون ، هه ، قلت يموتون ؟ "

صرخ منوچهر :

" لا يا أخى ، ليس بهذه السرعة ، بعد خمسين سنة وربما سبعين سنة أخرى ، عندما ينساهم الجميع ويتقاعدون فى هوليوود . "

" يتقاعدون فى هوليوود ؟ "

تقدم منوچهر مع أمواج الناس ، ولم يسمع صوته حتى دخلوا الشارع . فسأله منوچهر :

" ألم تستأ ؟ "

حركت فرشته إصبعها أمام وجهه :

" رأيت . قلت سيعجبك ؟ "

هز كمال رأسه :

" إنه مدهش جدا . "

ضحك منوچهر :

" هل تريد أن نعود لنشاهد حفلة أخرى ؟ "

وبينما كمال مشغول فى فكره ، قال :

" يتخيل الإنسان فى الأصل أنهم بشر حقيقيون وأحياء فى الحقيقة . "

قال منوچهر :

" لكن موتهم ليس حقيقيا . "

قالت فرشته ثانية :

" رأيت . قلت سيعجبك ؟ "

قال كمال :

" إن الإنسان يقرأ كتابا ولا يؤثر فيه إلى هذا الحد ، عجيب جدا !!

" لم تكن لدهشته حدود ، كان مذهولا تماما ، فما رآه كان على عكس توقعه ، على عكس كل هذه الأشياء التى كان قد تصورها مع نفسه وبنى عليها أحكامه .

كان يقول لنفسه :

" ياله من خطأ ، ياله من خطأ مضحك ؟ ! "

فمن قبل كلما كان يرى أمام السينما صور النساء خلف الواجهة الزجاجية ، كان يظن أنهن يتعرين والناس يجلسون فيشاهدونهن . وكان أبوه يقول دائما :

" إن هؤلاء الفرنجة أولاد الزناة لا غيرة عندهم ولا حمية ، يصورون سيقان نسائهم ويحضرونها إلى هنا ليعرضونها ويسمونها سينما ، ويسمونها ترويح ، وينادون هيا صندوق العجب ، من كل لون ،

تعالوا تعالوا لتشاهدوا نساءنا العاريات ، تعالوا وروحوا عن أنفسكم . الكفرة الذين يريدون سلب عفة المسلمين وعصمتهم ، ويريدون أن يجعلوا هذا المكان أيضا دار كفر . "

عاد إلى المنزل مهتاجا ومضطربا ، وبمجرد أن فتحت أمه باب الزقاق اعترف قائلا :

" لقد ذهبت إلى السينما يا أمى ، لا تدرين كم كانت جميلة . "

انتظر أن تعبس أمه وتبدأ فى توبيخه ، لكنها نظرت إليه فقط ولم تقل شيئا قط ، لم ير فى عينيها علامة من اللوم فقال بسعادة :

" كانت جميلة جدا يا أمى . ليتك كنت تستطيعين المجىء أيضا وتشاهدين ، فالكل يقول إن النساء العاريات يأتين ويرقصن ، كله كذب وبهتان فليس هناك شىء من هذا أصلا . إن رجلا عجوزا قدم كل نفقات الدراسة والتربية لطفل يتيم حتى يستطيع أن يتعلم ويذهب إلى الجامعة . تعلمين أن الطفل لم يكن يعرف فى الحقيقة من الإنسان الذى يقدم له نفقات دراسته هذه ؟ عجبا لهذا العجوز المضحى . لم أر مثل هذا الإنسان حتى الآن . لا يا أمى ، ليست السينما سيئة ولا تفسد أخلاق الإنسان ، فكل من يقول إن السينما سيئة لا يدرى ما هى السينما ؟ إن أبى لا يدرى لو كان قد ذهب مرة واحدة إلى السينما لما تحدث بهذا الشكل ثانية ، لو تريدين أن أصطحبك مرة فلنأخذ الأولاد ونذهب . "

ابتسمت أمه وقالت بحنان :

" حسنا يا ولدى . لا تصرخ ، تريد أن يعرف أبوك ويؤذينا . "

قال كمال :

" يعرف يعرف ، هذا أفضل . ما دام لم يذهب إلى السينما ولا يدرى ما السينما أصلا ؟ لماذا يتحدث عنها بالسوء ؟ لقد شاخ وخرف ولا يفهم . أصلا لا يفهم شيئا ، أصلا شيخ مخرف . "

نظرت إليه أمه وهى مندهشة وقالت :

" حسنا يا عزيزى ، لا عليك ، أبناء الحاج عبد الله يذهبون أيضا إلى السينما . لا تنظر إلى أبيك . أتتناول العشاء ؟ إن أباك لديه ضيف ، ليس طيبا أن تثير شجارا . "

وكان يود أن يتحدث عن السينما ثانية ويقص على أمه قصة الفيلم من بدايته إلى نهايته ، فهو لا يزال مهتاجا ، لكن أمه لم تعر اهتماما إلى انفعاله وانتشائه .

تقدما فى صحن الدار فسمع كمال صوت أبيه كان يفسر بصوت عال كتابا ، ثم اقترب كمال أكثر فسمع :

" كان الكفار قد تكاتفوا والخليفة المأمون فوقهم منجعصا فوق عرش الملك وجالسا متضخما . وآنذاك اتجه سيدى الإمام الرضا إلى المأمون وقال : إن ملكك لا يدوم ، وملكنا باق إلى الأبد . فالإنس والجن والحيوان جميعا تحت إمرتنا ، وقال المأمون : فلتبد سيدى معجزتك لهؤلاء الكفار الذين لا يعرفون الله . فاتجه سيدنا إلى الستار إلى تلك الأسود التى كانوا قد رسموها على الستار ، وقال :آمركم أن تخرجوا ، بقدرة الله مزقت الأسود الستائر وانطلقت خارجها وابتلعت الكفار والتهمتهم دفعة واحدة . "

مر كمال من أمام الحجرة ، وصعد درجات السلم وقال لنفسه :

" وهل يستطيع الأسد أيضا أن يلتهم الإنسان دفعة واحدة ؟ ! "

وعندما دخل حجرته تعجب من نفسه ، ولم تعد لديه تلك الثقة المعتادة بالنسبة لكلام والده وتذكر أنه قال : " الشيخ المخرف " . لم يكن قد تحدث عن أبيه بمثل هذه اللهجة ، وبلا سبب كانت أمه قد نظرت اليه بحيرة .

وقف أمام مرآة الحجرة الكبيرة ونظر إلى نفسه ، كان ينظر فى المرآة أغلب الوقت ساعيا أن يرى دليلا أو أثرا من وجه والده فى سحنته ، ولكنه الآن لم يكن يبحث عن تلك العلامات ثانية ، كانت سحنته قد اتخذت وصفا جديدا بحيث تذكره بشبه وبشكل مبهم . شبيه بإنسان كان قد رآه مرات وارتسمت فى رأسه سحنته مجسدة وحية ، لكنه مهما حاول جاهدا لم يكن يستطيع أن يتذكر أى شخص هو ومتى وأين رآه ؟ كان يشعر أن هذا الشبه وأن هذه الحالة الجديدة لسحنته تسعده وترضيه أكثر بكثير من أحوال وجه والده . أغلق باب الحجرة ، وشعر بالسكينة فيها وكانت حجرته هى الملاذ له ، الملاذ فى مواجهة أشياء مخيفة ومجهولة التى لم تكن تستطيع – الأشياء – بسوء نية أن تنفذ إلى داخله وأن تهزمه . فى الأيام التالية كان يبدو لكمال قليلا قليلا أن أشياء جديدة ومجهولة تتولد فيه ، وتجنب كمال تجاهلها لكن كان انبثاقها مثل البراعم كان يراها بين كل أفكاره رفيقة لسريان دمه الذى يسرى بلا صوت . وفى نظره كل الأشياء التى كانت فى الماضى ساكنة وفى موضعها الآن لم تكن بعد فى موضعها وكأن فوضى مجهولة قد

امتدت إلى كل وجوده ، وكان كمال يحس باللذة والضياع فى هذه الفوضى .

كانت أنفاس الربيع تأتى إلى داخل حجرته . وكانت زهور العليق والفل تملأ حجرته الصغيرة من حديقة جاره ، وكانت الجنادب ترسل صريرها الثمل طوال الليل ، وكانت النجوم تتلألأ أكثر وكان الربيع قد أيقظ الجميع .

* * *

بينما كانوا يذهبون من المدرسة إلى المنزل رأوا محمودا الذى كان يسير ببطء مطرق الرأس على التوار الآخر من الشارع فرآه كمال وقال :

" كأنه محمود . "

توقف منوچهر ونظر :

" إنه هو . هو بعينه . "

ذهبا إلى الجانب الآخر من الممر ، وناداه منوچهر ، لكن محمودا لم يسمع نداءه ، فناداه ثانية بصوت أعلى ، فاستدار محمود فرآهما فتوقف حتى وصلا إليه وابتسم لمنوچهر وقال :

" كيف حالك يا دون جوان ؟ "

ومد يده إلى كمال :

" كيف حالك ؟ "

قال منوچهر :

" أنت غارق فى التفكير يا بنى ؟ لقد ناديت عليك عدة مرات . ما الخبر يا بنى ؟ "

فأجاب محمود :

" لقد غرقت سفني "

وساروا معا ، كان الجو معتدلا أخاذا ، وقد كان المطر ينزل مدراراً وعلى فترات قصيرة يثير رائحة التراب فى الجو ، وسأله منوچهر :

" إلى أين أنت ذاهب ؟ "

قال محمود :

" لا مكان محدد ، كنت أجوب الشوارع . "

قال منوچهر :

" أتوافق أن نذهب ونجلس فى مكان ؟ ليس لديك عمل ؟ "

قال محمود :

" لا . لمدة ساعة أو ساعتين ، لنذهب إلى مقهانا . "

نظر إلى كمال وابتسم وقال :

" نشرب ونتسامر ، ليس لديك اعتراض يا كمال ؟ "

ضحك منوچهر :

" أى اعتراض لديه ؟ بالصدفة اشتهى شرب كأسين معه ، حتى الآن لم أشرب العرقى معه . "

قال كمال مرتاعا :

" عرقى ؟ لا . "

ضحك محمود وقال :

" أنا أيضا لا يسيئنى أن أتجرع كأسا . فمنذ فترات لم أرطب شفتى . "

قال كمال :

" لم أشرب العرقى قط فى أى وقت قط ، أصلا أنا ... أنا . "

ووقف قلقا ثم قال :

" يجب أن أذهب إلى المنزل ، عندى شغل . "

استدار ليذهب ، فمنعه منوچهر وضحك :

" لا تهرب يا بنى ، لنشرب شايا ونتسامر ثم نعود . "

قال كمال :

" أصلا ، أصلا ... "

قال محمود :

" أشرب العرقى مع الشاى والجلاب ، وأنت يا كمال مع ماذا ؟ "

وقف كمال ثانية وسط الشارع وقال :

" أنا لا أشرب العرقى . "

أراد أن يعود ويمضى ، لكن منوچهر أمسك يده وقال :

" يا بنى ، إنه يمازحك ، فمن يشرب العرقى مع الشاى والجلاب ؟ هيا نمضى . "

وقطعوا طريقا طويلا مثرثرين ، فكان منوچهر ومحمود يتحدثان بينما كان كمال ساكتا يستمع إلى حديثهما وينظر بفضول إلى محمود . كان محمود أطول قامة من منوچهر ، لكنه على عكس منوچهر ، كان ذا قوام نحيل بارز العظام وفى وجهه الطويل الرفيع وجبهته العالية وشاربه الكث كانت تجذب الانتباه أكثر من أى شيء آخر ، وكان ذا شعر أسود غير ممشط بعناية وقد توقف بين موضع وآخر وكانت عيناه السوداوان الدقيقتان تبدو أصغر من خلف النظارة .

وعندما وصلوا إلى المقهى دخلوا وخلع محمود نظارته ، وبطرف رباط عنقه مسح زجاجها ، وابتسم فى وجه كمال . كان سلوكه مع كمال سلوك ود ومحبة ، كان سلوكه معه أكثر ودا من منوچهر ، وكان كمال خلافا لأول يوم رآه فيه فى منزل منوچهر يحس أنه يعجبه ، وكان سلوكه الودى والتلقائى يمنح الاطمئنان والثقة لكمال بحيث كان يبعث فى نفسه أن يحس بالراحة فى مواجهته .

قال منوچهر :

" جئت عصر أول أمس ولم تكن فى منزلك . "

" ذهبت إلى الكلية ، فعندى جدول عصر كل أحد . "

كان كمال قد أصبح طلعة ويود أن يسأل محمودا كيف يستطيع أن يعيش وحده ؟ لكنه لم يكن يعرف كيف يجذب طرف الموضوع إلى هذه النقطة ، فكان يخشى أن يضايق محمودا بسؤاله . جاء النادل وألقى السلام على محمود فسأله محمود :

" هل جاء الأولاد أمس ؟ "

هز النادل رأسه وقال :

" كانوا يبحثون عنك . "

ثم سألهما محمود :

" ماذا تشربان يا أولاد ؟ "

قال منوچهر :

" هات لى قهوة تركى . "

وقال كمال :

" وأنا أشرب شايا . "

فقال محمود :

" هات لى شايا أيضا ، وحاجة بجانبه أبلع بها الشاى ، اثنين ثلاثة من تلك النعال . "

ومضى النادل ففكر كمال ثانية :

" أسأله ؟ لا أسأله ؟ "

ودخلت المقهى تلميذتان وفى أيديهما الكتب ترتديان زيا موحد اللون ، فاتجه انتباه منوچهر نحوهما ، بينما جاءت الفرصة لكمال أن يتحدث :

" حقا ، كيف استطعت قطع علاقتك بأبيك وأمك ؟ "

فابتسم محمود قائلا :

" لا يصح أن تسمى قطع علاقة ، فالإنسان لا يستطيع أن يقطع علاقته بهما ، لكنه يستطيع أن يعيش منفصلا عنهما . "

فرد منوچهر :

" إن كمال فى نفس وضعك تقريبا . "

فقال محمود :

" أنا أيضا فى وضعى كثيرون ، حقا عندما يفكر الإنسان بشكل صحيح ، يراهم غير مقصرين ولا نحن ، وإن أراد الأولاد أن يشقوا طريقهم بأنفسهم فلا بد أن يفصلوا أنفسهم عنهم ، إنه حمق شديد إذا أرادوا تغييرهم إنهم سلكوا طريقهم بأنفسهم ، لقد خلقوا هكذا ، حسنا ، وعندما لا نستطيع تبديلهم يجب أن ننفصل عنهم ويجب أن ننتحى جانبا ، ومن الممكن أن نضايقهم بهذا ونكسر قلوبهم لكنهم يعتادون ، وفى النهاية من أعماق قلوبهم يقتنعون . لأنه إذا لم نقم بهذا العمل ونبقى معهم لجعلناهم مساكين ولأيأسناهم من أنفسهم ومنا ولألقيناهم فى القلق والانشغال ! وآنذاك ربما يظنون أننا أبناء عاقون ولهم الحق لأن كل عمل نقوم به هو من سلوك أو حديث يكون على خلاف حياتهم فيضطرب نسق حياتهم ويفقدون راحتهم وكلانا على حق ، فلتقبل ، لكن فى عالمين مختلفين . أسألك ياكمال الآن : هل من الصحيح أن يتنازع هذان الحقان ؟ هل حقا أن يبطل كل منهما الآخر ؟ لا ، أنا أقول : لا ، يجب على كل فئة أن تسلك طريقها بنفسها ، أن يظلوا فى عالمهم حتى يظلوا على حق ، وإن كنت فعلت هذا العمل فإننى أعتبر نفسى أكثر فدائية منهم ذلك أنهم خسرونى فحسب . لكنى خسرتهم جميعا . أشتاق إلى أصواتهم وإلى صراخ أخوتى وأخواتى وضجيجهم ، وأفتقد حبهم الخالص وأرجو ألا تعاند مثلى وتنفصل عنهم بشكل ما . "

قال منوچهر :

" برغم أني أتفاهم مع أبى بشكل أو بآخر إلا أننى أريد أيضا أن أقوم مثلك بانقلاب وأنبذ كل شئ . "

فقال كمال :

" إنك متفاهم مع أبيك ، فما حاجتك إلى الانقلاب ؟ "

" ضايقته السعادة . "

قال منوچهر :

" عندما يعيش الإنسان وحده ، لايبقى لديه تعب أوانشغال ويستطيع أن يسعد بنفسه . "

قال محمود :

" أجل ، إن المنظر جميل من بعيد . "

جاء النادل بالقهوة والشاى وبضع قطع الحلوى الطازجة وازدحم المقهى تدريجيا . وكانت الفتاتان تجلسان أمامهم وتتحدثان بصوت خافض وتضحكان ضحكات متتالية ، وكانت إحداهما سمراء نحيلة والأخرى ممتلئة قليلا وبيضاء ذات عينين واسعتين لامعتين سوداوين ، وكلتاهما فى سن السابعة عشر أو الثامنة عشر .

قال كمال :

" لا يدرى الإنسان ماذا يفعل بعض الأوقات ؟ فمنذ بضع ليالى جاء إمام مسجد الحى ضيفا على منزلنا ، وأصر والدى أن أجلس وأصحح أمامه قراءتى فى القرآن . "

فضحك منوچهر :

" لم نكن ندرى أن قراءتك فى القرآن عوجة ! "

سأله محمود :

" حسنا ، ماذا فعلت ؟ "

" لا شىء قط ، قلت إننى أشعر بصداع فى رأسى وذهبت إلى حجرتى ... حقا لا يعجبنى بأى شكل هذا الإمام . إنه من خدع ذلك العصر وحيله . وكان أهل الحى يعتقدون فيه بشكل لا تتصوره ، فلا تستطيع أنثى قط أن تخرج إلى الزقاق دون حجاب حتى أنه يستشيط غضبا عندما يرى طفلة صغيرة بدون حجاب ويوقفها ويوبخها لماذا لم تضع النقاب على رأسها ؟ وكأن الطفلة تفهم شيئا ، وذات مرة نهر طفلة فى سن الخامسة أو السادسة بحيث أوشكت المسكينة على الموت رعبا . "

قال منوچهر :

" لو كنت مكانك لمثلت جيدا بين يديه ، فهؤلاء يجعلون الناس حميرا ويركبونها . "

سأله كمال :

" ماذا كنت تفعل ؟ "

قال منوچهر :

" كنت أذهب وأجلس وأخدعه تماما . "

قال كمال :

" أيصح أن يخدع ؟ "

قال منوچهر :

" هل تخاف ؟ "

قال كمال :

" لم أقم بعمل قط ، أخونا منقلب على تماما ، يذهب يمينا ، أو يأتى يسارا ، يصب على اللعنات ، السيد صاحب رباط العنق ، زير النساء ، المحتال ، البلطجي . "

قال منوچهر :

" لو تسمع منى ، تقف أمامه . وإلا يقول لك غدا تعال ، وضع نعل السيد أمام قدميه وأحمل الابريق له حتى باب المرحاض . "

قال محمود :

" لا يا أخى ، لا تسمع كلام هذا الدون جوان . ينبغى أن تتحمل بشكل ما حتى تنتهى مصلحتك ، وآنذاك يكون عندك الفرصة لكى تعوض . "

انهمكت الفتاتان فى التهام الجيلاتى والضحك والنظر إليهم .

قال محمود :

" إنهما شقيتان جدا . "

قال منوچهر :

" من الممكن التمتع بهما ، فلا بأس بهما . "

ابتسم كمال :

" لقد انصرف انتباهك إليهما منذ البداية . "

" لم ينصرف انتباهى ، بل مضى قلبى ."

عندما نظر كمال إلى الفتاتين ، أخرجت الفتاة السمينة لسانها وغمزت بعينيها وقلبت وجهها ، فغض كمال نظره عنها واحمر وقال :

" يالها من جرأة ووقاحة ! "

قال محمود :

" إنها لعوب جدا ."

ضحك منوچهر :

" إنها مغرية ويخفق قلبها شوقا . "

وعندما خرجوا من المقهى ، كان الجو يظلم وشعر كمال بأن حواس منوچهر مشتتة ، ولا يفتأ يتلفت وينظر فى ناحية ما . فقال محمود :

" حسنا يا أولاد ، يجب أن أسرع ، يجب أن أذهب لأعطى الدرس . "

قال منوچهر :

" وأنت أيضا يا سيدى مع قيامك بالتدريس متى نراك ؟ "

قال محمود :

" سآتى منزلكم فى يوم قريب . "

وسلم ومضى . جذب منوچهر يد كمال وسلك ناحية مسرعا ، فسأله كمال :

" لماذا من هذه الناحية ؟ "

قال منوچهر :

" اسرع حتى لا نفقدهما . "

نظر إليه كمال متعجبا :

" نفقد من ؟ "

جذبه منوچهر وراءه :

" تعال . "

أبطأ قدميه فى منعطف الشارع ، ثم توقف وقال :

" ها هما . "

ورأى كمال نفس الفتاتين اللتين كانتا فى المقهى تسيران بتهاد من المر ، قال منوچهر :

" هات منديلك يا كمال لأرى . "

أخرج كمال منديله من جيبه ، فأخذه منوچهر وقلبه من الوجهين ثم رده إليه قائلا :

" منديلى أفضل ، فمنديلك نظيف جدا . "

نظر إليه كمال حائرا ، فلم يكن يفهم ما يقوم به . أخرج منوچهر منديله وقلبه ثم انحنى ومسح به حذاءه ووضعه ثانية فى جيبه ، ثم أحكم رباط عنقه وسار ، فسأله كمال :

" أين تريد أن تذهب ؟ "

قال منوچهر :

" تعال ورائى ، ليس لك شأن . "

أسرع منوچهر خطاه حتى بلغ الفتاتين ، فنظر إليه كمال مندهشا ليرى ماذا يريد أن يفعل ، وبدا منوچهر فى سحنة من يقوم بعمل مهم جدا وقال بأدب : " عفوا . " .

فاستدارت الفتاتان ونظرتا بدهشة ، فقال منوچهر ثانية :

" أعتذر جدا لتطفلى وسط الشارع ، فهذا ينافى قواعد الذوق . "

توقفت الفتاتان ثم اقترب منهما كمال ببطء ولكنه تحاشى النظر إلى وجهيهما .

قال منوچهر :

" فكرت ربما ليس من الذوق أن أضايقكما أمام المقهى ، لو سمحتما ، صديقى ... "

استدار وأشار إلى كمال :

" لقد وجد شيئا فى المقهى ويظن أنه لكما ، ألم تنسيا شيئا فى المقهى ؟ "

بهت كمال ونظر إلى منوچهر مرتبكا ، فتظاهر منوچهر بالجدية حتى لا يتطرق الشك إلى كمال ، وفكر :

" لماذا أخبرهما أننى وجدت شيئا ؟ "

بدأت الفتاتان تبحثان فى ثيابهما ، وقالت الفتاة السمينة :

" لا أظن أننى نسيت شيئا ، حتما أنك نسيت شيئا . "

فقالت الفتاة السمراء :

" لا . لا أظن . "

فاستدار منوچهر ناحية كمال :

" ألا تكون قد أخطأت ، أتعلم حتما أنها للآنستين ؟ "

قال كمال مضطربا :

" أنا أصلا ... "

قطع منوچهر كلامه وقال بإصرار :

" أصلا ماذا ؟ من الممكن أن تكون قد أخطأت . "

أسقط فى يد كمال وبهت ولم يكن يدرى ماذا يقول ؟ وسأل منوچهر الفتاتين بلهجة مهذبة وجادة :

" آسف جدا ، هل أنتما واثقتان أنكما لم تفقدا شيئا ؟ "

نظرت الفتاتان إلى منوچهر وكمال بسوء ظن ، وتبادلا النظرات وبدآ فى البحث ثانية ، وكانا يخرجان ما فى جيبهما وينظران ويضعانه ثانية فى الجيب .

ثم قالت الفتاة السمينة :

" الآن ألا يصح أن تقولا ماذا وجدتما ؟ لابد أن له أمارة . "

فقال منوچهر :

" لا ، لا ، أبدا... ليس شيئا مهما فى الأصل ، أعتذر أننى لم أقدمه لكما فى الحال ، يجب أن تسامحونى .. "

وضع يده فى جيب سرواله ، وأمام عينى كمال الحائرتين أخرج منديله المكور القذر وأمسك به بطرف إصبعه أمام أعين الفتاتين وسألهما :

" ألم تفقدا المنديل يا آنسات ؟ "

فتغير شكل الفتاتين وقالتا بصوت واحد :

" لا ، المنديل ليس منديلنا . أف ياله من منديل قذر ! "

هز منوچهر رأسه موافقا وقال :

" صحيح أنا أيضا قلت هذا لِصديقى . "

واستدار نحو كمال وقال :

" رأيت ؟ ! لقد قلت لك إنك مخطىء ، وهذا المنديل القذر لا يخص آنستين بهذا الحسن والجمال . "

فاستدارت الفتاتان بوجه ممتعض عبوس ناحية كمال ، فاحمر واستدار بغضب تجاه منوچهر ، وود أن يقول شيئا إذ نظر منوچهر متحيرا إلى المنديل وقال :

" أصلا ، دعنى أرى ، عجبا ، عجبا ! "

وقلب المنديل القذر أمام عينيه وقال مندهشا :

" آ .. آ .. هذا منديل ! "

نظر بسحنة بلهاء إلى الفتاتين ونظرت الفتاتان إلى بعضهما ، وفجأة انفجرتا فى الضحك ومضيتا .

وضع منوچهر المنديل فى جيبه ، وأمسك بيد كمال وسحبه خلفه

ومشي إلى جوار الفتاتين ، وكانت الفتاتان تستديران وتنظران إليه وتضحكان .

قال منوچهر :

" حقيقة تشاجرنا أنا ورفيقى فى المقهى ، كنت أقول ... "

واتجه نحو الفتاة السمراء وواصل الحديث :

" إنك تضحكين بشكل آخر ، على عكس صديقى الذى يعتقد أن زميلتك كانت تضحك بشكل أجمل ، كان يقول إنه مستعد أن يضحى بعام من عمره ويشاهد ضحكة صديقتك عن قرب . أليس كذلك يا كمال ؟ "

فنظرت الفتاة السمينة إلى كمال نظرة ممزوجة بالود ، ثم نظرت إلى صديقتها وضحكتا والتفت منوچهر إلى كمال قائلا :

" كسبت يا رفيقى ، كسبت سنة من العمر ، وبدلا منها ينبغى أن تدعونا على السينما نحن الأربعة ، تمام إنها تعرض فيلما جميلا . "

قالت الفتاة السمراء وهى مندهشة :

" نأتى معكما إلى السينما ؟ "

ضحكت الفتاة السمينة وقالت :

" ياله من وقح عجيب ؟ !"

أسرعت الفتاة السمراء خطاها وقالت :

" هيا لنمضى ، فالوقت متأخر جدا . "

قالت الفتاة السمينة :

" لنمضى . "

فاتجهت ناحية محطة الأتوبيس ، وتوقف كمال وجذب يد منوچهر قائلا بصوت مخنوق :

" هيا . "

رد منوچهر بصوت عال :

" لماذا هذه العجلة ؟ !نوصل الفتاتين أولا إلى الأتوبيس . "

فنظرت الفتاتان معا ، وانفجرتا ثانية فى الضحك حيث كان منوچهر يسير كظلهما ، بينما كمال وراءهم خجلا مرتبكا ، فقال منوچهر :

" أنرى بعضنا غدا ، حسنا ؟ "

لم تقل الفتاتان شيئا ، فرفع منوچهر رأسه وكرر كلامه ، فردت الفتاة السمراء برأسها :

" لا . "

" ولكن كيف الحال بعد غد ؟ "

قالت الفتاة السمراء ثانية :

" لا . "

قال منوچهر :

" حسنا جدا ، وبعد بعد غد ، حسنا ؟ "

قالت الفتاة السمراء ثانية :

" لا ، لا . "

قال منوچهر :

" حسنا جدا ، غدا ممكن ؟ "

نظرت الفتاتان معا وضحكتا ، فقال منوچهر :

" أقسم بالله إنه ظلم ، لقد تعارفنا الآن ، فلا تقسوا علينا إلى هذا الحد ، انظرا إلى ما أصاب صاحبى من حزن . "

استدارت الفتاتان ونظرتا إلى كمال .

قال منوچهر :

" تعال يا حبيبى ، تعال . لا تخجل ، لن تكسر الآنستان قلبك ، لا تكتم فى نفسك يا حبيبى."

ضحكت الفتاتان ، واحمر كمال خجلا وأراد أن يعود ، فسأله منوچهر :

" لأرى يا رفيقى ، ألم تبحث ثانية عن تلك المناديل فى المقهى ؟ "

فارتفع صوت الفتاتين ضحكا ، فانتحى كمال جانبا وأسقط فى يده بينما رفع منوچهر رأسه وهمس فى أذن الفتاة السمينة قائلا :

" غدا ، حسنا ؟ "

قالت الفتاة السمينة :

" غدا عندى شغل . "

قال منوچهر :

" إذن لا يضر ، بعد عصر الغد فى نفس المقهى ، حسنا ؟ "

نظرت الفتاتان لبعضهما ولم يقولا شيئا وكانت عيونهما تضحك ، وعندما وصل الأتوبيس قال منوچهر :

" وداعا يا جميلات ، بعد غد فى نفس ذلك المكان . "

ركبت الفتاتان الأتوبيس ، وجلستا بجانب بعض على كرسى فى الأمام وأشار منوچهر برأسه :

" هل تأتيان ؟ "

هزت الفتاة السمينة رأسها من وراء زجاج الأتوبيس موافقة ، وعندما سار الأتوبيس أخرج منديله القذر ولوح به لهما ، فامتلأ وجه الفتاتين بالضحك .

*　　*　　*

كان كمال قد جلس بجانب فرشته ، وهى تحل معادلة ، وكلما كانت تواجه مشكلة كانت تطلب الحل من كمال . كان كمال صامتا يحاول جاهدا ألا ينظر إلى فرشته . كانت فرشته ترتدى فستانا مشجرا قصير الكم حسن الحياكة . وكانت بشرة ساعديها العاريين الناعمين ذات شفافية ولطف حلو وجذاب ، وكان كمال يستطيع بصعوبة أن يرفع عنها عينيه . كانت فرشته جميلة فى ناظريه أجمل من أى فتاة كان يعرفها . وعندما كان يقع نظره على وجهها الصافى بلا زينة كان قلبه يدق بسرعة ويملأ قلبه إحساس حلو .

كانت فرشته ترفع عينيها اللامعتين العسليتين بين الحين والحين ، تنظر إليه نظرة حب وتبتسم بود ، فيحمر ويغض نظره عنها ، ولكى يخفى ارتباكه كان يظهر أن شيئا ما جذب اهتمامه .

" ياله من ورد أحمر جميل لكنه ليس به عطر النسرين ، فالنسرين شىء آخر . "

ثم تنقل بصره من الورود الحمراء إلى ذرات الغبار والتراب التى كانت تتحرك نتيجة للنسيم إلى الشمس الدافئة والتى كانت تشتعل كاللهيب فوق رأسيهما وقطع السحاب المتناثرة وكأنه فقد شيئا ، كانت نظرته عندما تطوف بكل مكان تجد فرشته وينجذب لمشاهدتها لكنه كان يعود إلى وعيه ثانية ويرفع بصره عن وجهها خجلا . كان حزن غامض يعتصر قلبه ويغرق فى فكره .

أحيانا كان يحس بأن حياته مفعمة بالسعادة والسرور ، وحينا كان يحزن لدرجة أن يتمنى الموت . فأغلب الوقت الذى كان يقضيه مع فرشته كان يشعره بالسعادة والسرور ، لكنه عندما كان يخرج من منزلهم كان يتضايق ، ويفكر أنه يمنِّى نفسه بخيالات لا أساس لها وأنه ينتظر المستقبل بحمق .

كل يوم كان يخدع نفسه بشىء ، فابتسامة من فرشته وكلمة ممزوجة بالمحبة كانتا تملآن قلبه بأخيلة حلوة فتمنح حياته لطفا ومعنى ، أخيلة حلوة جذابة كأنه أدمنها ، وفى حماها يفر من حياته الرتيبة ، ومع هذا لم يكن يستطيع أن يترك نفسه دائما داخل فراشها الوثير اللطيف ويسير فى تيارها المثير للقلب وينسى كل شىء . كانت تحدث لحظات يجتاحه يأس ممزوج بالحزن ويقول لنفسه :

" لماذا لا تريد أن تفهم ؟ إنك ترضى قلبك بلا طائل ولا تفتأ تخدع نفسك ، إنك لن تكون مثلهم أبدا ، أبدا . "

كان يذهب إلى منزلهم أغلب الأيام للمذاكرة ، كانت امتحانات آخر العام على الأبواب والمدارس مغلقة فيجلس مع منوچهر ليذاكر وتتلقى فرشته العون منه فى دروسها أيضا . ففى بعض الأيام كانا يملان من المذاكرة فيجلسان معا بجانب الحمام ويتحدثان .

أحيانا كانت أم منوچهر تنضم إليهم ونادرا جدا ما كان أبوه يفعل ، فكان والد منوچهر رئيسا لجمارك الجنوب يقضى أغلب وقته فى الجنوب . لقد رآه كمال مرتين أو ثلاثة ، كان رجلا فى سن السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين ، أنيق الملبس ، صاحب أصول فى المعاملة ، وأدت رئاسته وممارسته الوظيفية لسنوات طوال أن يصير كلامه موزونا وبحساب ، وسلوكه مصحوبا بكبرياء ، ينظر إلى الجميع من تحت عينيه ، كان محمود يسميه " تمثال البورجوازية " عندما كان يطل برأسه يقول ساخرا :

" جاء تمثال البورجوازية . "

كان كمال ينظر إلى هندام والد منوچهر النظيف تماما وجسده السمين قليلا ويسأل نفسه :

" بورجوازى ؟ ماذا تعنى كلمة بورجوازى ؟ "

كانت لهجة كلام محمود وكأنه يتحدث عن حيوان .

كان كمال يبحث فى عقله ويدور ليفسر كلمة بورجوازى ، كان يستغرق فيها وهو نائم ، كان يرى والد منوچهر بجبهته البارزة وعينيه الضيقتين وجسده الممتلىء كأنه خرتيت يحرك ذيله ويرفع رأسه ويخفضها ويسأله عن أحواله :

" كيف حال صاحب السعادة ؟ "

فكان كمال يجمع نفسه وينظر إليه بخوف ويتلعثم لسانه :

" الـ ... الـ ... الحمد لله ... "

أحيانا كان يأتي شخص أواثنان من أقارب منوچهر ، فيجلس الفتى والفتاة معا والمرأة والرجل معا للتسلية والترويح ، أوكان الكبار يجتمعون معا يلعبون القمار ، بينما الأولاد والبنات يضعون أسطوانة ويرقصون .

وأحيانا كانوا ينهمرون جميعا داخل سيارتين أو ثلاثة ، ويذهبون إلى أحد المقاهى أو إلى أماكن الترويح ، وأحيانا كانوا يصرون على اصطحاب كمال معهم .

كان كمال معذبا بينهم ، يدهشه ويحيره سلوك الفتية والفتيات المتحرر ، كما كان يعانى بدهشة من رغباتهم وميولهم وتسليتهم وعشقهم ومجونهم وحيلهم . كانت أكثر أحاديثهم تدور حول الطلاق والانتحار والأمراض النفسية . لم يكن كمال يفهم شيئا منها ، كانت تعطى صورة عن مجتمع مجهول ليس قابلا للفهم بالنسبة له .

كان الجو الجديد قد أذهله تماما ، ومع كل الجهد الذى قام به لم يكن يستطيع أن يفتح لنفسه طريقا إليهم وأن يقلدهم . أحيانا كان يشعر أنه يفتقد أشياء كثيرة من الحياة ، ولا يعرف أشياء كثيرة عن الحياة ، وأن الحياة من حوله كانت ذات ثورة وغليان آخرين ، وحتى ذلك الحين كانت عادات الأسرة وتقاليدها تجعله يهرب من كل شىء جديد ،

وتبعث فيه نفورا حيا من أى نوع من التغيير والتطور الذى كان يحدث فى داخله ، كان والده لا يفتأ أن يتحدث كل يوم عن الكفر والزندقة ، ويجتمعون فى منزل إمام الحى مرتين فى الأسبوع ، ويرسلون العرائض الطوال والشكاوى من الحكومة إلى أئمة رجال الدين فى كربلاء وإلى قم والنجف ، ويتحدثون عن الكفر والزندقة اللذين كانا يجتاحان كل مكان يوما بعد يوم ، كانوا يشكون كثيرا وينتقدون ، لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة ، وكل يوم كان يزداد تعداد الشباب الذين يطيلون شعورهم والفتيات والنساء اللائى كوين شعورهن وتزين ، وكانت دور السينما الجديدة تقام فى أنحاء المدينة والحياة تتشكل بشكل آخر . فالحياة السابقة لم تجذب كمال إليها بشكل كبير ، وكان يشعر أن حياته فى حاجة إلى التغير والتطور ، وكان يرغب أن يغير نفسه دفعة واحدة ، وأن يقضى على كل ما ينقصه ، فكان يسعى ويجاهد فى أن يتعلم مالا يعلم ، ويمضى نحو أشياء كان يتجنبها فى الماضى بنفور ، وكان يشغف بتفحص كل شىء كان يراه فى الماضى ممزوجا بالكفر . يراه أكثر ويتذوقه أكثر ويلمسه ويقيم حياته على أساس إدراك وشوق جديدين ، ويقرأ الكتاب سريعا سريعا ، ويهتم بشكله ويلبس قميصا أبيض بياقة منشاة ويعقد رباط العنق ويحلق لحيته كل يوم صباحا بدقة ويذهب إلى الحلاق مرة كل أسبوعين . لكنه مع كل هذا كان يرى نفسه منفصلا عنهم ، وأنه غريب عنهم أيضا فيقول لنفسه غاضبا :

" لا ... لن أستطيع أن أكون مثلهم ... فمهما أغير من نفسى لن أستطيع أيضا . "

كان يرى نفسه أنه تغير وأصبح إنسانا جديدا لكنه لا يشبه منوچهر ولا يشبه أبناء عمه أيضا ، ولم يكن عنده اهتمام بهذه الأشياء من قبل ، ولم يكن يدرى أية أشياء تميز بين الناس وبعضهم وتجعلهم غرباء عن بعضهم ، وتجعل أحدهم فى هذه الناحية من الخط والآخر فى الناحية الأخرى . قبل الآن كان قد وقف على هذا الجانب من الخط فى قالب أبيه . وكان يرى أناس ذلك الجانب فيدير وجهه عنهم ويلعنهم ويسبهم :

" عديموا الدين الذين لا يعرفون الله ... الكفرة . "

كان أبوه يقول دائما :

" لا آخرة لهم ... كلهم مريدون للشيطان ، إنهم حطب جهنم . "

" المهتم بالدنيا ، مريد للشيطان ، حطب جهنم " إنها المصطلحات التى كان قد سمعها مرارا وتكرارا من فم أبيه وعمه الحاج ومنشدى الروضة .

وكان محمود يقول :

" يالها من أفكار مهترئة بالية ... يحيا الإنسان ويتلذذ بحياته ، فيقول له ذلك : أنت حى لكن لا تحيا ... لا تحيا ... خف نار جهنم وحية الغاشية ... خف من يوم العرصات . وأنا لا أفهم لماذا نخاف ونعانى بلا داع ترويض البدن ونصرف أنظارنا عن ألوان السعادة واللذائذ ؟ لماذا لا

نحيا كما تريد قلوبنا ؟ كمال ! أنا أستاء من علوم الأخلاق . للإنسان مخ وله فهم ، ويستطيع أن يقوم بالعمل الذى فيه صلاحه ثم يأتى هؤلاء ويرسمون خطا حول الإنسان ، ويحددون له ما عليه أن يقوم به ، عمل ممجوج ، وهو فى الحقيقة مكر واحتيال . الإنسان الذى يعرف نفسه ويعلم ماذا يريد ، لا يعجز ولا يسلك طريقا خاطئا ولا يحتاج فى أى وقت إلى درس فى الأخلاق . فزمني ليس زمن أبى ، وأنا لا أستطيع أن أعيش نفس الحياة التى كان يعيشها أبى ... إن أيامى تختلف عن أيام أولئك الذين كانوا يصححون علوم الأخلاق للناس ، فزماننا يختلف عن زمانهم ، كل عصر يتطلب نوعا من الحياة ، فالحياة معرفة متجددة ولا يصح أن نسمعها من أفواه الموتى ونبحث عنها داخل الكتب القديمة ... "

ذهب كمال بالأمس إلى نفس المقهى وقابل محموداً ، وجلسا يتحدثان ، فوقع كلام محمود موقع القبول فى قلبه . حقا هو نفس الكلام الذى لو وجد ذات يوم قدرة بيان محمود واستدلاله لنقله إلى شخص آخر ، ونفس تلك الأشياء التى كان يفكر فيها عندما يكون وحيدا .

وقطع صوت ضحكة فرشته حبل أفكاره وسألته ضاحكة :

" أين كنت يا كمال ؟ ... ناديتك عدة مرات ، وكنت مستغرقا فى التفكير ."

فأجاب كمال وهو خجل مرتبك :

" لا ، أى تفكير ؟ "

" إنك عندما تغوص هكذا فى التفكير فينبغى أن يطلق مدفع فى أذنيك حتى تعود إلى وعيك ، فما الخبر سيدى المفكر ؟ "

ظهر منوچهر بصخبه :

" خذوا أجازة بقى ، يا بنى ألم تتعب ؟ "

طوت فرشته صفحات كتابها وكراستها بصوت ، وقفزت من مكانها وأدت سلاما عسكريا بيدها قائلة :

" تمام يا جناب النقيب إلى ما بعد . "

قال كمال :

" لديها امتحان فى الغد . "

فقال منوچهر :

" يكفيها . "

رفعت فرشته يدها ثانية وأدت التحية :

" أمر أركان الحرب مطاع . "

عبس منوچهر :

" كفى استهزاء يا بنت ... اذهبى وانظرى فى أى شىء تريدك ماما ؟ "

حملت فرشته كتبها وبرقت عيناها بشكل لعوب ورفعت يدها ثانية :

" الطاعة لأركان ... "

ضربها منوچهر على مؤخرة رأسها :

" يلاً يا سخيفة يلاً . "

ذهبت فرشته تجرى وحطمت ضحكتها السعيدة للحظة صمت الفناء ، وصمتت خلف الأشجار.

قال منوچهر :

" تخلصت منها ، قم لنذهب . "

نظر إليه كمال :

" إلى أين ؟ "

" حسب اتفاقنا . "

" اتفاقنا ؟ "

" أجل ، مع الفتاتين ، هل نسيت ؟ "

أغلق كمال كتابه وغاص فى تفكيره ، وبعد لحظة قال بصوت كظيم :

" أنا لن آتى . "

" لماذا ؟ "

" فى النهاية ... "

" فى النهاية ماذا ؟ "

" ليس مقبولا . "

قال منوچهر بعصبية :

" بالله عليك ، لا أريد أن تبدأ موعظتك من جديد ، أصدقك القول هذه " الأمور التى لاتصح وليست حسنة الموجهة منك تجعلنى محبطا تماما ، لماذا ليس حسنا ؟ محتم فيه معصية ولا يرضى الله ؟ ! يغضب منها الإمام الحسين ؟ الإمام زين العابدين المريض لم يقم بهذه الأفعال ، الإمام سوف يأتى فى النهاية ليقابل المرء ، إنك ابن واعظ فى النهاية ! "

رفع كمال رأسه ونظر إلى منوچهر غاضبا وفكر :

" هذا هو منوچهر فى النهاية ، منوچهر الطيب ، منوچهر الصاخب

أينما يذهب يكون هو شمع المجلس ، أينما يذهب يكون له مكانه ، عزيز و محترم ... هذا هو منوچهر فى النهاية . وعن نفسك أنت تعلم نفسك ، فأى دخل له بك ؟ أنت لست فى الحسبان . "

نهض منوچهر من الكرسى وقال :

" أعتذر ، لا ينبغى أن أتحدث هكذا ، نكدتّ علىَّ ، أنت صديق طيب على معرفة . لكننى لا أفهم ماذا بك آخرا ؟ لماذا تعتزل وتتنحى جانبا دائما ؟ أقول نذهب إلى السينما تقول لا ، أقول تعال لنذهب مع الأولاد للنزهة فتقول لا ، أى صنف أنت من البشر فى النهاية ؟ وأى شىء يعجبك ؟ "

نظر إلى كمال ، منذ أن عرفه كانت عنده انطباعات مختلفة عنه لا يستطيع أن يوفق بينها . كان يبدو له فى الغالب محزونا قلقا ، ولم يكن يفهم سببا لقلقه ، كان يرى أنه يشرد بنظره ويغوص فى فكره كأن فكرة تشغله بها ، وكأنه يخجل دائما من شىء ما ، وكأن شيئا ما يؤذيه دائما .

كان يراه بجانب الحمام واقفا تحت أشعة الشمس ممعنا النظر فى الأسماك وشعر فجأة ولأول مرة بأن كمال وحيد ، فأسرع نحوه بلا إرادة ووضع يده على كتفه بود قائلا :

" انظر يا كمال ، لا استطيع الذهاب وحدى ، لكنى أحب أن تكون معى ، فلا ضير من صداقة البنات ومحبتهن ، ومن ثم فمن أجل ماذا تكون البنات ؟ من أجل الأولاد . "

" ما فائدة هذا ؟ "

ضحك منوچهر :

" ما فائدته ؟ تعال وانظر إلى فائدته . "

قال كمال :

" أقول جادا على فرض أننا تتبعناهما وصادقناهما ، أريد أن أعرف ما فائدة ذلك ؟ "

" يا بنى إنك تأخذ الموضوع بجدية أكثر ، فأقل من فائدته أنك تقضى وقتا سعيدا وتتروح معهن . لو أنك ذقت طعم فتاة لما تحدثت بهذه الطريقة ... يا بنى يجب أن تعرف بنات . "

" كيف تلزم معرفتهن ، وأنت الذى عرفت . ماذا فهمت . قل لى . "

رفع منوچهر ضحكته :

" شيء لا أستطيع أن أقوله لك يا بنى ، فلو كان بهذه الطريقة كانت الأمور سهلة جدا . يجب عليك أن تجلس معهن وتتحدث حتى ترى كيف حالهن ، إنك حينما ترى فتاة لا تعرف لك يدا من قدم . "

" الخلاصة أنا لا أعرف ماذا يجب أن أقول لهن ؟ لا كلام لدى أقوله لهن . "

" يا عزيزى لا يجب التحدث معهن ، لابد من أن تقول كلاما لا معنى له ، لابد من إضحاكهن بطريقة ما وإشغالهن . "

" أنا لا أعرف كيف أسليهن . "

" حسنا جدا يا بنى ، هيا لنذهب وأعلمك ... بشرط أن تفعل كل ما أقوله لك . "

" من أين تعلم أنهما ستأتيان المقهى أصلا ، لم تقولا إنهما آتيتان . "

كركر منوچهر فى الضحك وقال :

" يا بنى إنك ساذج جدا ، ظننت أننا نريد الذهاب إلى المقهى ونجلس فى انتظارهما ونتنهد وننظر إلى الباب هل ستأتيان أم لا ؟ لا ، لا تأتيان أبدا ، سوف نذهب عند مدرستهما . "

اندهش كمال بشدة :

" عند مدرستهما هل يصح ؟ "

" ولم لا يصح ؟ "

" أنت لا تعلم أين توجد مدرستهما ؟ "

ضحك منوچهر :

" إننى أعلم الغيب ، وأنظر فى المرآة . "

" حذار ، لابد أنك بحيلة ما قد وجدت عنوانهما . "

" أى دليل أفضل من لون ملابسهما ، هناك مدرسة واحدة بعينها فى هذه المدينة تلبس زيا بهذا اللون ، فانهض إذن ، سيتأخر بنا الوقت ، ويجب أن نكون هناك عند خروجهما من المدرسة .

وإتجها معا نحو باب الحارة وكان كمال مستسلما . لم يكن يجد سببا يمنعه من السير خلف منوچهر . كان متطلعا فى أن يفهم ماذا يفعل بالضبط ، وكان يقص له حكايات مختلفة عن البنات تشوقه وتجعله متحسرا مندهشا . لم يكن يستطيع تصديقها ، وكان يظن أنّ منوچهر يختلق كل شىء من نفسه وحتما كان ينخع .

كانت فرشته تقف بجوار شجرة فى طريقهما وابتسامة مليئة بالمعانى على شفتيها ، وعندما مرا من أمامها ضحكت وقالت :

" تتمتعان . "

قال منوچهر :

" هل ظهرت ثانية ؟ "

ضحكت فرشته برقة ولم تقل شيئا ، فعندما وصلا بجوار باب الممر استدار كمال فرأى فرشته لم تبرح مكانها بل تنظر إليهما بعينيها البراقتين الجريئتين وابتسمت له ابتسامة مليئة بالمعانى ، فاستدار كمال وقال بصوت عال :

" إن شاء الله توفقين فى الامتحان غدا . "

وما إن تفتحت ابتسامة فرشته المليئة بالمعانى فوق وجهها ، واتخذ وجهها حالة جعلت كمال يفهم شيئا فجأة ويسأل نفسه : " هل سمعت كلامنا ؟ "

هكذا كانا يتحدثان بصوت عال بحيث كان يحس بالخجل من تذكره ، فأجابته فرشته :

" إن شاء الله توفق اليوم أنت ! "

وتحركت من مكانها وأعطته ظهرها وغاصت وسط الأشجار فاعتصر قلب كمال ، وأحس بالقذارة وإحساس المبتلى داخل الزقاق ، فتوقف وقال بغيظ :

" اذهب أنت ، أنا لن أجىء . "

توقف منوچهر ونظر إليه مندهشا وقال غاضبا :

" ماذا دهاك ثانية ، ولماذا غيرت رأيك مرة واحدة ؟ "

فنظر إليه كمال بفتور وقال ثانية وبلهجة حادة :

" أنا لن آتى . "

" لماذا ؟ "

" لا يسعدنى ذلك . "

" ولم الآن . "

" لا يعجبنى فحسب . "

قلب منوچهر وجهه وقال بغضب :

" حسنا جدا ، أنا ذاهب ، إنهما سينتحران من أجلك ، ولازلت كما أنت ابن الشيخ . "

وأخذ طريقه دون أن ينظر خلفه ، وخرج من الزقاق . بينما ظل كمال وسطه عاجزا حزينا جدا ... يمعن النظر بعينيه إلى المنزل . لقد نسى منوچهر وأخذ قلبه يدق بسرعة وتملكته حالة غريبة باعثة على الضيق ، فصمم أن يذهب صوب المنزل بضع خطوات لكنه توقف يائسا عاجزا ، ونظر إلى باب المنزل الذى كان مغلقا ، وسيطرت على قلبه موجة من الغضب وكور يده وضغط القبضة حتى أحس بالألم . وفجأة خطر له خاطر فلمعت عيناه ، فتوجه صوب باب المنزل سعيدا وضغط على زر الجرس وفتحت فرشته الباب ، وعندما رأته لم تستطع أن تخفى دهشتها وكأنها لم تكن تتوقع أن تراه أصلا ، قال كمال متلعثما خجلا :

" عفوا ، لقد جئت لآخذ كتابى . "

انتحت فرشته جانبا ودلته على الطريق وأدارت نظرها فى الممر وسألته :

" ألم تذهب مع منوچهر ؟ "

قال كمال :

" لا . "

" لماذا ؟ "

احمر كمال ولم يستطع الجواب ، فدخل المنزل بحياء وقال :

" لن أضايقكم ، سآخذ كتابى وأمضى بسرعة . "

سلك طريقه بخطى سريعة ، فسمع صوت فرشته من ورائه قائلة :

" من يتركك تذهب ؟ لقد نفد صبرى من الوحدة . "

توجها معا صوب حوض الماء وكانت الشمس بدفئها وشعاعها منعكسة عليه ، والأسماك الحمراء ساكنة تحت أشعة الشمس كأنها باقات ورد مرتسمة على سطح الماء .

فقالت فرشته :

" ألا تجلس ؟ "

تحرك كمال وصرف نظره عن الأسماك ، ورفع رأسه فوقعت عينه على عين فرشته وبسرعة غض بصره عنها قائلا :

" أتريدين أن نذاكر الجبر معا مرة ثانية ؟ "

فابتسمت فرشته وقالت :

" لم أقل ابق من أجل المذاكرة . "

وركزت عينيها فى وجهه وسألته :

" لم تقل لماذا لم تذهب مع منوچهر ؟ "

" لقد نسيت كتابى فى مكان ما . "

فضحكت فرشته :

" يعنى بدون الكتاب لا تستطيع الذهاب إلى البنات . "

فاحمر كمال وقال بانفعال :

" لم أرغب فى الذهاب ... "

" لقد أخبرنى منوچهر بحكاية المنديل ، إنه ماكر ومحتال جدا . "

ثم ضحكت ضحكات متقطعة وسألته :

" أكان ينبغى أن تكونا قد ذهبتما إليهما اليوم ؟ "

هز كمال رأسه ، وركزت عينيها فى وجهه ثانية وقالت :

" وأنت لم تذهب . "

واقتربت منه أكثر وقالت بلا مقدمة وبسرعة :

" كمال ، أنت شاب طيب جدا ، ليت لى أخا مثلك ، فإن ماما تقول حقا إنك ولد مستقيم وجاد تماما . "

وتقدمت أكثر وقالت له :

" تعال ، أريد أن أريك شيئا . "

فأمسكت يده وجرت ثم مرا من بين الأشجار ، وذهبا إلى مخزن فى آخر الحديقة ثم قالت بسعادة :

" أنظر ، لقد وضعت ملوس . "

واستغرق الأمر وقتا حتى تعودت عينا كمال على ظلمة المخزن ، ففى ركن وعلى حشية قديمة كانت ترقد قطة صفراء تنظر إليهما بعينين لامعتين ، ويتحرك من تحت جسدها ثلاث قطط صغار أو أربع تموء . ثم أخبرته فرشته :

" لا تدرى كيف حدث ؟ الملعونة ليلة الأمس لم تترك أحدا قط ينام ، كانت تموء مواءا متصلا وتدور حول الحجرة وقد تملكتها حالة عجيبة ، مسعورة تماما فكانت تخمش الجميع بمخالبها ، ولم تكن تسمح أن يقترب منها أحد وقد أزعجت الجميع ، كنا نضع الأكل أمامها فلا تأكل ، ونضع الماء أمامها فلا تشرب ، وكانت تموء مواءا متصلا وتتمرغ على الأرض باستمرار ، ثم وثبت إلى الخارج دفعة واحدة وسارت فى الحديقة ، وظل مواؤها فترة ثم انقطع صوتها ولم يتخيل أحد أنها تريد أن تلد ، آنذاك كانت قد ذهبت سكينة فى الصباح لأمر ما فى المخزن ، أسرعت قادمة وقالت : سيدتى ، سيدتى ، تعالى وانظرى لقد ولدت الست ملوس أربعة قطط . "

اقترب كمال عدة خطوات فتملكت رعدة ظهر القطة ووقف شعرها ، وزامت ببطء وأبدت أسنانها وقالت فرشته :

" منذ الصباح وحتى هذه اللحظة لم تترك أحدا يقترب منهم ، ترى كيف أنها ولدت أطفالا فى غاية الرقة ؟ "

ثم ضحكت بسعادة وقالت :

" حتى الآن لم يمر وقت وقد تقدم لهم أربعة خطاب أو خمس ، لكن كيف تزوج فتياتها بهذه السرعة ؟! عندما يكبرون قليلا سوف أقدم لك واحدة ، تلك الجميلة جدا ، حسنا ؟ "

* * *

وفتحت فرشته باب المنزل لكمال ومدت يدها وأمسكت بيده وقالت بصوتها المرح :

" كمال ، كان امتحانى طيبا وممتازا . "

فقال كمال وهو سعيد :

" رأيت ، قلت سيكون سهلا ، كنت قلقة بلا داع . "

ضغطت فرشته على يده وغمزت بعينها :

" لولا تعبك لما كان سهلا . "

فاحمر كمال ودخلا معا ، فسألها :

" أليس منوچهر هنا ؟ "

" لا ، تناول غداءه ثم خرج سريعا ، لماذا لم تأت فى الصباح ؟ "

" لم أستطع المجئ ، كان عندى شغل . "

فقالت فرشته :

" انتظر دقيقة حتى أذهب لأغير ملابسى ، أريد الخروج لشراء شئ ، أليس عندك عمل ؟ تأتى معى ، هه ؟ "

هز كمال رأسه موافقا ، فذهبت فرشته .

كان يوما مشمسا جميلا ، والسماء صافية شفافة ، متلألئة كالبللور ، وسار فى الحديقة التى خيم عليها السكون ، وظلال الأشجار انبسطت عريضة سوداء فوق الأرض ، وقد بسطت الشمس مظلة من النور فوق الحديقة . رأى كمال أم فرشته قادمة من آخر الحديقة ، وعندما رأته وقفت وابتسمت ثم قالت :

" آه ، سيد كمال ، أنت هنا ، هل أخبرتك فرشته بأن الامتحان كان سهلا ؟ فهى منذ الظهر وحتى الآن لا تقعد من السعادة ، فهى مدينة لك بالكثير ، لقد تعبت من أجلها جدا . "

قال كمال بحياء :

" أى تعب يا سيدتى ، إنها ذاكرت بنفسها ونجحت . "

" لا ، لا تقل هذا الكلام ، إن ما تقوله دائما هو من لطفك . "

" شكرا . "

ابتسمت له أم فرشته بحب وقالت :

" إنك لم تشرف فى الصباح ، وكان منوچهر يبحث عنك ويقول إنه ضايقك بالأمس ، وظن أنك غضبت منه ولن تأتى ثانية لتذاكر معه . قلت له أن السيد كمال ليس من الرفاق الذين يتركون رفاقهم فى منتصف الطريق . "

قال كمال بخجل :

" لم أستطع المجيء لأن أبى أرسلنى لعمل فكنت مشغولا حتى الظهر . "

" كنت أعتقد أنك مشغول أيضا ، فقد قلت لمنوچهر أين يمكن أن يجد رفيقا أفضل منك ، ومن يكون مستعدا مثل السيد كمال ليترك عمله فى الصباح والعصر ويضيع وقته من أجلك ، ولا ينتظر منك شيئا . تشاجرت مع منوچهر من أجل هذا وقلت : إنك لو كنت معترفا بالجميل مثقال ذرة كنت سعيت على الأقل ألا تضايق منك السيد كمال وهو الذى تعب من أجلك كل هذا التعب وهو الذى ضيع وقته حتى يضع فى رؤوسكم شيئا وأبدى كل هذا الصبر والإخلاص ، ثم تقوم أنت بجعله يتضايق منك . "

كانت العبارات تدور فى رأس كمال " كل هذا الصبر والاخلاص ،أدنى انتظار ، لو كان معترفا بالجميل مثقال ذرة لترك وقته الثمين " كان مضطربا حائرا ، لا يدرى أى رد فعل يبديه من نفسه ، ولم يكن قد سبق أن تحدث معه أحد بمثل هذه اللهجة .

" ... قلت له : يالك من ولد جحود . ينبغى أن تمضى وتعتذر للسيد كمال . "

رد كمال مسرعا :

" عفوا يا سيدتى ... فى النهاية ... شىء ... لا شىء قد حدث ، مع ... لا شىء يستدعى الاعتذار ... نحن ... نحن ... "

" لا ، لا . حتما ولابد أن يعتذر لك ، فهو بدلا من أن يشكرك ، الولد عديم الإحساس يضايقك ، الولد المغرور كثير الإدعاء . "

اعترض كمال :

" فى النهاية نحن أصدقاء ، فى النهاية يا سيدتى ... "

" صحيح ، صحيح ، يحدث بين الأصدقاء دائما كثير من هذه الأشياء ، ولكن لك حق فى رقبته وأنت معلمه فى الحقيقة ، ولا ينبغى ان يفعل هذا ويضايقك ، فأنت الذى جعلته يفكر فى مذاكرته . الولد عديم التفكير ، لو كان يذاكر دروسه باستمرار لكان الآن فى الجامعة ، كسل ، تسيب ، لولا وجودك معه لرسب أيضا هذا العام . إنه أصلا لا يفكر فى مستقبله ، كل تفكيره فى التسكع والبنات ... "

ثم سكتت وغيرت الموضوع بسرعة :

" حقا ، إن ولدى ليس سيئا إلى هذا الحد ، فقط إنه ولد طائش فى الحقيقة غير متعلق بالدراسة ."

فقال كمال :

" إنه ولد طيب جدا جدا . "

" هذا من لطفك ، فأنت أيضا ولد طيب . "

" إنه صاحب طيب جدا ، وأحبه كأخى . "

هزت أم منوچهر رأسها وكأنها لم تفهم قصده وقالت بنوع من الدلال :

" إنه يحترمك أيضا ."

ثم أضافت إنه فى يوم ما سوف يرد له جمائله ويعوض تعبه ، وينبغى على كمال أن يعلم أن تعبه لن يذهب هدرا ، وأنه محل تقدير والد منوچهر .

كان كمال منصتا إلى كلام أم فرشته الذى لا يوحى بنهاية ، وكان قد بقى حائرا حتى تساءل ماذا تقصد بكلامها هذا ؟ ماذا تريد أن تقول أم منوچهر ؟ يعوض ماذا ؟ ظل عاجزا لا يدرى ماذا يفعل وكيف يجيب ؟

وجاءت فرشته وأنقذته من حاله المضطرب الذى يضايقه :

" ماما ، ما هذا الكلام الذى تقولينه ؟ إن كمال منا ، إنه لا ينتظر منا شيئا ، أنا لا أدرى أصلا ما الحاجة لهذا الكلام ؟ إن كل ما يفعله كمال لنا من قبيل الصداقة والمحبة ، إنه يحبنا فحسب ، لا من أجل شىء . "

ركز كمال عينيه السعيدتين على فرشته ومر بخاطره أن يقول :

" كم أنت طيبة ! "

ثم خرج مع فرشته من المنزل .

قالت فرشته :

" كانت ماما تظن أنك غاضب من منوچهر ، فى النهاية عندما لم تأت فى الصباح لم يفتح منوچهر كتابا ، أخذ يتسكع ، وفى الظهر تناول غداءه بسرعة وخرج . ولم يكن معلوما إلى أين يريد الذهاب بحيث كان متعجلا هكذا ، صارت ماما قلقة وأخذت تقول إن منوچهر سيرجع إلى عادته القديمة ، فقلت لها لابد أن شيئا ما حدث لكمال وإلا كان سيأتى

حتما . حقا هي ممنونة لك كثيرا ، فكانت تقول إنك قد صرتَ سببا بأن يذاكر منوج دروسه . عندما أحضرت أمي له معلما في المنزل وأجبرته أن يذاكر أمامه ، عاند ولم يذاكر عمدا فرسب ، ومن هنا لم تستطع أن تجعل منوج يذاكر بأى طريقة اللهم إلا بهمتك . عندما جعلت منوج يذاكر صارت سعيدة إلى مالا نهاية وأخذت تمدحك كثيرا أمام والدى ، أنت تدرى في النهاية يا كمال أن أمي قلقة دائما على منوچهر إنه متقلب المزاج هوائى ، تصرفاته تصرفات أطفال ، ففى يوم يقول إنه يريد أن يكون ضابطا بالجيش ويجب عليه أن يحصل على الشهادة الثانوية بأية طريقة ويذهب إلى الكلية العسكرية لكنه سرعان ما يتغير رأيه في اليوم التالي ويقول بأى شيء تفيد هذه الدروس الإنسان. وحتى الآن أراد عدة مرات أن يترك الدراسة والمدرسة وأن يدفع بابا وماما إلى إرساله إلى أمريكا ، وقد وعدته ماما إنه لو حصل على الشهادة الثانوية سوف يرسلونه إلى أمريكا ، كل خوفها أن يطلع في رأسه فجأة ويترك المدرسة ".

وعندما نزلا من التاكسى ، سألها كمال :

" ماذا تريدين أن تشترى ؟ "

ضحكت فرشته :

" هدية ... من أجل ولد طيب "

بهت كمال وقال :

" لولد طيب ؟ "

" نعم ، ولم لا ؟ ... إذن أينبغى على الشبان أن يشتروا دائما الهدايا للسيدات ؟ "

" هل أعرف أنا هذا الولد الطيب ؟ "

" بلا جدال . "

" ما اسمه ؟ "

" لن أقول لك . "

فسألها كمال بضيق :

" لماذا ؟ "

" لا أريد ، ولا يجب علىّ أن أقول كل شىء لك . "

وضحكت ، فعبس كمال ولم يسأل سؤالا آخر ، لقد اعتصر قلبه الحزن والفكر ، فهل من الممكن أن يكون هو : " هذا الولد الطيب " ؟ . فهناك كثير من الأولاد من أهل فرشته وأقاربها يترددون على منزلهم حتى أن كمالا كان قد تعرف على بعضهم ، ومرت أشكالهم تباعا أمام عينيه وأراد أن يخمن أيهم تهتم به فرشته أكثر ، لكنه لم يستطع وفجأة أحس أنه يكرههم جميعا ثم سأل نفسه :

" حسنا ، لماذا أخذتنى أصطحبها ؟ "

وكأنها كانت تقرأ أفكاره :

" اصطحبتك معى حتى تساعدنى ، فأنت ولد تعرف ما الذى يعجب الأولاد أكثر ، أريد أن أختار شيئا على ذوقك . "

فقال كمال بكدر :

" لا نوق عندى قط ، أصلا لا أدرى ماذا ينبغى أن نشترى ، لقد اصطحبتينى بلا داع . "

ضحكت فرشته :

" حسنا جدا ، إذن لا تزمجر هكذا ، الاختيار لى ، أنت فقط اللون والتصميم . "

" مذا تريدين أن تشترى ؟ "

" رباط عنق ، هل هذا جميل ؟ "

نظر كمال إلى رباط عنقه المليء بالزخارف والخطوط وقال مصدقا :

" حسنا جدا . "

غاص داخل نفسه وسكت ثم دخلا محلا معا ، وأحضر البائع أربطة العنق المتنوعة بألوانها المختلفة التى كانت تبدو أمام نظر كمال جميلة جدا ، لكن فرشته ردتها كلها وقالت :

" ليست جميلة ، ألديك أفضل منها ؟ يمكن شراؤها من ناصية كل شارع ، أليس عندك سولكا ؟ "

فرد البائع :

" لا شك ، عندى يا سيدتى . "

ذهب وأخرج صندوقا من تحت الصناديق الأخرى :

" هذه سولكا درجة أولى ، ولو طفت المدينة كلها لما وجدت نظيرا لها ، من خمس دست باق دستتين . "

أخرجت فرشته أربطة العنق من الصندوق فلمعت برؤيتها عينا كمال ، لم يكن قد رأى أربطة عنق بهذا الجمال من قبل ، وألقى بنظرة مخجلة على رباط العنق الذى كان يرتديه والذى اشتراه من على ناصية الشارع ذات يوم ، كم كان يبدو له جميلا والآن ... وقف منحنيا حتى لا يراه البائع ، وتملكه شعور بالخجل ، وسألته فرشته :

" أيها يعجبك يا كمال ؟ "

قلب كمال أربطة العنق ، كان كل واحد أجمل وأفضل لونا من الآخر فقال بصدق :

" كلها جميلة ، جميلة جدا .

قالت فرشته :

" اختر الأجمل فى رأيك . "

قلب كمال أربطة العنق بيده وكان قلبه مكدرا ، وفجأة سقطت من نظره ، وأمام عينيه كانت جميلة وظريفة لكنه كان يكرهها كلها . وكان النظر إليها يؤلم قلبه ، وكان البائع ينظر إليه مبتسما ، وضعت فرشته يدها فوق أحدها وقالت :

" ما رأيك فى هذا ؟ "

تنفس كمال الصعداء وقال :

" إنه جميل جدا . "

وأضاف غير راغب :

" كنت أريد أيضا أن أختاره بعينيه ".

فحمل البائع رباط العنق وقال :

" مبروك ، ألفّ الهدية يا سيدتى ؟ "

أخذت فرشته رباط العنق من يده :

" فلتسمح لى أن أجربها على ياقة هذا السيد ؟ "

ابتسم البائع وقال :

" بكل سرور يا سيدتى ، تفضلى . "

فانتحى كمال جانبا وقال بصوت مخنوق :

" لا يا فرشته ، لا ، لا يسعدنى أن ... "

ولكن فرشته لم تعطه الفرصة بأن يكمل كلامه ، وأخذته من يده إلى المرآة ، وحلت رباط عنقه ولفت رباط العنق الجديد حول رقبته وعقدته .

فنظر كمال إلى نفسه فى المرآة وهو خجل مشتت الحواس ، وقال بلا إرادة :

" إنه أنيق جدا . "

فابتسمت فرشته :

" حقا ، هل أعجبك ؟ "

هز كمال رأسه موافقا ، ونظر ثانية فى المرآة وهو منفعل وخجل ، ثم رفع يديه ليفكه من على رقبته ، فكان رباط العنق يضغط على رقبته ويكاد أن يخنقه ، فقالت فرشته :

" لماذا تستعجل الآن ؟ اصبر قليلا . "

ثم دفعت ثمن رباط العنق ، وخرجا من المحل ، كان كمال متضايقا ، لقد تيبست رقبته شاعرا بضغط رباط العنق حول رقبته كل لحظة أكثر . طوت فرشته رباط عنق كمال ووضعته في جيبه ، ونظرت إلى رباط العنق الجديد وابتسمت :

" إنه يناسبك تماما يا كمال ، مبروك. "

نظر كمال إليها مندهشا وضحكت فرشته :

" لماذا تنظر لى بهذه الطريقة ؟ أردت شراء هدية لك فهل أذنبت ؟ "

توقف كمال :

" من أجل ... اشتريتيها من أجلى ؟ ذلك الولد ... إذن ... إذن ، لماذا لم تقولى من البداية؟"

" كنت أريدها مفاجأة لك . "

نظر إليها كمال وهو منفعل :

" ماذا تكون ؟ "

" مفاجأة . "

اتخذ شكلا بحيث لم تستطع فرشته أن تسيطر على نفسها ، وقهقهت ضاحكة ، ونظر إليها كمال مندهشا وسألها :

" إذن ، إذن ، لماذا تقدمين هدية لى ؟ "

فأخرجت فرشته لسانها الصغير الأحمر من فمها ضاحكة وحركته وتلعثم كمال :

" إذن أنا ... أنا ... إذن ... "

وقلدته فرشته قائلة :

" يه يه يه يه ... "

وقالت ضاحكة :

" لماذا تحجرت مكانك الآن ؟ هيا لنذهب ، الوقت تأخر . "

" إلى أين ؟ "

" إلى السينما ، تحرك ، فربما لا نحصل على تذاكر . "

أمسكت بيده ومشت .

وبينما كانت قاعة الانتظار مليئة بالناس كان حديث الناس وهمهمتهم يمتزجان بالموسيقى الهادئة التى كانت تبث فى القاعة ، وكان الجو حارا وكانت فرشته تقول بسعادة :

" عندما سلمت ورقتى ، ألقى عليها مدرسنا نظرة وقال : بارك الله بارك الله ، لقد وصلت بنفسك إلى درجة طيبة . فقلت : هل نجحت يا سيدى ، أنا أنقص سبع درجات من الفترة الأولى والفترة الثانية فقال الأستاذ : ناجحة ، أسرعى ... اذهبى . فى النهاية تعلم أن إحدى المعادلات صعبة جدا وكلهم عجزوا فيها ، تعلم يا كمال أن نفس تلك المعادلة قمت أنت بحلها لى أمس ، ولم يكن مدرسنا يتوقع أن أحلها . عندما خرجت قال الأولاد : يا خبيثة نجوت بذكاء شديد من يد السيد سوزنى ، يا بختك .

ألا تعلم أن سوسن ابنة خالتي كانت عيناها ستخرجان من محاجرهما ؟! كانت قد أخفقت في الامتحان ، وعندما خرجت من اللجنة بكت . واستراح قلبي ، كانت دائما تتكبر عليّ قائلة إنها سوف تنجح بلا مواد ، لقد ضاعت في الهندسة والجبر . أتعلم أنها عندما عرفت أنني أذاكر معك ذهبت واستأجرت معلما في الساعة بثلاثين تومانا ، آنذاك كانت تأتي كل يوم وتنتفخ عليّ نفخة كاذبة بأنها أنهت الجبر وأنها تراجع الهندسة ، وأنها تحفظ الفيزياء عن ظهر قلب ، وكانت عيناها تخرجان من الغيرة ، لا تدري كيف كانت حالتها ؟ استراح قلبي وهدأ تماما . "

كان كمال سعيدا من أعماق قلبه لرؤيتها سعيدة و موفقة ناظرا إليها مشدوها ، ينصت فقط إلى صوتها ولا ترى عيناه سواها ، ولم يكن هناك حد لإعجابه وتعلقه بها ، فلم يكن يستطيع أن يرفع عينه عن وجهها ، عن شفتيها ، عن وجنتيها ، عن عينيها . كان ينظر إلى شفتيها البارزتين الصغيرتين وإلى أنفها الجميل وإلى وجهها الأبيض الميال إلى الحمرة ، وإلى عينيها البراقتين العسليتين ، فكان إعجابه وانفعاله يزداد ، كانت المرة الأولى التي يذهب فيها إلى السينما معها وحده . إنها المرة الأولى التي جاء فيها إلى السينما مع فتاة وحده . لم يكن قد نسى قط ذكرى اليوم الذي ذهب فيه إلى السينما بصحبة فرشته ومنوچهر لأول مرة ، وما سيطر على قلبه يومها من انفعال واضطراب . وبعد ذلك اليوم ، كلما واتته الفرصة كان يتجه إلى طريق السينما حيث كانت تخرجه من نفسه ، وتنسيه أحزانه ومتاعبه وتحمله إلى عالم آخر لفترة قصيرة ، والآن وهو قد وقف في مواجهة فرشته كان انفعاله وافتتانه قد وصلا

إلى أعلى حد ، وكانت نظرته المغرورة تطوف بكل ناحية وتمضى إلى كل مكان وتحط على وجه كل شاب :

" أنا ، لست وحدى ، أنا ... "

كان يقترب بنفسه أكثر من فرشته ، يتكلم وهى تضحك بصوت عال ، وحيثما كان يقف فالكل ينظر إلى رباط عنقه السولكا فيدق قلبه بسعادة ، وكان سعيدا جدا ، وفجأة رأى شابا قادما نحوهما وسط الناس ورفع يده قائلا :

" فرشته أنت ، يالها من صدفة ! "

لوحت فرشته بيدها :

" سلام . "

تقدم الشاب ، وهو يكبر كمال بعام أو عامين ، طويل القامة ، قمحى اللون ، يرتدى ملابسه بذوق فسألها :

" هل أنت وحدك ؟ "

فأشارت إلى كمال :

" كمال . "

واستدارت ناحية كمال :

" بهرام . "

ومد بهرام يده وسلم عليه ، وألقى نظرة عليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وضم حاجبيه ، وضيق عينيه وحرك شفتيه :

" تشرفنا . "

استدار قليلا ولف ناحية فرشته ، وبدأ الكلام معها ، ونظر كمال إليه إلى رباط عنقه ودبوس رباط عنقه الظريف الجميل وإلى وجهه الذى كان يشع تعاليا وعدم اكتراث فتملكته موجة عارمة من اليأس والغم ، فكل السعادة التى كانت عنده منذ لحظة انعدمت وأحس بالشقاء .

كانت فرشته والشاب قد انهمكا تماما فى الحديث ، وبالتدريج أحس كمال أنه لا مكان له فى حديثهما فانتحى جانبا بلا إرادة ، وكان يبدى أنه لا يسمع إليهما لكن أذنه كانت تنصت إلى كلامهما . كان قد صار ذليلا صغيرا ولا شيء وكأنهما سلباه كل عزة وكبرياء دفعة واحدة ، وكأنه تحول إلى مرتبة حيوان صغير مثير للشفقة . فالشيء الذى أثار بغضه وغيرته لم يكن كلامهما لكن اللهجة الخاصة الموجودة فى كلامهما ، لم تكن المرة الأولى التى كان يلتفت فيها إلى هذه اللهجة الخاصة ، فغالبا فى الضيافات التى كانت تقام فى منزل منوچهر كان يواجه دائما هذا الأسلوب من الحديث ، فالضيوف يتحدثون معا بنفس هذه اللهجة ، كانوا يمطون فى الكلمات ويدخلون عليها تركيزات خاصة ، ويتحدثون فى الموضوعات الأكثر ابتذالا ويطوونها هكذا فى كلمات نظيفة تماما بحيث تبدو جديدة وبديعة . وكانت أحاديثهم فوق أنها أحاديث صداقة وود وفوق أنها مصحوبة بالإخلاص والأصالة كأنها كانت تحتوى على علاقة خفية ، حتى ولو كان كلاهما لا يعرف الآخر .

عندما كانوا يجلسون مع بعضهم ومع أول عبارة يتفوهون بها كانت هذه الرابطة تربطهم معا . استدار كمال بنظره نحو فرشته التى كانت

كلها آذانا صاغية . وكان الشاب مع كل كلمة يتفوه بها يحرك عينيه وحاجبيه وشفتيه وفمه كما يهز يديه . كانا قد نسيا وجود كمال كلية وكان الشاب يقول :

" كان من رأى أبى أن نذهب فى العيد إلى موتيل شهوند ، وقالت أمى أن بهرام لن يأتى ، وقال أبى لماذا ؟ فقلت أنا لا يعجبنى رواده ، وقالت أمى الحق معه ذلك أن موتيل شهوند صار سوقيا . وعدد من أصحاب حوانيت لاله زار يتجمعون هناك ، وأنا قلت فرقته الموسيقية أيضا ليست حسنة ، وفى العام الماضى لم أسعد هناك قط فى الصيف . قال أبى حسنا جدا اذهبوا إلى أى مكان تريدون ، أنا مشغول ولن آتى ، وحينذاك ذهبت أنا وفيفى وزيزى وماما إلى فندق رامسر حيث رواده ممتازون معظمهم أمريكان . قلت لأمى ليس عند أبى ذوق قط ، فقالت أمى دعك من أبيك ، إنه يريد نفس موتيل شهوند الذى ينزل فيه العواجيز والتجار أصحاب الكروش . أمى تفكر بشكل جيد ، سهراته ممتازة ، وفيه أوركسترا ممتاز جدا ، وموسيقى الرقص تقيم ضجة ، ورقصنا حتى تقطعت أنفاسنا ، واستمتعنا بشكل رهيب . "

ابتعد كمال عنهما أكثر ، اجتاحه حزن مؤذ ، وأراد الخروج من السينما فلم يتحمل الوقوف والانتظار . فاقترب من الواجهة الزجاجية التى كانت تعرض صور نجوم الفيلم والفنانين ، ثم ذهب ناحية واجهات زجاجية أخرى ثم نظر بقلب معتصر متألم إلى صورة الشابين اللذين كانا يتعانقان وهما مبللان بالمطر فى ركن شارع وقد توحدا ، وحاول أن يقرأ الجملة الانجليزية المكتوبة تحتها بخط دقيق .

" ألم يحدث هذا مرة لكل إنسان ؟ "

وعندما فتحت الأبواب ، جاءت فرشته وقالت :

" كدت أفقدك . "

ونظرت إليه بتفحص وسألته :

" ألست بخير يا كمال ؟ "

فأجاب كمال :

" لا شيء ، إننى أشعر بصداع خفيف . "

فقالت فرشته :

" الولد صدعنى ، أوه ... أوه ... أوه . لا يزال يردد ويثرثر هكذا ثم يقولون إن البنات ثرثارات . "

فابتسم كمال وقال لامزا :

" تبدو أحاديثه بالنسبة لك جميلة جدا . "

لم تنتبه فرشته إلى لمزه وقالت :

" بيننا قرابة بعيدة وهو يأتى أحيانا إلى منزلنا ، ولا يعجبنى أصلا ، إنه فظ جدا ، فكثيرا ما صدعنى بكلامه عن أمه التقدمية . "

تهلل وجه كمال وابتسم :

" لماذا يحرك رأسه وعنقه ، ولماذا يحرك حاجبيه ؟ "

ضحكت فرشته :

" إنه يقلد جريجورى بك ... فى النهاية قالوا له إنه يشبه جريجورى بك قليلا . "

ثم أخذت يده وجذبته :

" هيا ندخل ، فالكل دخل . "

وعندما خرجا من السينما كان الجو قد أظلم ، وكان كمال قد استعاد نشوته ليتحدث بصوت عال ويضحك .

لم يكن قد استمتع بالفيلم بقدر ما استمتع لوجوده مع فرشته ، فهو حقا لم يفهم شيئا من الفيلم ، فوجود فرشته وعنوبة صوتها كانا يثيران أوتار روحه .

وفى الوقت الذى خرج فيه وهو سعيد جدا متأبطا فرشته وسط زحام الناس ، وقعت عينه على " أكبر " ابن عمه الذى كان يمشى فى الجانب الآخر من الشارع بمظهر مشعث ، واقفا بلا سترة وبقميص العمل المهلهل وقد وقف ينظر إليها فى حيرة ، وعندما رأى كمال ابن عمه يجرى وسط الشارع كى يصل إليهما أصاب قلبه القلق للحظة وخاف أن يحدث فضيحة .

كشر أكبر له ولم يكن يرفع عينه عن فرشته ، مما جعل كمال يشعر بالغرور دفعة واحدة ، ويقرب نفسه أكثر إلى فرشته خاصة ، وتقدم هامسا لها ضاحكا ومر بجوار ابن عمه غير مكترث به ، ولف فى منعطف الشارع واختلس نظرة من خلفه ، فلاحظ أن ابن عمه يقف مبهوتا وحائرا ينظر إليهما ، وكان شعوره بالسعادة والكبرياء مضاعفا وفكر :

" كم تحير المسكين ! لم يخط خطوتين وحده مع فتاة إلى الآن ، فما بالك أن يذهب معها إلى السينما ؟! "

كان أكبر يكبره بعامين أو ثلاثة ، ولم يبلغ في دراسته أكثر من الصف السادس وهو الآن في السوق صبي بدكان أبيه ، وتذكر كمال ليالي الروضة حيث كان أكبر يذهب ويقف خلف النافذة بالدور العلوي ينظر إلى النساء في مجالس الروضة ويناديه :

" تعال يا كمال ، أنظر يالها من قطع نظيفة . يا لها من قطع جميلة يا كمال ! "

كان يأتي مهتاجا سعيدا ويقول :

" والله يا كمال ، رأيت ثدي إحداهن . يا إلهي يالها من أثداء ، ويلاه . "

كانت المتعة تجتاح وجهه ، يغلق عينيه ويدور حول نفسه وأخذ يضرب بكف يده على فخذه ويقول :

" ياله من ثدي ، بللوري ، بللوري، ياله من ثدي ياكمال ! "

ثم يبتلع لعابه بصوت .

وبعد أنه أوصل فرشته إلى منزلها مشى في الزقاق وهو في قمة السعادة ، وود أن يرفع صوته بالغناء . كانت الليلة مقمرة مضيئة ، والسماء صافية ، والزقاق خاليا ، والجو جميلا ، وتموج صوته في صمت الزقاق ، وعندما وصل صوته إلى قمته عجز عن الغناء ، كان صوته حزينا محرقا ، كان الصوت الحزين والأشعار الدينية لا يتناسبان مع السرور والنشوة اللذين يحس بهما . الشجن الذي كان يستيقظ في قلبه كان يذكره بذكرياته الماضية ، الليالي التي كان فيها في المجالس

الخاصة يغنى أدوارا فى رثاء على ومناقبه . إنها الذكرى الماضية التى أحلت الحزن فى قلبه ، وحاول ألا يفكر فى الماضى . لم يكن يريد أن يفقد حالة النشوة ودار فى خلده أن يجد شيئا يغنيه ، كان سعيدا بالليل ويشتهى أن يغنى ولكن لم يكن فى ذاكرته شئ إلا الأشعار الدينية ثم تذكر أغنية كان قد سمعها من الراديو فى منزل فرشته وبدأ يترنم بها :

" ياطبيب ياطبيب ابسط لى فراش النوم بسكر فأنا متألم وسر أنت مترنحا نحو الحان فأنا متألم أيها الطبيب . "

ثم عجز عن الغناء وأحس ثانية بأن صوته مثير للحزن :

" بيت حسن ... بيت مسرور ... "

ولم يتذكر شعرا يثير السرور ، وكان يتمنى أن يظل يغنى هكذا وبدأ فى الترنم ، ترنم يكرر طنينه فى ذهنه اسم فرشته ...

* * *

صبت أمه الشاى له وقالت :

" أطل على منزل عمك الحاج . "

" أيريدنى فى أمر ما ؟ "

" أجل ، لقد أخبر أباك بأن تمر عليه لأمر ما . "

" ماذا يريد ؟ "

" لا أدرى ، فلم يقل أبوك شيئا لى . "

منذ بضعة أيام وأبوه يتحدث معه ، وعندما كان يراه يعبس ويدير وجهه ، وعندما يكون له موضوع معه يوسط أمه أو يتحدث بصوت عال بحيث يسمع كمال .

" قولى له أن إيجار دكان أحمد تأخر حتى الآن ، قولى له أن يأتى العصر ويأخذه . "

" قولى له أن يأتى عصرا من المدرسة إلى الدكان مباشرة ، اشتريت سمنا فليأت به إلى المنزل . "

أحيانا كان كمال يضحك عليه من حرصه ، وكان يرى أن والده يقف وحيدا بين مصراعى الباب وكأنه يحدث جدران المنزل ، وهو يصرخ فى الفناء :

" قولى له ... "

وكأن " قولى له ... " صارت اسما ثانيا له ، لكنه كان يتغاضى ولم يكترث تاركا أبيه يصيح أكثر ، وكلما ارتفع صوت أبيه مستمرا فى " قولى له " كان يقل اهتمامه به ، كان يصم أذنيه تماما عنه وكأن شيئاً لم يكن . ففى الماضى كان جزاء عناده وعدم سماعه الكلام علقة ، ركلة ، وصفعة ، سوط بما يناسب الحال ، ولكن الآن فقط الشتم والسب والعبوس وعدم الاكتراث والتهديد .

" الولد الخائب يتصور أنه أصبح إنسانا بعد دراسة كام سنة ، سأريه مايمتعه حقيقة . لن أسمح له بالذهاب إلى المدرسة ثانية ، بضربة على قفاه أقوده أمامى وآخذه إلى الدكان وأسلمه المكنسة

فيكنسه . في ذلك الوقت يفهم الدنيا في يد من ؟ وكم من الزبد يحتويه مَنٌ من الزبادى . "

ارتدى كمال ملابسه ، وسأل نفسه أى عمل لعمى الحاج معى ؟! فعمه الحاج لم يرسل فى طلبه قط بلا داع . فقد مرت فترة طويلة لم يره ولم يذهب إلى منزلهم . فمع أن عمه الحاج يكبر أباه ببضع سنوات إلا أنه ليس متحجرا وقاسيا سليط اللسان مثل أبيه . فكمال يستطيع أن يتحدث معه جملتين على الأقل وينصت عمه الحاج إلى كلامه ، وكثيرا ما كانا يتباحثان حول موضوع ما ، وكان يرى أن عمه الحاج شخصية محبوبة بالنسبة له وأنه يقبله ويعجبه أكثر من أبيه .

فرغم أنه يتضايق قليلا من لهجته الآمرة ويضيق دائما من " يجب ، ولا يجب " إلا أنه كان سعيدا بترك عمه الحاج له يتكلم بينما ينصت لكلامه ، وعلى عكس أبيه لم يكن يصرخ فيه أو يحتد عليه :

" أتطيل لسانك على ثانية أيها الابن العاق ؟ اقفل فمك ، اخرس ، فكل ما أقوله وافق عليه برضا . الجحش يعرفنى ماذا على أن أفعل . هه هه . حضرته بقى بنى آدم . "

فكم من مرة كان يتشاجر مع أبيه ، ويتوسط عمه الحاج بينهما ويطلب السماح والشفاعة لكمال ، فكر كمال :

" حتما إنه يريد أن يقدم لى النصح ثانية ، يجب على كل ولد ، ولا يجب على الأولاد ، لايجب على الابن العاقل ، يجب ، لا يجب ..."

ثم يقدم لى للمرة المائة قصة " عاق الوالدين " :

" كان هناك ولد ..."

لكن الوضع غير العادى الذى كان عليه الحى أخرجه من التفكير فى عمه الحاج ، و سأل نفسه :

" ترى أحدث شىء ؟ "

كانت النساء تمشى فى الحى وتنتقل من هذا المنزل إلى ذاك ، والنوافذ كلها فى مواجهة بعضها وتطل منها النساء ويتهامسن أو ينادين بعضهن البعض :

" يا رباب خانم ، يا رباب خانم ، هل غلبك النوم يا أمى ؟ "

خرج الأولاد من منازلهم يجرون فى إتجاه السويقة ، وكلما كان يحدث شئ كان ينتشر كأنه رائحة الاحتراق داخل الحى ويجتاح المكان كله ، وكلما كان كمال يتقدم كان يشم هذه الرائحة أكثر ويستثار فضوله بشكل أكثر ، وعندما وصل إلى السويقة سمع الخبر . كان هناك ازدحام ، فقد تجمع الناس بالقرب من مقهى الخال على ، و قد أغلق المقهى ووضع أمامه حارس ، ففى غروب اليوم السابق أتوا فجأة واستخرجوا جثة رجل من الحديقة الصغيرة للمقهى ، ولم يكن يدرى أحد قط ماذا حدث ؟ ولم يعرف أحد جثة الرجل مطموس المعالم بينما كان الناس ملتفين حول بعض يقولون :

" لقد خنقوه فى البداية . "

" خنقوه ؟ "

" بقى مكان الحبل حول رقبته . "

" يقال إن الخال على ذهب وأبلغ عنه . "

" ليس معلوما لماذا قتلوه ؟ "

" من أجل ماذا ؟ معلوم بالطبع ، إنه من أجل نقوده . "

" لقد قبضوا على حسن سياه من على مائدة القمار . "

" إذن إنها نهاية مثل هذه الأعمال . "

" يقال إنه اتفق مع السيد مصطفى . "

" أكلة الحرام ولاد الكلب . "

" مـافـائدة ذلك الدق على الصـدور وحـمـل الأعـلام ؟ يجب على الإنسان أن يصحح عمله . "

" أساءوا إلى سمعة الحى . "

" القتلة . عديمو الشرف والحيثية . "

كان باب منزل عمه الحاج مفتوحا ، وكانت زوجة عمه تقف أمامه مشغولة بالحديث مع امرأة أخرى .

" تقول ماما إنهم خنقوه وأخذوا فلوسه ، فمن يصدق أنه السيد مصطفى ... "

عندما رأته سكتت وانطبعت على شفتيها ابتسامة مليئة بالمعاني وقالت :

" حسنا ياسيد كمال ، نورت عيوننا ، عجيبة وغريبة ، ماالذى ذكرك بنا ؟ "

واتسعت الابتسامة على وجهها وقالت بلهجة مميزة :

" هل لك موضوع مع عمك الحاج ؟ إنه في الحجرة العلوية . "

صعد كمال درجات السلم ورأى عمه الحاج من نصف باب الحجرة المفتوح جالسا على وسادته متربعا ، وحوله أوراق صغيرة وكبيرة متنوعة ومبعثرة ، وكان عمه الحاج منحنيا إلى الأمام ، ممسكا بورقة في يد وعدسة مكبرة في يد أخرى ، وكانت رأسه المحلوقة من منابتها ووجهه المليئ بالشعر في إتجاه كمال الذى كان يتحرك ببطء شديد . وعندما دخل كمال الحجرة ، أرجع رأسه القهقرى ببطء فبدت جبهته المتورمة وعيناه الضيقة الحمراء ، ونظر إليه للحظة شاردا دون إتجاه معين ثم عاد إلى الورقة ثانية ، يتمتم بشفتيه الغليظتين ورد التحية على كمال ، ثم تقدم كمال ببطء لبضع خطوات وجلس بجانب الوسادة ، ووضع عمه الحاج الورقة في صندوق حديدى صغير بجواره ، وفي الوقت الذى كان ينظر إلى الأمام دون إتجاه معين كأن عقله مشغول بفكره ، سأل كمال :

" كيف حالك يابن أخى ؟ هل أنت بخير ؟ "

رد كمال :

" الحمد لله ، بخير . "

فاستدار عمه الحاج بنظره نحوه :

" حسنا ، ماهى أخبار ابن أخى ؟ "

قال كمال :

" لقد قتل شخص في مقهى الخال على ، وقبضوا على حسن سياه

الليلة الماضيـة ، وجـارى البـحث الآن عن مـصطفى الجـزار ... السـيد مصطفى . "

هز عمه الحاج رأسه ، ونقل جسده الضخم والغليظ على الحشية ، و انطوى على نفسه ناظرا إلى الأمام دون إتجاه معين وكأنه يفكر فى شئ ثم حرك شفتيه معا لكن دون أن يخرج صوتا من بينهما ، وبيديه الصغيرتين اللحيمتين جمع ماحوله من أوراق ونظمها ووضعها مع العدسة المكبرة فى الصندوق الصغير وأغلقه ، واستقام جسده المقوس واتكأ على الوسادة خلف رأسه ، ثم بلل شفته السفلى بلسانه العريض الأحمر وسأله :

" حسنا ، أى الأعمال تمارسها ياابن أخى ؟ لقد بلغتنى أخبار أتمنى من الله ألا تكون صحيحة . "

" أية أخبار ؟ "

" إن شاء الله لا تكون صادقة . "

" إذن ماهى ؟ "

" دائما أقول لأبيك إن كمالا غيرالأبناء الآخرين . إنه عاقل ، غاض البصر ، مستقيم وصادق ، فأولاد الناس هم أساس الهم ويجلبون لوالديهم كثيرا من التعاسة وسوء الحظ ، أما كمال فلا يجلب منها واحدة ، حتما عليك إذن ألاتكون مجالا للكلام ، فالناس تتحدث خبط عشواء . إن كمالا عاقل ، أليس هكذا ياابن أخى ؟ "

" أى كلام ؟ "

" هل تعلم ماذا قلت لهم ياابن أخى ؟ قلت لهم اذهبوا ولاتقولوا هذه الافتراءات والأكاذيب ، إن كمالا لا ينظر إلى امرأة قط ، كيف يصل به أن يمشى فى الشارع مع امرأة فاسدة سافرة . "

فاحمر كمال وقال بانفعال :

" من قال إننى مشيت فى الشارع مع امرأة فاسدة سافرة ؟ مصيبة أنك تستدرجنى فى الكلام . "

قال عمه الحاج :

" أنا ، أنا عمك ، أستدرجك فى الكلام ، أستغفر الله . "

" إذن من قال إنه رآنى فى الشارع مع امرأة فاسدة ، كل من قال هذا - ولا أقصدك - مخطئ ولياكل الغائط . "

" قلت لهم نفس هذا الكلام ياابن أخى ، قلت لهم لقد التبس عليكم الأمر إنه ليس كمال ، إنه شخص آخر ، إن الإنسان الذى له أب وأم ، والذى له عائلة لا يقوم بعمل قط يجلب العار ، لابد أنهم ظنوا أن شخصا آخر هو أنت ، وقلت إن كمالا لا يعرف هذه الأشياء . "

فرد كمال :

" هل قال أكبر شيئا لك ؟ فمنذ بضعة أيام رآنى فى الشارع مع أخت زميلى فى المدرسة . "

" تقول إنك مشيت فى الشارع مع أخت زميلك فى المدرسة ، إذن قل لقد صدقوا ، كانوا صادقى القول فى أنهم رأوك . "

" أجل ، وماذا فى ذلك ؟ "

حرك عمه الحاج رأسه :

" إذن قل إنه لم يلتبس الأمر عليهم ، إنهم لم يتحدثوا خبط عشواء ، فأنا ألاحظ جيدا ياابن أخى أنه لو رآك والدا تلك الفتاة معها فى الشارع فماذا يقولان ؟ لما قالا هذا ابن ... "

فقطع كمال كلامه :

" كان بعلم والديها . "

" كيف ؟ أكان بعلم والديها ؟ إنه زمن عجيب لسماحهما لها أن تمشى فى الشارع مع فتى ، وتركا ابنتهما تخرج لتمشى مع فتى . حتما ليس بهذا الأسلوب يا ابن أخى ، ليس بهذه الطريقة . "

" ليس مع أى فتى ، معى أنا . "

ثم سكت ونظر فى عينى عمه وقال بانفعال :

" أصلا لم أفهم ماذا تريد أن تعرف ولماذا لا تتحدث بصراحة ومباشرة ؟ لماذا لا تسألنى بوضوح وصدق حتى أجيبك ؟ ماذا تريد أن تعرف ياعمى ؟ "

فابتسم عمه الحاج وهز رأسه وقال :

" حقا ياابن أخى ، خطأى أننى لم أسألك بصراحة وصدق ، فأنت عزيز على مثل أولادى ، ولم أقصد أن أنكد عليك . حقا إنه خطأى . "

" لن ينكد على ، فاسأل عما تريد ، فليس عندى شئ أود أن أخفيه عن أحد . "

" بارك الله فيك ياابن أخى ، بارك الله فيك ، هذا هو التصرف الصحيح . حسنا كيف حدث أنك ارتبطت بهذه الفتاة ارتباطا وثيقا يا ابن أخى ؟ "

" قلت إنها أخت زميلى فى المدرسة ، وأذهب إلى منزلهم بعض الأوقات لأشرح لها ، ولسنا على علاقة وثيقة ببعض . "

" آهاه ، وهو كذلك يا ابن أخى ، وهو كذلك . أتذهب كثيرا إلى منزلهم ياابن أخى ؟ "

" أجل ، فى بعض الأسابيع كل يوم . "

" إذن هكذا . حقا . بدأت أفهم الموضوع . قل إذن إن أبيها وأمها يفكران لها فى شئ ، وكان يجب عليك أن تأتى أسرع وتخبر عمك ليتحقق من الأمر ، ويشير عليك قبل أن يسبق السيف العزل . "

قطع كمال كلامه بسرعة :

" كنت آتى لأقول ماذا ، ماذا يظنون ؟ أنا لا أفهم . "

" والله أنا لا أدرى ، يجب أن تعرف بنفسك أفضل ياابن أخى ، فعندما يسمح والدان لفتى أن يصطحب ابنتهما فى الشارع للنزهة ، فلابد أنهما يفكران فى شئ وإلا قلت بلا سبب إنهما يريدان الإساءة لسمعة ابنتهما . فلنر ياابن أخى ماذا يعمل والد زميلك ؟ "

" إنه موظف حكومى ، إنه رئيس ..."

قاطعه عمه وقال وهو يحرك رأسه :

" كنت أعلم ، كنت أعلم جيدا ، من هؤلاء الموظفين الطماعين ، رئيس مكتب الحرس ، رئيس الخدم ..."

" ماذا تعنى كلمة طماع ؟ إنه رئيس جمرك ، يود أن يصبح نائبا فى البرلمان هذا العام ، فماذا تقول ؟ "

" ياللعجب ، ياللعجب ، إذن قل إنه من هؤلاء الأعيان الذين لادين عندهم ، ويجب أن أفهم وأعرف من البداية ، إذن تحدث بهذا الأسلوب ، فهم من هؤلاء المقامرين والراقصين الوقحاء الذين يتركون بناتهم دائما على أهوائهن ورغباتهن ، ومنهم من يأكلون أموال الناس وينهبون ويسرقون ، فأنا أعرف جيدا أسلوب هؤلاء الناس ، أعرفه جيدا ياابن أخى ، لادين عندهم ولا إيمان ولا شرف . "

فغضب كمال وقطع كلامه :

" لا ، إنكم لاتعرفونهم على الإطلاق ، وإنكم تنسجونه من وحى خيالكم وتقولون كلاما لاأساس له من الصحة ، فأنا لاأدرى لماذا وأنتم المتدينون لاتفعلون شيئا إلا أن تجلسوا وتغتابوا الناس ؟ ... بل إنكم لم تروا أصلا أية أسرة محترمة ولا تعرفونها . "

وعبس وجه عمه الحاج وقال ساخرا :

" بارك الله فيك ياابن أخى بارك الله ، إنك تتحدث بكلمات كبيرة ، حسنا هذا معلوم . فإنه بعينه نتاج اختلاطك بهم ومعاشرتك لهم ، فماذا

ينتظر منك ؟ ياابن أخى العزيز ، لازلت صغيرا وجاهلا ، لاتعرف شيئا قط عن الدنيا . ياابن أخى يجب عليك أن تنتبه جيدا لنفسك وألا تنخدع بالظاهر ، فلا تبهر هذه الأبهة عينيك ، فلا زلت لم تر تقلبات الحياة ياابن أخى ولم تذق حلو الأيام ومرها ، ولم تعرف الناس جيدا وخاصة أولئك الذين ليسوا منا ، المنفصلين عنا ، فلو كنت مكانك ياابن أخى لما ذهبت إلى منزلهم ثانية ، ويجب على كل إنسان أن يمشى مع قرينه ومن على شاكلته ، فمنذ القدم هكذا الحمامة مع الحمامة ، والبازى مع البازى ، لماذا قبلت أصلا الذهاب لإعطاء درس لابنتهم ؟ إذن هل أنت معلم بيوت ؟ عماهم الله ، فليستأجروا معلما . ربما يكونون فقراء ، ابن أخى العزيز انتبه جيدا حتى لايسلبوك عقلك ، انتبه جيدا . "

سمع صوت أقدام على درجات السلم ، وصعد شخص متوكئا على عصا ثم قطع عمه الحاج حديثه وأنصت وقال من تحت شفته :

" ربما يكون الدرويش . "

فتح باب الحجرة ودخل الدرويش وهو يهتف " ياحق" ، ونهض عمه الحاج من على حشيته قائلا :

" ياحق ... تعال ياسيدى ... مرحبا بك . "

حرك الدرويش رأسه وأراد أن يجلس فى نفس الركن لكن عمه الحاج أخذ بأسفل ذراعه وصحبه باحترام إلى صدر الحجرة ، فمنذ يوم عاشوراء قبل الماضى لم ير كمال الدرويش ، فقد أصبح الأخير محطما وعجوزا ، وقد تقوس ظهره وتركت آثار الحزن والألم علامة على وجهه .

ثم نهض كمال من مكانه مودعا ، فكان عمه الحاج ينتظر هذا بعينه ، فابتسم وقال :

" فى رعاية الله ياابن أخى ، أطل علينا مرة أخرى . "

فكر كمال أنهما يريدان ولابد الحديث عن مصطفى الجزار وحسن سياه ، وفى لحظة سمع من خلفه صوت عمه ثانية فى الحجرة :

" انتبه جيدا ياابن أخى العزيز . "

نزل درجات السلم مضطربا متضايقا ، وفى الممر رأى زوجة عمه ثانية ، وما إن رأته زوجة عمه حتى ابتسمت نفس الابتسامة المليئة بالمعانى ، فهز كمال كتفيه استهانة وحرك رأسه غير مكترث وخرج من المنزل ، وفى الممر كان فى مواجهة أصغر ابن عمه ، فقال أصغر منفعلا :

" أخيرا وجدوه . "

" وجدوا من ؟ "

" مصطفى الجزار ، كان قد ذهب إلى منزل أخته ، واختفى فى صندوق . "

تحدث كمال بمرارة وابتسامة صفراء قائلا :

"هل أخذ رايته معه أيضا ؟ "

" راية ، أية راية ؟ "

قال كمال :

" ألم تر رايته ؟ "

قال أصغر بسذاجة :

" لا ."

" حتما أنك رأيتها ونسيت ، فأيام عاشوراء كان يعقدها فى شال وسطه ، ألا تتذكر ؟ "

عبس أصغر :

" أتسخر منى ؟ "

قال كمال :

" إذن فمن الضرورى أنه حملها معه إلى السجن . "

" كم صرت خفيف الظل ! "

" أجل ، خفيف الظل جدا ، أخف ظلا من أبيك وأخيك أكبر . "

" اذهب لشغلك . "

" انظر واذهب وسل أباك : هل إذا سار شاب مع فتاة فى الشارع أربع خطوات ترتفع بطنها ؟ هاه ؟ "

ودون أن ينتظر الإجابة تركه بسرعة وسار تجاه السويقة .

* * *

... السماء مظلمة ، والمصابيح تضئ ماحولها ، ود كمال أن يقول :

" أنا لست منشد روضة . "

لكنه لم يفتح فمه ، إنه يصعد درجات سلم المنبر ، وأراد أن يقول :

" لا أستطيع أن أعظ . "

ويخرج صوت من حلقه :

" أعوذ بالله ... "

وعندما يجلس على المنبر ليرى الوجوه التفت حول المنبر ، رجال بلحى حالقى رؤوسهم وتساءل :

" ألا توجد نساء ؟ "

فيرى دنانا سوداء تتحرك من جنب بعض من بينهم أصوات النواح والعويل ويفكر :

" هن نسوة . "

تخرج الرؤوس من الدنان ويلقين ببراقعهن جانبا وتظهر وجوههن . إنهن جميلات وشابات ذوات عيون براقة وشفاه حمراء ووجوه نضرة وأعناق لامعة متلألئة .

" يالها من " قطع " عجيبة ، بللور ، بللور !"

ويرى دائما عمه الحاج جالسا متربعا على حشيته منكبا إلى الأمام يشير عليه ، ويسمع صوته :

" ابن أخى العزيز ، انتبه ، انتبه جيدا . "

ثم لاخبر عن الرجال الملتحين حالقى رؤوسهم ، ولقد امتلأ أطراف المنبر بالفتيات والفتية ، ينظر إليهم ، وتبدو وجوههم مألوفة لديه :

" أين رأيتهم ؟ "

هذا هو منوچهر الذى يشير للفتيات ويقول :

" لعوبات جدا ، أيمكن الوصول إليهن ؟ ! "

يقول كمال بصوت منخفض :

" لا ، لا ، هنا ، لا . إنه عمى الحاج يرى . "

ويرى بهرام يتحدث مع فتاة بجانبه ويحرك رأسه ويده ويشير على الواجهات الزجاجية المعلقة على الحائط ويقول :

" سوسن ، هه ، هذا يجب أن يحدث مرة لكل إنسان . "

ينظر كمال إلى الواجهات الزجاجية ، ويرى صورة حضرة العباس بلباسه الأسود وهو ممتطى جوادا أبيض وقد أمسك بأسنانه بقربة ماء ، ويرى شمر بعيونه الحمراء والمستديرة وهو متعقبه بالسيف فى يده ، ودار فى رأسه أن يقول :

" آه ياجريجورى بيك . "

يحرك يده ويدور برأسه فى كل إتجاه ويقول :

" إخوتى فى الدين ، أخواتى . "

يرى الفتية والفتيات وقد استداروا ينظرون إليه ، ومع كل كلمة تخرج من فمه تقترب الوجوه إليه أكثر .

" أخوة فى الدين ، أخواتى . عند الشك بين الاثنين والثلاثة ينبغى الاعتماد على الثلاثة . "

يعلو صوت بهرام :

" إنهم يقدمون أنفسهم فداء له ، إنه بعينه ابن واعظ ، انظروا . "

تضحك الوجوه وتشير الأيدى عليه معا ، ومن بين الوجوه الضاحكة يرى فرشته وهى تنظر إليه غاضبة وتومئ بإشارات ثم يلتفت فجأة ، إنه يضع عمامة على رأسه وعباءة على كتفه ، فيسمع صوت فرشته الممزوج بالعتاب والتوبيخ :

" كمال ، كمال ماهذا الشكل الذى فعلته في نفسك ؟! اخلعهم من على جسدك ، لعلك تريد أن تمسخر نفسك ، اخلع هذه العمامة ، وانزل من هناك . "

يريد أن يخلع العمامة ويلقى بالعباءة من على كتفه ، لكنها ملتصقة على جسده والعمامة ثابتة على رأسه . يود النزول من على المنبر لكنه لا يستطيع أن يتحرك . فالوجوه تضحك عليه بصفاقة وحقارة وتقترب إليه أكثر ، سمع صوت محمود :

" كمال ، كمال ، انزل من هنا ، البورجوازيون قادمون ."

ويرى يد محمود تمتد ناحيته يريد مساعدته ، ولكنه لايستطيع التحرك من مكانه ، فلازال طنين الضحكات يدور فى رأسه ويقاوم كالمجنون ويضرب بيده وقدمه ويتكور على نفسه كحيوان جريح ...

استيقظ من حلمه مرتعدا كارها ، وسيطرت عليه حالة من الحزن والتعاسة والاستياء كأنه غلاف متعفن احتواه ، وكان قلبه يدق بشدة والعرق الغزير يغطى جسده كله ، ولم تزل أذناه مملوءتين بطنين الضحكات .

تقلب وطل بنظره من زجاج النافذة . كانت السماء ملبدة بالغيوم الكثيفة ، وكان الجو عاصفا ، أحس بحرارة فقال لنفسه :

" كم نمت ؟ "

لقد أضعفه خدر منوم وأرخاه كلية ، وكان يود أن يظل ممدداً هكذا فى إثر راحة أكثر ، مد قدميه وأرخى عضلاته ووضع يده خلف رأسه

ممعنا النظر فى السماء ، وكان حزينا غير سعيد منذ بضعة أيام وهو يعانى من حالة سيئة وكانت أخواته تقلن :

" لقد أصبح كلبا ، يريد أن يعقر الكل . "

من كثرة ما صرخ فيهن ، وأوشك على ضربهن علقة بحجة ما ، وكان يغضب لأتفه الأسباب ، ويصرخ فى أمه :

" ماذا تريدون منى ؟ لماذا لاتدعونى أستريح دقيقة ؟ لاراحة عندى منكم ، إننى أذهب إلى السوق دائما وأجئ ، وأحمل عبد الله على رقبتى ، وأذهب إلى الدكان أيضا ، استأجروا صبيا غيرى !! "

كان يرى والده عابسا مقطبا وحبات المسبحة ملفوفة حول أصابعه لكنه يظل ساكتا لا يقول شيئا ، كان داخل المنزل متكدر القلب ، وعندما يخرج لم يكن يعرف أين يذهب وماذا يفعل ؟ وعندما كان يصير وحيدا كان يحس بالحزن والضيق ، كان يخرج من المنزل ليتسكع فى الحى والشارع هائما على وجهه فترة بلا هدف أو مقصد ، ثم توجه صوب منزل منوچهر بلا إرادة حيث كان قلبه تواقا بشدة لرؤية فرشته .

كانت خادمتهم العجوز السمينة تفتح له الباب ، وقالت له بقلة ذوقها المعروفة :

" أسرة منوچهر ليست هنا . "

" والآنسة فرشته ليست هنا أيضا ؟ "

" لا . "

" أين ذهبوا ؟ "

" لا أدرى . "

" ومتى يعودون ؟ "

" لا أدرى ، لو عندك رسالة أخبرنى بها لأنقلها لهم . "

رفع كمال رأسه وقال :

" لا ، ليس عندى رسالة ، كنت مارا من هنا وجئت لأسأل عن أخبارهم ، أبلغيهم تحياتى . "

" حسنا جدا . "

ثم أغلقت باب المنزل ومضى .

فبعد أن نجح الثلاثة فى امتحانات آخرالعام ، لم تمكث فرشته ومنوچهر فى المنزل بالأسبوع ، ومن كثرة ماذهب وهم خارج المنزل وقابل خادمتهم العبوس كان يشمئز من نفسه . كان قد افتقد عادة البقاء وحده ، وأصبحت الوحدة تؤلمه ، ولم يكن يدرى أين يذهب وماذا يفعل ؟ كان يدخل حجرته ويقرأ كتابا ، ومع أن قراءة هذه الكتب كانت سلواه الوحيدة والأكثر اهتماما كان ينفر من الكتاب أحيانا فيلقى به جانبا وينهض من مكانه مشتتا ويمشى بعيدا عن الحجرة ، ثم يخرج من المنزل ويتسكع فى الحى والشارع ، ويهيم بلا شعور فى إثر شئ يسكنه ويعيده إلى وعيه ، وعندما لا يجد شيئا ويضل طريقه محبطا ويائسا كان يعود إلى المنزل أكثر تعبا وحزنا ، ولم يكن أبوه يطلبه كثيرا ، فلا زال المعلم الشيخ لم يذهب إلى قريته ولم يحتج إلى وجوده .

وكان يعيش أغلب أيامه فى نوع من التشتت والاضطراب ، ويرى

نفسه أكثر يتما ووحدة من أى وقت ، فلم يعد شىء قط يجذب اهتمامه ويربطه بمنزله وأسرته ، وأحيانا كان يغبط حياة منوچهر المليئة بالمرح والواقعية ، لكنه يشعر بأنه لا يصلح لهذه الحياة ، وكان منوچهر يخبره إلى أين يذهبون وماذا يفعلون ؟ وإن لم يكن عندهم مكان للهو والمرح كانوا يجتمعون معا فى المنزل ليلعبوا القمار أو يذهبون إلى مقهى أو ناد ليتناولوا العشاء وليرقصوا ، وكان يقول :

" أنا عاشق لموسيقى الرقص ، وبمجرد أن أشرب البيرة أشعر بالحرارة فأجذب النساء والبنات للرقص . "

لم يستطع كمال أن يخفى حيرته ودهشته :

" مع النساء ، ترقص مع النساء ؟ "

" أجل ، لا فرق هناك ، إما امرأة وإما فتاة ، لابد من السعادة معهن . فأنا عاشق للرقص السريع ، إنك لا تدرى أى انفعال وأية متعة تصيب الإنسان ! وعندما نعود إلى المنزل أكون متعبا هالكا . "

كان كلام منوچهر يذكره بكلام محمود ، فقد أخبره ذات يوم بنوع من المحاسبة المحزنة كيف يعيش منوچهر ؟ فقال له :

" أعلم أنهم جميعا مثل بعضهم البعض ، فماذا تنتظر ؟ لا يختلف منوچهر عن قاعدتهم ولا ينفصل عنها ، فهو حلقة من حلقاتهم التى لا حصر لها ، وربما يكون هو الأذكى بينهم والأكثر تقدمية بحيث يعرف ماذا يريد وماذا يفعل ؟ ومع انتمائه للحلقات الأخرى ، فله أصدقاء مثلى ومثلك . فالحلقات الأخرى مشغولة فقط مع نفسها بشىء آخر ،

ويقضون حياتهم الخاصة ولا فكر لهم أو فلسفة ثابتة بشأن حياتهم . فقد تركوا إرادتهم في يد الدوافع والمحركات الخاصة وأشياء مميزة وخاصة تجذبهم إليها ، الرقص والقمار والنساء والشرب و و و ... ترى أنهم يقضون أوقاتهم دائما معا ، يتزاحمون ويتداخلون كأنهم قطعان ماعز ، وليست لهم طاقة أو جلد على الوحدة ، ولا يستطيعون أن يتآلفوا مع وحدتهم مثلى ومثلك ، فهذا يذهب إلى منزل ذاك وذاك يذهب إلى منزل هذا ، وبدون أن تكون بينهما ألفة ومحبة وبدون أن يحب كلاهما الآخر ويشعران بالمحبة فيما بينهما ، ولو لم يفعلا هذا لانفجرا من الملل والضيق .

" أتعلم يا كمال أنه بشهادة إحصائية طبية أن الملل وضيق الصدر يقتلان الإنسان أكثر من مرض السل ؟! "

بالأمس ذهب ثانية إلى منزلهم ، فكان منوچهر وفرشته بالمنزل هذه المرة ، وكان محمود هناك أيضا ، ولم يكن قد رآه منذ فترة ، فشعر بسعادة لرؤيته ثم تقدم منوچهر وفرشته متهللين نحوه وحدثته فرشته بسعادة :

" لقد اشتقت إليك يا كمال ، أهلا بقدومك . أتعلم أن عيد ميلادى غدا ولم أكن أدرى كيف أخبرك ، وكنت أريد إرسال منوچهر لك ليخبرك بشتى الطرق . "

فقال كمال :

" جئت هنا كثيرا ، ولم يكن أحد موجودا . "

فقالت فرشته :

" أخبرتنى سكينة ... لقد ذهبنا إلى شاطىء البحر . "

سأله محمود :

" كيف حالك يا أخ كمال ؟ إنك لم تطل علينا أيضا . "

فابتسم منوچهر وقال :

" يا الله ! أطل عليه يا كمال ، يا الله ! لأر . "

فقالت فرشته :

" إنك بارد وسمج لا طعم لك . "

فقال كمال :

" جئت المقهى عدة مرات ، ولم تكن موجودا . "

فرد محمود :

" إن عناء الامتحان ألقى بى فى زاوية المنزل ، وما أسعدكم إذ استرحتم من الدروس والمدرسة بضعة شهور . "

قال منوچهر :

" راحة وأية راحة . عندما أفكر فيها أتلذذ ، فسحقا للمدرسة ! تعلم أننى وضعت كتبى إلى جوار فراشى ، وفى الصباح الذى أفزع فيه من النوم من أجل المدرسة وأتذكر أنها انتهت أبصق عليها بصقة شديدة وأنام ثانية . "

قالت فرشته :

" إنك غير مهذب . "

فقال محمود :

" علاوة على هذا فهو ذكى جدا ، وأيضا لا يبصق بصقة هدرا خبط عشواء . "

فضحكت فرشته ونهضت من مكانها قائلة :

" أستأذنكم ، عندى عمل بسيط . "

وبعد بضعة دقائق نادت على منوچهر ليدق شيئا على الحائط ، فذهب منوچهر وأصبح كمال ومحمود وحدهما ، فقال محمود :

" إنها فتاة رقيقة . "

هز كمال رأسه مضطربا واحمر خجلا ، وبدأ قلبه يدق ثم نظر إلى عينى محمود ليرى هل ينظر له أم لا ؟ لكن محمودا كان حائرا فيما أمامه وقال كمال :

" إنهم أولاد طيبون . "

فهز محمود رأسه ونهض قائلا :

" يجب أن أرحل ، لقد جلست كثيرا . حسن ، كيف يا أخى ؟ ماذا تفعل ؟ إذن هل تستطيع أن تنسجم وتتآلف مع أبيك بأى شكل ؟ "

فرد كمال وهو حزين :

" لا ، لا يجرى ماؤنا فى جدول واحد . "

ثم أخبره بحكاية عمه الحاج بصوت منخفض قائلا :

" لقد طلبنى حتى يحيط بالموضوع تماما ويرى هل لى علاقة بفرشته أم لا ؟ هؤلاء الرجال العجائز لا يفهمون مطلقا ، لقد كبروا وخرفوا تماما . "

فابتسم محمود وقال :

" ليست المسألة مسألة فهم ، المسألة هى الفجوة يا أخى . "

ثم رفع النظارة من على عينيه ومسح زجاجها بطرف رباط عنقه وقال :

" إن التقاليد السابقة أصبحت قديمة ومهترئة وقد حلت محلها تقاليد مستحدثة ، فمجتمعنا فى مرحلة التحول وإنه يغير جلده ، لكن آباءنا لا يزالون متشبثين بكلتا اليدين بالماضى ، وهم يتحسرون الآن على الماضى ويخافون من التقاليد الجديدة وكأنها حية أو أفعى . "

فقال كمال :

" ليس كل الآباء ، منوچهر لا يختلف مع والده قط ، وليس بينهما شىء من هذا الكلام على الإطلاق . "

" حقا ، فالطبقة المتوسطة أكثر محافظة من الطبقات الأخرى ، وإنهم دائما على نمط واحد ، إنها لا تستسلم بسهولة لتغيرات المجتمع وتقلباته . "

" لماذا ؟ هل لأنها أشد تمسكا بالدين ؟ "

" لا ، ليس الدين فحسب هو وجه القضية ، الموضوع أساسه

الاقتصاد ، الدين في الغالب ليس إلا وسيلة لتخدير الناس والاحتفاظ بهم متأخرين . فوالدي يمتلك مصنعا صغيرا لصناعة الجوارب ويؤجر الأطفال في سن السابعة والثامنة والنساء المحتاجين ويعطيهم أجرا زهيدا ، ويسمي هذا الأمر مساعدة الضعفاء ، ويقول دائما إنهم مساكين فقراء مستحقون ، فلو لم أقدم لهم عملا لماتوا جوعا . فالرجال يستطيعون العمل في أماكن أخرى كثيرة لكن من الذي يريد أن يستخدم هؤلاء الأطفال الصغار والنساء التعيسات في حين أنهم إن لم يعملوا عنده لماتوا جوعا . وفي كل سنة يوم القتل يقيم احتفالا أو احتفالين لدق الصدور والنواح ويذبح خروفا يحشو به بطون هؤلاء قائلا : في النهاية المساكين لا يملأون بطونهم بالغذاء مطلقا ، دعهم يشبعون مرة في العام ويتذكروننا بالدعاء . "

وبينما كان محمود يتحدث كان كمال ينصت إليه تماما دون أن يقول حرفا .

كانت الشمس تعلو جدار الحديقة ، وأشعتها الباهتة حطت على الأغصان كأنها آلاف من الطيور الصفراء ، وتشوش عقل كمال ثانية ، فقد ذكره كلام محمود بأبيه وعمه الحاج عندما كانا يقيمان كل سنة مجلسا لإنشاد الروضة وينفقان ، فتساءل :

" يعني هل تبدو لهم مصلحة في ذلك ؟ هل يعني أنها ليست خالصة لله ؟ يعني هم أيضا ... "

كان أبوه يمتلك ما يقرب من ثمانية حوانيت وعمه الحاج أكثر من

ذلك ، فجُل محلات السويقة ملك لعمه الحاج وأبيه ، وكان العمال وأصحاب الحوانيت ونساؤهم وأطفالهم يأتون إلى الروضة ، وكان عمه الحاج وأبوه يستقبلانهم بحفاوة ويبجلانهم ، وكانا يخرجان أيام القتل ويحتفيان بهم وكان السادة قراء الروضة ومنشدوها يمدحون " هذين الأخوين السخيين التقيين " فوق المنبر ويذهب أصحاب الحوانيت شاكرين راضين ، وبعد كل قراءة روضة كان يزداد احترام أبيه وعمه الحاج وكل أصحاب الحوانيت وأهل العناية يذكرونهما بالخير ... "

جاء منوچهر وقال :

" أقدم اعتذارى لترككما وحدكما . "

نهض محمود من مكانه وقال :

" لابد أن أمضى الآن . "

فقال منوچهر :

" إذن اجلس قليلا . "

فقال كمال وهو مضطرب وغارق فى التفكير :

" لماذا بهذه السرعة ؟ "

فقال محمود :

" ليست بسرعة كبيرة ، لقد جئت منذ فترة يا أخى ، فأنا هنا منذ ساعتين تقريبا ويجب أن أذهب لأذاكر قليلا . "

وخرج محمود وظل كمال مضطربا ، لم يكن يستطيع أن يصل إلى نتيجة .

" يعنى هم أيضا ، هم أيضا جعلوا الدين وسيلة ؟!! "

كانت رعدة قد حلت بجسده ، فقد تملكته فجأة حالة إنسان يشعر فى نفسه بالتمزق والانهيار ، وكأن الأرض خارت تحت قدميه واختلط كل شىء حوله وتغير ، فقد هجمت عليه عواطف وأفكار قوية وجديدة تماما كأنها أمواج متلاطمة ، وتذكر أنه عندما كان طفلا كان يقف على الباب كى لا يسمح للغرباء بالغذاء يوم عاشوراء ، وبعد ذلك كانوا يضعون شخصا من المعارف للحراسة ليمنع الناس الغرباء من الدخول ، ومع هذا الحال فإن عمه الحاج كان يبكى كل سنة ويضرب كفا بكف قائلا :

" لقد جاء الكثيرون هذا العام ، واضطررت أن أطبخ ثلاثة قدور أكثر ، ولم يكف الأقارب مما كان يخجلنى . العام القادم لابد من الوقوف أمام الغرباء وإلا ظل المعارف والأهل جوعى : فكم هم بكروش ! أعوذ بالله ، كم كانوا يأكلون ! "

وقال أحدهم ذات مرة :

" مقبول يا حاج ، لن يضيع ثوابك ، فهم مساكين وتعساء . دعهم يأكلون ويتذكروننا بالدعاء . والله إنهم أحق ! أرأيت كيف كانت وجوههم وهيئتهم كأنهم جاءوا من عام قحط . "

صاح عمه الحاج :

" إننى أطبخ أرزا بقدر معارفنا ، دعهم يذهبوا إلى مكان آخر ، فأنا لا أستطيع تقديم الطعام لهم جميعا . "

كان صوت منوچهر الوتيرى ينصب فى أذنيه كأنه طنين نحلة ، كان

كمال ينظر إليه ولا يسمع شيئا ، وكانت الرؤية عنده قد أصبحت أكثر ظلمة ومضى حزينا وهو مشغول بنفس فكره القاسى المشتت ولبه الحائر فهكذا كان يسعى أن يخلص نفسه من هرج ذهنه ومرجه ، لقد عقد أصابعه معا ورفع قبضته وصاح وسط أحاديث منوچهر المتوالية :

" إنه شيطان ، إنه شيطان . "

آنذاك عاد إلى وعيه ونظر فيما حوله وهو مضطرب ، والتفت فوجد منوچهر بدلا من محمود فأطرق رأسه خجلا ، فنظر إليه منوچهر مندهشا وسأله :

" شيطان ؟ من تقصد ؟ "

نهض كمال من مكانه وقال بصوت مرتعد ومخنوق :

" يجب أن أمضى . "

نظر إليه منوچهر بدهشة بينما كان كمال يرتعد .

" ماذا حدث لك ثانية ؟ لم أستطع حتى الآن أن أعرفك ، لم هذا القدر من الاضطراب ؟ ثم ماذا حدث ؟ لماذا ترتعد ؟ تحدث يا كمال ، أنا... أنا ... "

قال كمال خائفا :

" لا ، لا ، لن أستطيع ، لن أستطيع ... "

ومشى بسرعة فى إتجاه الممر ، ورافقه منوچهر .

" أين تذهب الآن ؟ اجلس ، إن فرشته تنهى عملها الآن وسوف تأتى . قالت سوف تنهى عملها ، تأتى فى الوقت المناسب لتراك ، فلو خرجت ستتضايق . "

قال كمال بصوت مخنوق :

" سوف آتى غدا ، سوف آتى غدا ... "

خرج من المنزل ومشى فى الحى كالمجانين ، ولم يكن يستطيع أن يتنفس بيسر وكان يرى الظلام بعينيه فيرتعد من شدة الاضطراب ، وكان يسأل نفسه عن أشياء بخوف وكره ، عن الأشياء التى كانت تدور فى رأسه وتملأ فمه ولم يكن للسانه قدرة على نطقها ، وكان قد سعى أن يلقى بكل الأخطاء على عاتق محمود وأن يجعله هو الذى يثير التشتت والحيرة داخله ، فكان فى داخله عدم استقرار واضطراب ، لقد سيطر على قلبه كره لمحمود بلا سبب كأن الشيطان قد عشش ، وتذكر أنه كان يصلى طوال أسبوعين أو ثلاثة بدون حضور قلب ، فقط من قبيل العادة ورفع التكليف وهو كالجبناء لا يريد أن يواجه نفسه ويخاف أن يفكر فى الأمر ، وقد سعى بحمق أن يتجنب ما سلب حضور القلب ويتجاهل وجوده . يا له من جبان ، وياله من هلوع متساهل !!

وعندما وصل إلى المنزل دخل حجرته ، لم يكن أحد فى المنزل ، لقد ذهبوا جميعا إلى قم وفتح النافذة ، فوجد السماء مظلمة ، لا يبرق فيها نجم ، ولا يصدح فيها طائر ، ولا يكن هناك صوت ، ولم تهب نسمة ، فقد خيم الليل على المكان كله صامتا مخيفا .

فجلس بجوار النافذة حتى منتصف الليل وهاجمته بشدة أفكاره المحزنة ولم ينهض للصلاة .

* * *

عندما خرج من المنزل كان الجو ملبدا بالغيوم والسماء ترعد وتبرق لكنها لم تمطر ، وكانت الرياح الوحشية والمندفعة تكنس كل شيء وتبيده .

تقدم كمال غير مكترث وهو متعب ومضطرب ، وكان الشارع مزدحما ممتلئا بالضوضاء ، وكانت أعصابه منهكة ولم يتحمل الضوضاء ، وكانت الأشكال الواهنة للناس وخطوط مسيرات الشاحنات والسيارات التى كانت تتتابع بدون نظام وقاعدة تثير أعصابه ، ومع كل خطوة كان يخطوها كانت تهجم عليه أفكاره المحزنة بشكل أكثر ...

بالأمس كان يفهم فيم يفكرون من أجل اليوم وماذا يريدون أن يفعلوا ؟! لم يكن عارفا بالرقص وكان بينهم كأنه رقصة غير مناسبة فى عذاب ، وكان يسأل نفسه هذا السؤال مرات ومرات " أذهب أم لا أذهب ؟ " كان يعرف أن عدم ذهابه يغضب فرشته منه ، ولا يحب أن يغضبها منه وصمم فى النهاية أن يذهب ويقدم هدية ويخرج من هناك بحجة ما .

أما الآن فهو يضع يده المرتعشة فى جيبه ويضغط على علبة الهدية ، لقد ساور قلبه تردد وشك ولم يكن يدرى هل يقدمها لفرشته أم لا ؟ وكان يخشى أن تجعله سخرية لأصدقاء فرشته وكان صغر الهدية وثمنها الزهيد يعتصر قلبه .... صباح ذلك اليوم ، أحصى نقوده : ثلاث وثلاثون تومانا ونصف ، فقد بقى هذا المبلغ فقط من أربعمائة وخمس وخمسين تومانا قد وفرها الصيف الماضى من أجوره وإنعاماته ، فقد اشترى من مدخراته تباعا طاقم سترة وسروال وبضع قمصان وأربطة عنق وثلاثة أزواج من الأحذية وجوارب ومصاريف أخرى فضيعها . كان أبوه يعطيه

يوميا تومانا مصروف المدرسة بمن وأذى . لكن أيام الصيف كان يذهب إلى الدكان فيأخذ تومانا إضافيا على تومانه يوميا ، فالعطايا الكثيرة التى كان يقدمها له التجار الحمقى عند الوصول إلى أرقام مشترواتهم ، والتى كانت تعادل أحيانا عشرين أو ثلاثين ضعفا بحيث كان يوفره كله إلى أن يذهب إلى المدرسة . ولولا معونات أمه أحيانا لانتهت مدخراته بسرعة شديدة . وفى الوقت الذى كان يفكر فى منوچهر والذى كانت معه رزمة من النقود فى حافظته يصرف منها ببذخ ، وضع فى جيبه الثلاث وثلاثين تومانا ونصف وخرج من المنزل ، يفكر فى شراء هدية من أجل عيد ميلاد فرشته : كان يسمع أنه لا يجب على الإنسان أن يذهب إلى عيد ميلاد بيد خاوية ، فهو لم يشتر هدية لأحد قط ، ولم يأخذ هدية لإنسان فى أى مناسبة قط ، ولم يكن يعرف ماذا يشترى وماذا يأخذ ؟ .

خرج من المنزل وهو فى شوق لشراء هدية قيمة ومناسبة ، وتعجل أن يصل بنفسه مسرعا ليختار أفضل الأشياء وأجملها .

تجول فى الشارع لمدة ساعتين أمام واجهات المحلات الزجاجية ، وكان يخرج من هذا المحل إلى ذاك ناظرا إلى الأشياء المرتبة خلف واجهات المحلات ولم يجذب نظره شىء قط ، ليس هناك شىء قط جميل وجذاب كأنهم اشتروا قبله كل الأشياء الجميلة والمناسبة ، لقد دار الفكر فى رأسه فى كثير من الهدايا المحببة للنظر والجميلة دون أن يعلم ما هى وكيف هى ؟ وأمام واجهات المحلات كان كل ما فى خياله فى طور الغموض ، كل تلك الأشياء الجميلة طارت من رأسه وعجز عما يشترى ، وفى النهاية فكر أن يذهب ويطلب العون من البائعين ، آنذاك أحضر

أحدهما دمية صغيرة وآخر زجاجة عطر وثالث أدوات تجميل ، فاقترب ليشترى زجاجة العطر لكنه فى اللحظة الأخيرة صرف نظره عن شرائها وفكر أنه ربما لا تسعد بها فرشته . فالعطر الذى كانت تضعه كانت رائحته رقيقة ومناسبة ولا يؤذى الأنف ، بينما العطر الذى أحضره البائع كان نفاذا ، فأحضر له بائعون آخرون ملابس نساء داخلية وسراويل داخلية صغيرة وجميلة وحمالات صدر جميلة إلى درجة أنه خجل أن ينظر إليها . وبعد ساعتين من اللف والتجول ، كان متعبا ومرهقا هكذا إلى درجة أنه كان مستعدا أن يعطى نصف نقوده لمن يساعده فى شراء هدية مناسبة ، فلم يتخيل قط أن شراء هدية صغيرة تكون بكل هذه الصعوبة والمشقة . أخذ يتخبط من هذا المحل إلى ذاك ونفس الأشياء هى هى : لقد أحضروا له زجاجة عطر ، أدوات تجميل وملابس داخلية للنساء ، وكان حائرا جدا وفقد شعوره المميز ولم يكن يستطيع أن يفهم ماهو الشئ الجميل والمناسب من غيره ؟!

وبينما كان يمر من أمام محل ، جذب انتباهه فتاتان بالمدرسة كانتا تشتريان شيئا هناك ، وكانتا ترتديان ملابس فتاتى المقهى وتشبهانهما من خلف زجاج المحل ، فوقف ينظر إليهما بتفحص ، وما إن خرجت الفتاتان من المحل تتحدثان لم يكونا هما .

قالت إحداهما للأخرى :

" كأنه يطالب بدية أبيه ، المفضوح . "

وقالت الأخرى :

" الخلاصة كان يقول إن شخصا أحضره من باريس وتركه ليبيعه له هنا ، إنه أجمل بكثير من دبوس ناهيد . "

" ما دخل هذا بما تمتلكه ناهيد ، ثور الله فى برسيمه . إنه يتدلل ، خسارة إن المفضوح يبيع غالى جدا . "

توقفتا قليلا تنظران إلى الأشياء الموجودة خلف زجاج المحل وابتعدتا تتحدثان .

بعد ذلك جاء البائع ووضع شيئا خلف الزجاج ، فانحنى كمال وأمعن النظر ، إنه دبوس صدر . يصور فتاة ترقص ، وكانت الفتاة تقف على كف قدميها وتضع يدها على صدرها كالوشاح والأخرى على رأسها ، وكان للون الأخضر الزمردى بريق خاص ، إنه جميل فرغم نفاسته وصغر حجمه لم يستطع صرف النظر عنه . إنه لم يفكر فى هدية بهذا الحجم الصغير وحتى تلك اللحظة كان يطوف وسط الأصناف النفيسة مغمض العين فى إثر هدية ، لكن إعجاب الفتاتين به ولهجة حسرتهما ألقت بالشك فيه ، وعلى هذا الوضع قال لنفسه :

" أتجول ثانية ، ربما أجد شيئا أفضل . "

ابتعد عدة خطوات عن المحل لكنه فى الوقت ذاته كانت قوته قد انهارت من التعب وشدة الحرارة ، فقال لنفسه :

" أعود وآخذه بعينه ، فحتما إنه شىء جميل طالما سلب قلبيهما إلى هذا الحد . "

عاد بسرعة ودخل المحل وأشار على دبوس الصدر وسأل :

" كم ثمنه ؟ "

فنظر إليه البائع متفحصا غير مكترث وقال بفتور :

" خمس وثلاثون تومانا . "

سأله كمال بصوت مرتعش ويائس :

" ثلاث وثلاثون تومانا و ... ونصف ؟ "

تغير وجه البائع غير المكترث وطبع ابتسامة من بين شفتيه ، ثم ذهب بسرعة وأحضر دبوس الصدر وسأله :

" ألفه كهدية ؟! "

فهز كمال رأسه موافقا .

وعندما خرج من المحل ، لم يبق معه أية نقود ، ووضع فى جيبه علبة دبوس الصدر الصغيرة والتى لُفت بذوق بشريط ذهبى جميل وعاد إلى المنزل سيرا على قدميه ... والآن وهو ذاهب إلى منزلهم كانت فوضاه قد بلغت أوجهها ، وعندما وصل أمام منزلهم أحاط العلبة الصغيرة بأصابعه المرتعدة وهو فى قمة اضطرابه وقلقه ، وتذكر الورقة الصغيرة التى تصحب الهدية وارتعد . وفجأة تملكه العزم وود أن يعود وأن يخلص نفسه من هذا العذاب والقلق ، ولكن فى نفس اللحظة فتح باب المنزل وخرجت فرشته بيدها حقيبة وقالت :

" حسنا أن جئت يا كمال ، هيا نذهب معا ، أريد الخروج لشراء شىء . "

ثم أضافت :

" لقد سقط منوچهر من فوق السلم وشرخت ساقه ، وحتى الآن كنا مشغولين به ، وقد ذهبت سكينة لرؤية ابنتها أيضا ، وابنها الذى كان من المفروض أن يأتى للمساعدة أيضا لم يأت حتى الآن . وليس هناك أحد قط ليأتى للشراء معى ، ولم أشتر شيئا قط حتى الآن من أجل هذه الليلة فأنا متضايقة ماذا أفعل ؟ من خلف النافذة رأيتك قادما فسعدت ، هيا لنذهب معا . "

وفى التاكسى كانت فرشته تضحك وتحرك يديها الصغيرتين المحترقتين من الشمس وتثرثر وكانت تتحدث عن رحلتها على شاطئ البحر ، فقد ذهبت مع أمها وأبيها ومنوچهر وابنة خالتها سوسن إلى الفيلا التى اشتراها والد بهرام حديثا ...

" فى الصباح كانت مياه البحر باردة ، لكنها بعد الظهر مقبولة ومناسبة تماما ، وكنا نرقد على الماء فيحملنا الموج معه ، لاتدرى كم كانت السعادة ، فكل جسمى محترق وانسلخ جلدى بالكامل ، وعلمنى بهرام سباحة الضفدعة ، إنه ولد جذاب أسعدنا جميعا . "

كان كمال صامتا يستمع إلى كلامها ، كان وجه فرشته يبرق ويتلألأ من السعادة وكانت أجمل وأسعد من قبل ، وكانت ترتدى بلوزة جميلة ذهبية اللون ، وكان ساعداها المحترقان من الشمس الأملسان عاريين ، وقد خضبت شفتيها ، ورسمت خطا خلف عينيها ، وكانت وجنتاها حمراوين وشعرها الغزير اللامع ينسدل على كتفيها .

ونزلا من التاكسى وعبرا شارعا مزدحما وأخذا يتجولان فى عدة محلات ، وكانت الحقيبة التى يحملها كمال معه تزداد ثقلا تباعا ، وآخر حانوت ذهبا إليه كان لبيع المشروبات وقالت فرشته :

" الواجب على منوچهر أن يقوم بهذه الأعمال لولا أنه مصاب فى المنزل ، والآن لا مناص . لا يصح ألا نأخذ شيئا للأولاد . "

كان كمال مستسلما ، أينما ذهبت فرشته كان يمشى وراءها ، وكل ماكانت تقوله كان يقبله دون اعتراض ولكنه ارتعد فى محل بيع المشروبات ، فلم يحلم أو يتخيل أن تطأ قدمه هذا المكان فى يوم ما . كان يمر بها عن بعد وهو على بعد عشرة أقدام وبإكراه ، كانت وجوه الناس داخل المحل تبدو له مخيفة وجهنمية والآن ... كأنه مسوق بسحر يرى نفسه فى ذلك المكان ، وكان حائرا مشتت الفكر وأخذ ينظر إلى رف الزجاجات مختلفة الألوان بصنوفها وظل مبهوتا ، فكل شئ كان يمر عليه بهذا القدر من البساطة بحيث لم يتذكر الضيق والاشئمزاز الكامنين فى قلبه طوال السنوات الماضية من هذه الزجاجات مختلفة الألوان حتى يبعدهما عن نفسه ، فقد تعرض للمباغتة ، فكان يرى أن كل ما كان ينفره يمر عليه الآن بسيطا وعاديا بشكل لم يتخيله من قبل . ماذا حدث ؟ ولماذا بهت فقط ؟ لم يكن يدرى شيئا قط . فزجاجات البيرة والشراب كان يأخذها من فرشته بيده واحدة بعد الأخرى ويضعها بجوار بعض فى الحقيبة وفرشته تنظر إليه بابتسامة ، وكان لايهمه شيئا قط فى تلك اللحظة سوى رضا الفتاة الجميلة التى تقف بجانبه ، وكل ماكان فى نظر فرشته طيبا كان فى نظره طيبا ، وعندما خرج من محل بيع المشروبات

بزجاجات الخمر وسط جمع غفير من الناس ، أغمض عينيه لحظة وسأل نفسه مضطربا حائرا :

" من أنا ؟ "

كان يعرف أنه لم يعد هو نفسه ، لقد ضاعت نفسه . وفى نهاية اليأس كان يبحث فى داخل نفسه عن صورة ذلك الشخص الذى سوف يكون فى المستقبل ... صورة ماسيكون عليها فى يوم ما . فى تلك اللحظة كان يحس أنه معرض لهجوم شئ غامض عجيب يلتف به دون صوت ويبطء ويطويه داخل نفسه .

عندما جلسا متجاورين ثانية فى التاكسى كانت حرارة جسد فرشته التى اتكأت عليه تخرجه من أفكاره من نفسه وزجاجات الشراب ، وانمحى بعشق فى نظرته إلى فرشته بحيث قطعت حديثها ونظرت إليه بعينيها اللامعتين بحيرة .

فأطرق كمال رأسه خجلا وشعر بذرات العرق مستقرة على جبينه وطال صمت فرشته ، فرفع كمال رأسه ولاحظ أنها تنظر إليه بجرأة بعينيها البراقتين ... حتى المنزل ، ولم ينبس أحدهما بكلمة قط ، وكانت نظرة كل منهما تهرب من الآخر !!

وفى المنزل ، عاد كل شئ إلى حالته الطبيعية وسط الضيوف ، وارتفعت أصوات ضحكات فرشته مرة ثانية ، وانتحى كمال جانبا وجلس كالغرباء . كانوا قد زينوا الحجرة ، فكانت البالونات والفوانيس الورقية الملونة معلقة بالحبال ، وفى ركن من الحجرة كانت توضع على

منضدة تورتة كبيرة مع سبع عشرة شمعة ، وعلى منضدة أخرى كانت توضع الأطعمة الفاخرة وزجاجات المشروبات والليمون وخيار مخلل وجبن وعلبة مليئة بالسجائر الأجنبية ، وقد جمعت الهدايا على منضدة بجانب الحجرة ، وكانت فرشته تقول إنها تود أن تفتحها كلها معا ، وكان الضيوف جميعا فى عمر فرشته وكمال ، كانت البنات ترتدين الملابس العارية الأنيقة بدون أكمام ، بينما يلبس الأولاد السترة والسروال رابطين أربطة العنق أوالبنيقة . وظلوا يدخنون ويشربون البيرة بينما كانت الخادمة بزيها الجميل تحمل صينية من الفضة الخالصة فى يدها وتدور بأكواب الليمون ، وكانت أصوات الضحكات والأحاديث تملأ الحجرة . وكانت أشكال أغلب الضيوف مألوفة بالنسبة لكمال . إذ كان يراهم كثيرا فى منزل فرشته .

رأى سوسن ابنة خالة فرشته مأخوذة بشدة وهيام نحو بهرام ، تضحك باستمرار ويعلو صوتها شيئا فشيئا ، وكان دخان السيجارة يتصاعد بين أصابعها ، وكوب الليمون فى يدها وكانت فتاة ضخمة وطويلة ، ذات وجه مستدير أبيض وقوام لحيم . بينما كان بهرام ينصت إلى كلامها ومن كوب بيرته كان يرتشف جرعة جرعة ويقوم بحركات منتظمة بعضلات وجهه ويحرك رأسه .

ووقعت عينا سوسن على كمال ، وأطفأت سيجارتها فى المطفأة الموجودة إلى جوارها ، ووضعت كوبها على المنضدة وتوجهت نحو كمال ، وكانت ترتدى فستانا أصفر فاتح مفتوح الصدر بدون أكمام وكان ساعداها اللحيمان الجميلان قد أحرقتهما الشمس ، وعندما انحنت إلى

الأمـام لتـجلس على كرسى أمـام كمـال ، رأى كمـال الشق بين ثدييـهـا الأبيضين البارزين وحمالة صدرها البيضاء فابتسمت سوسن وبدأت بلا مقدمة :

" سـمـعت مـدحـا كثـيرا من فـرشـتـه عن إعطائك دروس ، ولابد أن تجىء لتشرح لى درسا أنا أيضا . "

لكن كمال تضـايق من لهجتها الآمرة ، ونظر إليها ولم يقل شيئا ، فقالت سوسن ثانية :

" تعرف أننى رسبت فى ثلاث مواد ، هل تأتى ، هه ؟ "

هز كمال رأسه قائلا :

" لا . "

ففتحت سوسن فاهها وتملك وجهها حالة من الدهشة :

" أوه ... لا ؟ لم لا ؟ كيف شرحت لفرشته ؟ "

عبس كمال ولم يقل شيئا . ثم قالت سوسن :

" أنت أفـضل بكثـيـر من المعلم الذى كنت قـد اخـتـرته ولم تـرسب فرشته فى مادة ، كل ما تريده فأنا ... "

فقطع كمال كلامها بحدة :

" لست معلم بيوت . أنا لا أعطى درسا لأحد . "

فتقوس حاجبا سوسن :

" إذن فلماذا شرحت لفرشته ؟ "

وبينما كان كمال ينظر دون تجاه معين كان الوقت يمضى عليه قاسيا وقال بحدة :

" أنا لا أعطى درسا لأحد . "

فقالت سوسن للمرة الثانية بفاه مفتوح ووجه مشدوه :

" أخيرا شرحت لفرشته أم لا ، هه ؟ انظر كم تريد فأنا ... "

فنظر إليها كمال نظرة تحقير وقطع كلامها بعصبية قائلا :

" إن فرشته أخت صديقي ، وأردت أن أساعدها . "

" حسنا أنا أيضا ابنة خالة صديقك . وفى النهاية رسبت فى ثلاث مواد ، وقالت ماما ... "

نهض كمال من مكانه وابتعد عنها دون أن ينبس بحرف . ومشى فى حجرة كبيرة وسط الضيوف . لقد تكدر خاطره من لهجة سوسن المهينة .

" عجبا ، يعرفونه بهذه الطريقة ، السيد المعلم . "

واعتصر قلبه ، وفى الوقت الذى يمشى ببطء وسط الضيوف ، كانت تدور فى رأسه أحاديثهم وضحكاتهم تؤذيه وترهقه جدا ، وكان كلام سوسن قد أسقطه فى حزن ، كان يجاهد فى إبعاده عن نفسه باحتقاره لكن لم يستطع ، فانقبض قلبه فى ذلك الجمع ، لكنه لم يستطع أن يبرح ذلك المكان . فالليلة فى بدايتها والتفكير فى العودة إلى المنزل يكدر قلبه ، وكان يخشى أن يعود إلى المنزل ويرى نفسه ثانية وحيدا مع آماله ويأسه .

وعندما كانت فرشته تدور فى الحجرة وفى كل مرة ترى كمال ، كانت تبتسم له بود . كانت تذهب لاستقبال الضيوف الجدد وتقدم وجهها ليطبعوا قبلة عليه ، واستبدلت ملابسها وارتدت فستانا فستقيا بدون أكمام . ومع كل حركة كانت تطلقها بقوامها المشوق كان فستانها يتموج مظهرا جسدها الجميل ، وكان وجهها يبرق من السعادة وحسن الطالع وترتفع ضحكاتها المقبلة .

ووصل فى سيره إلى جانب منضدة الهدايا وكانت مليئة بالعلب الصغيرة والكبيرة ، وأدخل كمال يده فى جيبه وهو مضطرب ، وبسرعة أخرج العلبة الصغيرة وبطريقة لا تلاحظ وضعها خلف العلب الأخرى ، ثم تنفس الصعداء بارتياح وابتعد ببطء من جانب منضدة الهدايا وخرج من الحجرة .

كان الظلام يطوى صحن الدار والنجوم تتلألأ فى ظلمة السماء . بينما يدور القمر وسط السحب كأنه طير وحيد . وزحف فى الظلام بلا صوت . وقد أطرق رأسه فيه وسحب قدميه على الأرض ومخه يتنازعه التعب واليأس ، ثم مر من تحت ظلال الأشجار الصلبة حتى وصل إلى حافة الماء . كانت مياه الحوض ساكنة راكدة فى الظلام ، وقد نقشت فيها صور النجوم الباهتة وكأنها أسماك بيضاء ، ووقف بجانب حوض الماء ، وتذكر أول يوم جاء فيه إلى منزل منوچهر وأخذته فرشته على حين غرة ، فتملك اللطف قلبه وشعر أن قطرات الدمع تسيل على وجهه ، فمنذ ذلك الحين تذكر أنه لم ير نفسه بهذا القدر من رقة القلب والإحساس . حتى فى طفولته كان يبكى قليلا ، لكن هذه الدموع وهذا الحزن الخانق

كانا يدهشانه ويحيرانه من نفسه الآن .

جلس على كرسى بجوار حوض الماء ، ينظر بعينيه إلى السماء ، وكان يشعر بحزن شديد وضيق ، فما حوله كان مظلما ، وكانت الصراصير تحدث أصوات رتيبة ومتآلفة أيضا ، وكان يسمع من خلفه أصوات ضحكات الأولاد وأحاديثهم فى الحجرة ، فنظر إلى السماء وتذكر أنه فى طفولته عندما يكون وحيدا وحزينا كان يسعد بالنظر إلى السماء ويسلم نفسه لحالة من السكر والنسيان وتجذبه السماء إليها كأنه قشة ، وكان يستغرق فى عظمة ملكوته وينسى أحزان وحدته ... فهو الآن يطلب العون من السماء ومن الماضى كان يريد أن يسلم نفسه للسماء لكن تلك " الذات " الأخرى لم يعدلها وجود ولم تعد السماء تجذبه نحوها وكان الماضى يتجسد خلفه كأنه الخرائب .

لم يكن يستطيع أن يكون مع ماضيه مرة ثانية ، مع أن المستقبل أيضا مظلم ومجهول بالنسبة له ... وأعاده إلى وعيه صوت الباب الذى أغلق من خلفه تماما وصوت أم منوچهر . آنذاك لاحظ أنه ظل فترة ينظر إلى السماء . فالأحزان المجهولة والأفكار المتقطعة والطارئة عليه قد أفعمت وجوده . نهض من مكانه ، لم يكن يحب أن يروه فى تلك الحالة وذاك الوضع . مر من بين الأشجار وقابل والدة منوچهر وسألها :

" ألا زال منوچهر نائما ؟ "

" لا ، اذهب إليه ، إنه مكتئب جدا . واسه بحيث لايفكر أن ينقل فراشه عند الأولاد ، إنه غير مستحب له . يجب أن يستريح . "

ثم نادته بصوت عال :

" منوچهر !! السيد كمال قادم إليك ، من الأفضل ياحبيب أمك أن تستريح هناك . "

كان منوچهر مستلقيا على السرير حزينا ومتكدرا ، فجلس كمال على الكرسى بجواره ، وسأله منوچهر :

" هل جاء الأولاد جميعا ؟ "

هز كمال رأسه وقال :

" كانوا يريدون أن يأتوا إليك ، وكنت نائما . "

قال منوچهر :

" مصيبة وحدثت . "

نظر كمال إلى الخارج . بينما كانت النجوم متألقة من خلف نافذة الحجرة . سأله :

" كيف وقعت ؟ "

فتهلل وجه منوچهر ، ووضع يده تحت الوسادة ، وأخرج مظروفا سحب من داخله ورقة نظيفة زرقاء اللون ثم ابتسم وقال :

" خذ واقرأها ، كل هذا ذنب هذا اللعين ".

أخذ كمال الورقة وقرأها . كانت رسالة غرامية كتبتها فتاة إلى منوچهر . وشم منها رائحة عطر مناسب داعب أنفه ، ولم يكن عليها توقيع ، وكان منوچهر يريد أن يخمن من الذى كتب الرسالة : فكانت عنده دلائل : كانت قد كتبت أن وجهى بأكمله أجمل من بروفيلى ، وقالت

إن ضحكتى جميلة . قلت لمنوچهر ولو أحسست أنه يحبها سوف تعرف نفسها به فى الخطابات التالية . قال منوچهر ضاحكا :

" لم أكن أدرى أن لى من يموت فى . "

ثم قال :

" لقد أحضره لى البوسطجى فى الصباح . ولا أدرى ماذا أصاب رأسى من ازدحام . ومهما فكرت من كتبها لم يتوصل عقلى بالراسلة ، ومن يستطيع أن يكشفها بين كل هؤلاء البنات . آنذاك كنت على الجزء الأعلى من السلم أخطط وأخطط كيف أمكر وأحتال حتى أحصل على توقيع بخط البنات أجمعهن ، فتشتتت حواسى بالكامل ، وتخيلت أننى على أرض الله ، ورفعت يدى من فوق السلالم ، وخطر لى وأنا أعلى السلم أن أذهب إلى حجرة ، وألقى نظرة على خط الرسالة ، وأنذاك سقطت من ذلك المرتفع إلى أسفل . "

ضحك كمال وقال :

" يجب أن تشكر الله ، فالسلم ليس به أكثر من خمس ست درجات وإلا لكنت الآن فى السماء بدلا من أن تكون هنا . "

ثم علت ضحكة منوچهر :

" هذه هى أول فوائدها ، المفتضحة ماذا يحدث لو وقعت باسمها ؟ هل كنت أكلتها ؟ فلتمت . "

قال كمال :

" قطعت قدميك حتى لاتمشى وراء الفتيات الأخريات ثانية . "

" ألن أحمل إليها ... لوحدث أكلت ثدييها تعويضا . "

" لو تفكر قليلا فحتما أنك تحدد من هى ، كتبت أنك قلت لها أشياء . "

رفع منوچهر صوته مقهقها :

" يابنى العزيز ، هذه هى حيلة المضطر . تعلم دائما إننى أقول فى الضيافات لبناتنا ونسائنا اللصيقات ، إن وجوههن كاملة أجمل من منظرهن الجانبى . حينئذ فهذه الجملة لها وقع المغناطيس وتكون سببا فى أن يديروا وجوههن دائما فى جانب وأنا أنظر إليهن جيدا . آنذاك أقول لهن أيضا إن ابتساماتهن رقيقة ، ودلنى على فتاة لاتظن بينها وبين نفسها أن ابتسامتها جميلة . "

وعلا صياح الأولاد من داخل صحن الدار ، وأخذ منه منوچهر الرسالة ووضعها تحت وسادته . ودخل الأولاد والبنات الحجرة بضحكاتهم وصياحهم ، وكانت فرشته تتقدم الجميع . وكانت تضحك بصوت عال قائلة :

" ... آنذاك وضع قدمه وهوى إلى أسفل . "

وارتفعت ضحكتها المتهللة . ودار الأولاد حول أريكة منوچهر . كانوا يضحكون ويمازحونه :

" هذه المرة أيضا يابنى ، اهبط بالباراشوت ، أخشى أن تحتاج إلى كرسى متحرك . "

" طار فى الهواء ، ومرة واحدة ذهب إبهام قدمه فى جيبه . "

" لايابني ، لقد مكر على الكل ، كان يريد ممارسة تمرين الطيران ."

كان منوچهر يضحك ويحاول الإجابة عليهم ، ثم خرج كمال من الحجرة بصحبة أولاد آخرين تاركين منوچهر وحده في الحجرة حتى يستريح .

وفي الحجرة ، التف الجميع حول التورتة ، كانوا قد أضاءوا الشموع ، والتفوا حول فرشته وعندما انحنت فرشته وأطفأت الشموع كلها ، انهمر الأولاد والبنات عليها يقبلونها ويرددون معا :

" عيد ميلاد سعيد

عيد ميلاد سعيد

عيد ميلاد سعيد فرى

عيد ميلاد سعيد . "

ثم غرست فرشته السكين في التورتة وقطعت قطعة ، وهجم الآخرون من ورائها على التورتة . كان كمال يقف في جانب ينظر إليهم . فأخذت فرشته قطعة له . وابتسم كمال لها قائلا :

" مبروك . "

فسألته فرشته :

" لماذا لم تأت في المقدمة ؟ "

ضحك كمال وقال على سبيل الكناية :

" حولك زحام شديد . فخفت أن أضايقكم ياسيدتي . "

" ياك من سئ الطبع ... "

بعد ذلك توجهت صوب منضدة الهدايا وصاحت :

" أريد أن أفتحها يا أولاد ، فأنا قلقة جدا من شدة الانتظار . "

فتملكت كمال رعشة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وسحب نفسه بهدوء من جمعهم وخرج من الحجرة دون صوت . ظل فى صحن الدار أين يذهب . فساقته قدماه تجاه حجرة منوچهر ، وكان منوچهر مستيقظا يقرأ كتابا فسأله :

" من أجل أى شئ هذه الضوضاء ؟ "

" إنها تريد أن تفتح الهدايا . "

" هذه عادة فرشته السيئة ، تمضى لتفتح الهدايا مرة واحدة ، بينما لايريد أحد أن يرى هدية الآخر . قلت لها مرارا لاتحدثى إزعاجا بهذا ، ولم يجد نفعا . "

ففى كل مرة كان يعلو صياح فرشته متهللا ، كان قلب كمال ينهار وكان ينصت إلى منوچهر ، لكنه لم يكن يفهم كل كلامه ، وكانت كل أحاسيسه مع صرخاتها نحو صحن الدار . آنذاك سمع صوت أقدام مسرعة من الخارج . فقال منوچهر :

" إنها لشخص آت هنا . "

فتح باب الحجرة بسرعة وبدت فرشته على عتبة الباب . كان وجهها أرجوانيا من السرور ، وفى اللحظة التى كانت علبة دبوس الصدر فى

يدها ، اتجهت ناحية كمال بلا تفكير ، ثم انحنت وقبلت خده ، فابتسم منوچهر وقال :

" هاه ، ماالموضوع يا أختاه ... تسهرين على نفسك جيدا ؟! "

نظر كمال إلى فرشته وهو مرتبك ، لم يكن يدرى ماذا يقول وماذا يفعل ؟! فلازال يشعر بالحرارة على وجهه من شفتى فرشته المثيرتين ، فأشارت فرشته لمنوچهر على دبوس الصدر :

" انظر إلى الشئ اللطيف الذى أحضره لى ، إنه جميل جدا . "

ثم اتجهت نحو مرآة الحجرة ، ووضعت الدبوس على صدر فستانها ، ونظرت فى المرآة وكان الدبوس يومض ويتلألأ كالنجم تحت بريق أرضية الفستان الأخضر الفاتح .

" كأنه صنع لفستانى هذا ياخبيث . من أين عرفت أننى سوف أرتدى الفستان الأخضر هذه الليلة ؟ "

أخذت تروح وتجئ مرات ومرات أمام المرأة . وبرقت عيناها من اللذة

" بالله إنه رقيق جدا ، جدا . "

ثم أعادت نظرها إلى كمال وهى راضية وسعيدة . وفى يدها قطعة الورقة التى كتب فيها كمال شيئا . ثم نظرت إليه فرشته ، واشتد انفعالها . كانت تنظر إلى كمال بطريقة لم تفعلها أبدا . قال منوچهر مبتسما :

" ياله من شئ جميل ذلك الذى وجده . لم أكن أدرى أنه بهذا القدر

الرفيع من الذوق . "

ثم غمز بعينه وقال :

" بعد ذلك لو أردت شراء شئ ما من أجل البنات لابد أن أصطحبه معى ، فذوقه أفضل منى . "

أمسكت فرشته يد كمال ونهضت من مكانها قائلة :

" لماذا تخرج دائما من هناك ، هيا نخرج . "

نظر كمال إلى منوچهر ، فشجعه منوچهر :

" اذهب ياعزيزى ، اذهب واهنأ . "

فأخذت فرشته يد كمال وخرجت من الحجرة ، وكان الجو أكثر ظلمة والنجوم أكثر ضياء ، وقفت فرشته تحت شجرة . كانت عيناها تبرق وتلهث . فقالت بصوت منخفض ومنفعل :

" ماهذا ... هذا الشئ الجميل الذى كتبته لى . مبروك عيد ميلادك يافرشته ... إنك جميلة وسماوية يافرشته ... كمال ... كمال ... ، أنا ... جدا ، شاكرة لك جدا . "

وفجأة شبت على قدميها وقفزت وأخذت رأس كمال بين يديها وقبلت شفتيه . ثم أمسكت يده واعتصرتها وجرت ناحية حجرة الضيوف وجذبته فى إثرها . فذهب كمال وراءها ثملا بلا حواس . إن قبلة فرشته أفقدته الوعى تماما ، وصبت مثل هذه الثورة والحرارة والنشوة فى جسده كلية بحيث يذهب بصحبتها إلى جهنم .

كانت البنات والأولاد يتحدثون كثيرا فى الحجرة ويرقصون معا .

جذبت فرشته يده . وارتعد جسد كمال وقال خائفا :

" أنا لا أعرف الرقص . "

فقالت فرشته :

" أنا أعلمك . "

" لا ، لا . "

فشبكت فرشته يدها بيده بإحكام . ولم تلق بالا إلى تعلله وتوسله ودفعته بقوة وسط الحجرة . وقالت بصوت منخفض :

" انظر ، هذه الطريقة ، قدم قدمك ، واستمع إلى النغمة ، آهاه ، بنفس هذه الطريقة ... "

ثم وضعت إحدى يديها على كتفه ووضعت يدها الأخرى بين يديه بلطف ، وأفهمته بالتدريج وأخذت تعد : "

" واحد ... اثنين ... ثلاثة ، واحد ... اثنين ... ثلاثة ... "

كانت أقدام كمال تروح وتجيء بلا إرادة وقد انجذب إلى حالة شبيهة بالنوم والحلم لصحبة فرشته هنا وهناك . فلا زالت طعم قبلة فرشته العذبة على شفتيه . وكف يده الذى كان ملتصقا في ظهر فرشته يمتص دفء جسدها ونعومته من تحت الفستان المثير . كان قلبه يدق بشدة . وكانت تدب في عروقه شهوة ولذة مسكرتان لا مثيل لهما ، واجتاحته سعادة ومتعة .

كانت فرشته تلازمه ، وكانت تقترب منه بحيث كان كمال يشعر بضغط نهديها المستديرين الصغيرين من تحت فستانها على صدره .

كان يود أن يحتضنها أكثر وأكثر . كان جسدها البض الرقيق ينزلق بين يديه ، وفي كل مرة كانت تحتضنه ويلتصق صدرها وجسدها بجسد كمال ، كان ينسى الرقص وكان يرتعد جسده كلية ويسخن . آنذاك كانت أذنه تسمع صوت فرشته المنخفض لحظة :

" لقد فعصتني أيها الفتى الطيب ، أيها الفتى الطيب ... "

عندما بلغت الأسطوانة نهايتها ، انفصل الكل تماما ثم ملأ الأولاد وبعض البنات أكوابا من الشراب ليشربوه في صحة فرشته . ولأول مرة يرى كمال كأس الشراب في يده ويرفع كأسه بصحبة الآخرين ... بعدها احترق حلقه وقطب وجهه . أغمض عينيه . كان يشعر بحرارة شديدة في معدته . عندما فتح عينيه رأى فرشته تنظر إليه بدهشة وابتسامة . استند على الحائط . بينما أصوات البنات والأولاد تطوى أذنيه وسأل نفسه :

" من أنا ؟ "

وملأ كأسه ثانية وقال بصوت عال :

" في صحة فرشته . "

ثم احتساه دفعة واحدة ونظر بعينيه الداميتين إلى فرشته بجرأة . بعدها سمع أن أحد الأولاد يغني بصوت جهير . ثم لاحظ أن فتى آخر بدأ في غناء أغنية . فنظر كمال وعرفه . إنه بهرام . فأنصت وقال لنفسه :

" ليس له صوت ، إنه يغني بصوت قبيح . "

وبينما كان نور المصباح يتضخم ويتسع ويلقى باللهب قال لفتاة كانت بجواره :

" إنه يغنى بصوت قبيح . ليس له صوت أصلا . "

لاحظ أن سوسن تهز كتفيها باستهانة وقالت محقرة :

" غن أنت أفضل منه . "

سمع صوته المغتر الصادح :

" أغنى . "

ثم نظرت سوسن بعينين مفتوحتين . كان منهمكا فى الغناء . كان بهرام قد كف عن الغناء والكل صامت ينظر له . رفع صوته عاليا . ومرت حالة من الدهشة والعجب بين الوجوه . فاقتربوا منه والتفوا حوله . لقد انتشر صدى صوته العالى والواجد فى أرجاء الحجرة . بعدها يصفقون له . واستندت سوسن عليه تلاطف كتفه بيدها الرقيقة اللحيمة قائلة :

" غن مرة ثانية ، ثانية ، برافو . "

سمع صوت فرشته :

" إن صوت كمال شامخ ورفيع . لماذا لم تقل حتى الآن إنك تحسن الغناء ؟ "

التفوا حوله وأصروا على أن يغنى ثانية . بينما كانت سوسن تصر أكثر من الكل ويعيون براقة ووجه منفعل أن يبدأ فى غناء نوع :

" يا حلوتى ، يا حلوتى   يا رفيقة العهد القديم
إجلسى إلى جـــــوارى   حـتى أرى وجـهــك "

لقد اندلع المصباح أمام العيون والوجوه ، وغاص كل ما حوله فى ضباب ، كان يسمع صدى غنائه :

" خلص نفسك من الألم   وأبعد قلبك عن الغـم "

ثم استعاد الآخرون قوتهم وغنوا معه :

" يا حلوتى ، يا حلوتى   يا رفيقة العهد القديم "

بعدها غنى كمال وهو سعيد بلا ظنون :

" آه أيها القلب المسكين ، لا تفقد الأمل "

" ربما صبحك الوضاء يأتى بعد هذه الليلة . "

ثم انهمكوا ثانية فى الرقص . كان الرقص سريعا مثيرا للانفعال ، وكانت البنات والأولاد متشابكى الأيدى ينحنون ويستقيمون ويدورون حول بعضهم البعض .

وفى ركن كان كمال يجلس ناظرا إلى فرشته برأس متمردة ومختلة حيث كانت ترقص مع بهرام . وكانت الأسطوانات تنتهى الواحدة تلو الأخرى وتحل محلها أسطوانة أخرى . اشتعلت الوجوه واستقرت عليها حبات العرق السميكة . وكانت العيون تبرق والصدور تدق بشدة حتى أنها كانت تموج على ملابسهن ... لقد حل رقص هادىء بعد الرقص السريع . كانت البنات تعانق الأولاد وتنزلق تحت إبطهم وهن متعبات لاهثات يرقصون على نفس اللحن الذى كان يرقص عليه كمال مع فرشته . وفى أحد أركان الحجرة المظلمة كانت فرشته ترقص معانقة

بهرام . ووضع بهرام يده حول خصرها الرقيق ملتصقا بها ... بعد ذلك وعلى نفس هذا النسق كان كمال ينظر إلى البنات والأولاد الذين كانوا يرقصون حتى شعر فجأة أن الرقص يضايقه ... فقد تملكه ضيق واشمئزاز من الرقص ... لم يكن مفيقا حتى الآن . تيبس فمه وماعت معدته .

ثم ... ها هو ينظر إلى فرشته مغتما قد وضعت خدها على خد بهرام وأغمضت عينيها . ساءت حالته فأطرق رأسه وضغط على شفتيه وجرى إلى صحن الدار بلا ضجة .

كانت السماء تكسوها قطع السحاب والمكان كله مظلم . جلس على شاطىء حوض الماء حزينا صامتا هكذا حتى هدأت رعشات حلقه . آنذاك غسل فمه ونهض من جانب حوض الماء . وكان يسمع صوت موسيقى الرقص رتيبة من طرف الحديقة الآخر .

ومن بين الأشجار مضى بخطى بطيئة وخرج من المنزل . وكان الظلام يخيم على الحى ، والليل يكسو المكان كله بظلاله السوداء .

* * *

عندما وصل إلى المنزل كان الكل نائما وكانت ليلة الجمعة وقد ذهب أبوه إلى قم كالعادة . فاستراح خياله من جانبه ثم فتح باب المنزل بالمفتاح ودخل حجرته . كانت أخواته قد فرشن فراش نومه وكان متعبا ومنهكا إلى هذا الحد الذى كان يظن أنه بمجرد الذهاب إلى فراشه سوف ينام . لكنه لم ينم ، فقد ساءت حالته . وكان عقله مشتعلا ومختنقا من شدة الضيق ، وكان يلتوى حول نفسه ويتقلب كأنه حيوان جريح .

" فلتمت ، فلتمت . "

أغلق جفنيه وأخذ يتقلب من هذا الجانب إلى ذاك حتى نام . فقد نام نوما عميقا لمدة نصف ساعة لم يشعر فيها بشيء . وفي أخريات الليل نهض من نومه وحالته تزداد سوءا واضطرابا . فأخذ يتقلب حتى نام ثانية لكنه لم يستيقظ بسرعة أيضا ، كانت حالته أكثر سوءا وقلقا . فكانت توقظه الأحلام السوداء والمفزعة .

... كان يريد أن يغنى لكن أصوات غير مستوية وفجة كانت تخرج من فمه . كان يبحث عن النوم وسط ضحكات الأولاد الذين كانوا يلتفون حوله . ثم ذهب ثانية فى النوم .

... حالما بأنه يتأبط فرشته . وأنه يمر من وسط الحديقة المليئة بالخضرة والجمال . وهو سعيد ومسرور قائلا لفرشته :

" ألا تعلمين كم أحبك ؟ "

فنظرت فرشته فى عينيه :

" أنا أيضا أحبك أكثر من الكل . "

... آنذاك رأى نفسه ملقى على الأرض ، لا يقدر على الحركة . فقال لنفسه :

" حتما أن قدمي شرخت مثل قدم منوچهر . "

بعد ذلك سمع أصوات أقدام . فبدا شخصان فى حالة رقص ونشوة . إنهما بهرام وفرشته . فقد أخذ بهرام فرشته فى حضنه وأخذ يقبلها . بينما كانت فرشته تلاطف شعره قائلة :

" أنا أحبك أكثر من الكل . "

كان قلبه يضطرب . كان يود أن ينهض . أراد أن ينهض من مكانه ويخرج من الحجرة التى كان قابعا فيها ، لكنه لم يستطع . حاول جاهدا . فقد كان يتصبب عرقا من النوم . فقد ظل أسير كابوس حتى الصباح حتى فتح عينيه ، كابوس ... كابوس ... كابوس ... ظل قلقا مضطربا حتى الصباح لم يستطع التحرك من مكانه . كانت رأسه ثقيلة وكأنها جبل حجرى ، وكان فمه جافا متيبسا مرا .

علا صوت أمه :

" لقد صرنا ظهرا . ألا تشرب الشاى يا كمال ، لماذا لم تنهض وتنزل ؟! "

أجابها كمال :

" أريد أن أنام . لن أشرب الشاى . "

فصعدت أمه :

" ماذا بك يا كمال ؟ "

" لا شىء عندى . "

وضعت أمه يدها على جبينه :

" رأسك ساخنة جدا . أنت محموم . أجل معلوم أن من يبقى خارج المنزل حتى وقت متأخر من الليل تريد ألاً يمرض ؟ (١) أين ذهبت الليلة الماضية ؟ حسنا انفلت زمامك . أحسن الله عاقبتك . "

---

(١) حرفيا : حتى بوق الكلب والمقصود نباح الكلاب فجرا .

قال كمال :

" قلت لك إن ... كان عيد ميلاد أحد أصدقائى وطال قليلا ، أظن أننى تعرضت لنزلة برد خفيفة . "

" حتما أنك عندما جئت عريت جسدك المبلل بالعرق ، لقد تعبت من كثرة ما قلت لك ، فكثيرا ما قلت لك لا تخلع ملابسك بمجرد مجيئك من الخارج ، فتشعر بالبرد فهل أجدى معك ؟ "

أحضرت اللحاف وغطته به :

" دعه حتى تعرق ، أتريد أن أرسل لك لبنا ؟ ! "

" لا ، لا أحبه . "

" أعد لك حساء فى الظهيرة حتى تقوى معدتك . "

وتملكت كمال حالة من لديهم نوبة برد ، لكنه لم يكن يحس بالمرض ، وكانت حالته مثل حالة شخص غُدِرَ به . وكانت رأسه ثقيلة وجسده ضعيفا هزيلا . كانت حالته سيئة . أراد أن ينهض عدة مرات لكنه فى كل مرة كان يستسلم للفراش مضطربا واهنا متعبا . لم يتذكر أنه تعب إلى هذا الحد فى وقت ما . ظل فى فراشه طيلة الصباح ناظرا إلى جنبات الحجرة وأعمدتها . كان حائرا ومضطربا . لقد ثقلت رأسه ، لكنها كانت فارغة هكذا ، وكان مخه متعبا ومتحجرا . ثم قام وقت الظهر ونزل . لم يكن لديه شهية . فشرب كأس الماء البارد دفعة واحدة . ثم أكل قليلا من الطعام وعاد ثانية إلى حجرته . فتذكر أنه وعد منوچهر بأن يذهب إليه اليوم . اضطرب قلبه لمجرد تفكيره فى الذهاب إلى منزلهم .

لقد فتر الشوق الممتزج بالحرارة للذهاب إلى منزلهم دائما . لقد اختفى الشوق والحماس الماضيين ..رقد ثانية ، لكنه لم ينم . لم يكن فى حاجة إلى النوم . ظل حزينا ومتضايقا . وما إن جاء وقت العصر حتى شعر أنه لا يستطيع البقاء فى الفراش أكثر من ذلك خاضعا لخيالاته وأوهامه المحزنة والمتعفنة فلبس ملابسه ونزل .

قالت أمه :

" لو كانت صحتك أفضل فأطل على خالك . إنك لم تذهب إلى منزله منذ فترة . وهو عاتب عليك . "

سار فى الحى تحت أشعة الشمس المحرقة . وكانت رأسه فارغة تماما . وكان مضطربا ومشتتا كذلك . مشى لفترة خبط عشواء . ثم توقف وتذكر أنه كان يريد الذهاب إلى منزل خاله . فغير طريقه تجاه منزل خاله . عندما وصل هناك كان خاله وابن خاله قد استعدا للذهاب إلى ضريح الشاه عبد العظيم فمشى معهما . كان ابن خاله يصغره بخمس أعوام أوست ، كان ثرثارا خفيف الظل . لقد حصل على الشهادة الإبتدائية . كان مغترا وسعيدا . فقد كان يحيط كمال بالأسئلة . كان يسأله باستمرار عن دروس المدرسة الثانوية . كان يشعر كمال بالتدريج أنه أينما يذهب يكون فى إثره ويقلده دائما فى كل أمر ويستمع إلى أحاديثه باستمرار . والاحترام الذى يلاحظه فى سلوكه بالنسبة له كان يحرك فيه شعورا بالسعادة .

عندما جلسا متجاورين فى الأتوبيس قال له :

" لقد وعدنى أبى العزيز لو ذاكرت مثلك سيسمح لى بالذهاب إلى المدرسة الثانوية . هل تدرى أننى أريد أن أصبح طبيبا مثلما تريد أنت ؟ "

ابتسم كمال وسأله :

" من قال إننى أريد أن أكون طبيبا ؟ "

" أبى وأمى ... ألا تريد أن تكون طبيبا ؟ "

" والله لا زلت لا أعرف . "

نظر إليه ابن خاله مندهشا :

" درست كل هذا ولا زلت لا تعرف ؟ "

" ما هو كل هذا ؟ لا زلت لم أحصل على شهادة الثانوية العامة .

" حسنا تحصل عليها العام القادم ، بعدها أيضا تريد الذهاب لدراسة الطب ، فتدرس وتذاكر إذن . أليس كذلك ؟ "

" لو نجحت . "

" حتما سوف تنجح . يقول أبى إنك تذاكر دروسك طوال الليل حتى مطلع الفجر . حسنا لو أريد أن أكون طبيبا أيضا يجب أن أذاكر مثلك أيضا . حتما أنا أريد أن أكون طبيبا . أذاكر إلى هذا الحد وأدرس وأدرس حتى أصبح طبيبا . "

أراد كمال أن يقول شيئا ، لكنه نظر إلى وجه ابن خاله السعيد والمتفائل وابتسم له قائلا بصوت هادىء :

" بالتوفيق . "

وعندما دخلوا صحن الحرم شعر بشعور مبهم وأخرس وظل ممعنا النظر فى القبة الذهبية ، فوقف ، فجذب ابن خاله يده وبدأ طريقه ثانية . كان ابن الخال يتحدث بحماس هكذا :

" ياه لو أصبح طبيبا ، أعالج الفقراء المساكين بالمجان مثل الطبيب الموجود بمنزل خالتى ... وأكتب على اللوحة بالمجان للفقراء . "

كان صحن الحرم مزدحما ، وكان الرجال يجلسون مع نسائهم وأولادهم حول الحوض الكبير . كانوا يشعلون النار للغلايات ويشربون الشاى . وكان الأطفال يجرون وراء بعض ويلعبون . وكان الحمام يلتقط الحب من على الأرض ويستحم فى الحوض ويرفرف بأجنحته . وكانت طيور اللقلق المعمرة قابعة أعلى الأشجار وتغرس مناقيرها الطويلة بين أجنحتها وتنعس . عندما لامست قدم كمال العارية الأرضية الحجرية والباردة للحرم تملك وجوده كلية ذلك الإحساس بالخرس الذى كان قد حدث له فى صحن الحرم ، وللمرة الثانية يشعر بالهجر والغربة . لم يسعده هذا الشعور الجديد كأنه سمع خبرا سخيفا فجأة ، كأنه ألقى به فى مكان غريب فجأة ، غريبا ووحيدا ...

آخر مرة جاء إلى هنا مضى عليها خمسة شهور أوست ، لكنه الآن وكأنه لم يخط خطوة هنا منذ سنوات ، ولم ير هذه الوجوه النحيلة الحزينة والعيون المتجمدة الحزينة والرقاب المحنية ، ففى ذهنه ذكرى آخر

مرة جاء فيها هنا ، كانت تبدو بعيدة غريبة بحيث لم يكن يستطيع أن يصدق تعلق خاطره بها . نظر إلى وجه خاله وشعر بنفس الغربة الخفية فى نفسه ثانية . نظر إلى جمع الناس الذين كانوا يتزاحمون حوله ، إلى العيون المتألمة والوجوه الحزينة المغتمة وتذكر قصص العصاة التى كانت تملأ ماضيه خوفا واضطرابا ، آنذاك تذكر أنه لم يصل منذ بضعة أيام فتملكه شعور بالحزن والخوف للحظة ، وبعد ذلك نفس الشعور بالغربة أيضا . إنه إنسان غريب فى مكان غريب ، بين جمع غرباء ... وما إن جذب نحو الضريح بين جموع النساء والرجال المتزاحمين حتى ترك نفسه دون أدنى مقاومة ، كان يريد أن ينسى نفسه وشعوره ، فهذه النفس مزعجة ، وأن يتوحد مع كل الناس مثل الماضى ويغوص فى جمع الناس ... دار وطاف ، دار وطاف ، مرات ومرات ، لكن بلا فائدة . هكذا ظل مع نفسه ولم يتخلص منها . عاد وانتحى جانبا . بعد ذلك وعلى نفس هذا المنوال اتكأ على حائط الحرم باحثا عن خاله وولده وسط الجمع الغفير . تذكر سكره ورقصه فى الليلة الماضية وأحس بالنفور .

" لماذا جئت إلى هنا ؟ "

خرج من الحرم وانتظر خاله وولده بجوار مكان خلع الأحذية حتى جاءا . كان خاله قد ذهب ليضىء شمعة فى اللحظة التى كان ابن خاله يلبس فيها حذاءه ، قال بصوت منخفض :

" من أجل أى شىء يضىء شمعة ، ماذا تفيد ؟ "

نظر إليه كمال :

" ماذا تفيد ؟ "

" أجل ، لا تعجبنى هذه الأشياء قط . كان معلمنا يقول إن أضرحة سادة آل البيت زائفة ، وسأله كمال بمكر :

" إذن فأى شيء ترضى عنه وتقبله ؟ "

" أنا ... أنا أعتقد فى الله فقط . كان معلمنا يقول إنه يجب على الإنسان أن يعتقد فى الله ورسوله فقط . "

ثم جاء خاله ولبس حذاءه وخرجوا من الحرم ، وقال ابن خاله :

" أبى العزيز ، تعرف أن كمال لا يريد أن يكون طبيبا أيضا . قال لى بنفسه ... "

فاستدار خاله مندهشا ونظر إلى كمال . وضحك كمال قائلا :

" متى قلت إننى لا أريد ؟ قلت لازلت لا أعرف حقا ماذا أريد أن أكون ؟ ! "

قال خاله :

" ألازلت لا تعرف ياحبيب خالك ؟ أى مهنة تهتدى إليها أفضل من مهنة الطب ؟ ياابن أختى ربما لاتعرف أن من يعمل بمهنة الطب يستطيع أن يمتلك هذه الدنيا ، والآخرة أيضا ... فالعلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان . فعلم الأبدان يطلق على مهنة الطب ، لو تسمع منى ياابن أختى ، فلا يرد شك فى قلبك . أنت ماشاء الله ذكى ومشاعرك جياشة جدا . مع أن أباك أخرك عامين عن المدرسة فلم ترسب فى الامتحان أبدا حتى الآن . "

قال ابن خاله :

" حتما أريد أن أكون طبيبا . أذاكر حتى الفجر وأدرس وأذهب إلى الجامعة لأصبح طبيبا . فقد قال الدرويش لأبى العزيز إنه لو تركنى أذاكر وأدرس نفس الدروس أصبح ملحدا بلا مذهب ، لكننى قلت لأبى عندما أكون طبيبا أصلى أيضا وأعتقد فى الله والأئمة أيضا . "

ولبضع لحظات ظل الأب ينظر إلى ولده نظرة إعجاب من قمة رأسه حتى أخمص قدميه .

* * *

ظل كمال مع نفسه في جدل عنيد ، وكان ينظر إلى ماأصابه بالحمى والألم بصمت غاضب .

" لماذا لا أستطيع أن أبعد فرشته عن تفكيرى ؟ لماذا لا أستطيع أن أنساها ؟ لماذا ؟ ولماذا ؟ . "

كان غاضبا من نفسه . ظل ثلاثة أيام لم يخرج من المنزل ولم يخرج من حجرته إلا لتناول الطعام . كان يجلس بجوار النافذة وبدون أن يفكر فى شئ كان يستغرق فى همهمة عريضة ، وكانت الصور السابقة تملأ فضاء فكره . لم يكن يستطيع أن يقرأ كتابا ، ولم يكن يستطيع أن يشغل نفسه ، وكان متعبا نافد الصبر .

وانزعجت أمه وقلقت ، وكانت تكرر الصعود إليه :

" ماذا بك ياكمال ؟ هل أنت مريض ؟ لماذا لاتخرج ؟ ألاتذهب عند أحد الزملاء ؟ "

كان أبوه ساكتا وينظر إليه بغضب ، وأحيانا كان يزوم من تحت شفته ويسأل أمه :

" ماذا به ؟ "

فكانت تجيب :

" إنه متعب ، ليس على مايرام . "

"هل حفر جبل ؟ "

" لقد أنهى امتحاناته لتوه . "

" امتحاناته ، هه ... بعد أسبوع سيضطر إلى المجئ إلى الوكالة للعمل ليخرج تعب الامتحان من جسده . "

وفى النهاية خرج من المنزل ، وفكر أن يسير تجاه منزل فرشته عاشقا لكن أفكاره اضطربت وسط الطريق وسأل نفسه :

" تذهب هناك ؟! ماذا تفعل ؟ "

وقف بجانب جدار . شعر بغصة فى صدره وحلقه ، وتذكر تلك الليلة فتضايق ومل من التفكير فى رؤية فرشته ، لقد صاحب هذا الضيق مضايقات أخرى . ومن انعدام شخصيته وانقيادها شعر بالحقارة واللوم فى نفسه ، ومرت أمام عينيه الصورة التى كانت تنفره منها دائما ، ورأى نفسه بطئ السير مشتتا جالسا بينهم أيضا ، وأيضا تلك الحالة الغامضة التى كانت تجعله غير واثق فى نفسه وتجعل منه إنسانا لا

يقوى على شئ منقادا ، نفس كمال الذى بإشارة من فرشته يطير من مكانه ، وبابتسامة منها يكون مستعدا لكل عمل حتى يكتسب محبتها وصداقتها له فيسرع إلى كل عمل .

" عزيزى كمال ، تعال ، اذهب ياكمال ، وضح لى هذا الموضوع الغامض ياكمال ، عزيزى كمال بيِّض لى الإملاء . "

حينئذ امتنع تفكيره أيضا عن الذهاب إلى منزلهم ، تكدر قلبه وبدأ فى سب نفسه .

" أحمق ، حمار ، ملعون ، ماذا تريد ؟ فى النهاية أن تفهم يا عديم الغيرة والشعور ، أصلا ، من أنت ؟ أصلا ماذا تريد ؟ ماذا تكون ؟ ولد مختل عبيط . "

ثم بصق على الأرض واستدار ليعود إلى منزله ثانية . كان أكثر تشتتا وانفعالا من ذى قبل . لم يستطع أن يوصد باب المنزل وخرج منه ، وحملته قدماه مسلوب الإرادة صوب منزل فرشته . لكنه عندما وصل إلى هناك ، منعه هجوم الأفكار المؤذية من الذهاب إلى منزلهم . آنذاك تسكع فى الشوارع بلا هدف أومقصد . كان الجو مظلما ، فعاد إلى المنزل منقبضا مهدما .

عندما دخل حجرته ، كان متعبا ومرهقا إلى درجة أنه سقط طريحا وكأنه قطعة رصاص وغاص فى نوم عميق . كان يرى فرشته فى أغلب نومه . ذات مرة رآها فى نومه وهى مرتدية ثوب عروس أبيض جالسة

بجواره وتبتسم له . عندما أفاق من حلمه ، تجسدت رؤياه هكذا حيث تعقبها في الظلام ومشى في الحجرة بعيون نؤومة وناداها :

" فرشته ، فرشته ، أين ذهبت ؟ "

بعدما استيقظ تماما ، تملكه حزن عميق مؤذ بحيث جلس يبكى .

كان أبوه يزداد ارتيابا فيه وغضبا عليه يوما بعد يوم ، حتى أنه عزم أن يأخذه معه هنا وهناك ، إلى الروضة ، إلى المسجد ، إلى قم ، وعندما كانا يخرجان من المنزل يبدأ فى إسداء النصح وتوجيه اللوم له إلى أن يعود ثانية إلى المنزل .

لم يكن كمال يصغى إلى كلامه ، ولم تحرك كلمات أبيه رغبة فيه . أولا توبيخ وفى النهاية يكون لوماً ، مرددا محفوظاته من النصائح :

ابنى العزيز ، لا أريد لك سوء ... ونفس الأمثال : جلس ابن نوح مع الأشرار ، الشجرة التى اعوجت ، المسمار الحديدى لا يدخل فى حجر ، وتلك الاستنتاجات : أنفقت عليك كل هذا ، وعانيت كل هذا من أجلك ، وكبرتك حتى تكون عصا يدى فى شيخوختى .

كان كمال ينظر إليه لكن حواسه لم تكن فى موضعها . كانت أفكاره مضطربة فلم يسمع شيئا من كلام أبيه المتواصل . ولم يترك المسجد والزيارة أثرا فيه أيضا .

كان يسير وراء أبيه برضا وتسليم حتى يتخلص من أفكاره المزعجة ، لكنه كان أحيانا وبلا إرادة يبتعد عن أبيه متملصا . كان يسير بسرعة

ويذهب فى ناحية ما كالمجانين ويأتى إليه بعد فترة ، كان يرى أنه لم يغير شيئا قط أيضا : كان نفس الشوق لرؤية فرشته والذهاب إلى منزلهم دائما ، ثم الضيق والحيرة وعدم الرغبة ونفس الأفكار المنفرة . ذات يوم كان يطرق رأسه ويمر من شارع مزدحم بلا هدف ، فاعترضه شخص من الخلف . استدار فرأى محمودا ينظر إليه بود :

" أين كنت ياأخى ؟ كأنك غريق تماما . كم سفينة تكسرت لك ؟ "

آخر مرة رآه كمال نفس ذلك اليوم السابق لعيد ميلاد فرشته ، فأحاديث محمود فى ذاك اليوم شتتت سكونه وجعلته يهرب من محمود متجنبا لقاءه وبلا داع ، لكنه الآن شعر فجأة كم هو سعيد بلقائه وكم يود أن يراه . ضحك وقال :

" حقا لقد غرقت ، أين كنت ذاهبا ؟ "

" إلى وكرى . وكرى قريب . تعال لنذهب ونشرب الشاى معا ونتحدث . "

مرا من بضع أزقة متعرجة حتى وصلا إلى المنزل ، وكان المنزل يضم أربع حجرات ، وكان يلعب أمامه بضعة أولاد كبار وصغار معا ، كان منزلا ذا فناء قديم واسع ، وكان صراخ الأولاد وضجيجهم يرتفع فى صحن الدار . وكانت حجرة محمود فى ممر طويل مظلم ، بها نافذة تطل على الزقاق ويشع فيها نور النهار إلى داخل الحجرة . قال محمود : إنه يوجد دهليز خلف الحجرة يطبخ فيه . كانت الحجرة تضم أثاثا قليلا : كليم يفرش الحجرة ، مجموعة كتب فوق بعضها على مدفأة ،

منضدة حديدية باهتة اللون نظيفة وضع عليها الأوراق والكراسات والكتب ، طفاية ، قلم حبر وقلم جاف ، كرسى وأريكة فى جانب من الحجرة .

خرج محمود من داخل الحجرة الصغيرة :

" لقد وضعت براد الشاى على النار ، عندما يغلي ، نشرب كوبين ثلاثة ، موافق ؟ "

جاء وجلس بجانب الأريكة وأشار على الكرسى لكمال :

" اجلس ياأخي ، هو غير مريح جدا ، لكنه أفضل من لاشئ . بالأمس اشتريته بمبلغ سبع تومانات من العملة السائدة بالممالك المحروسة من سمسار على ناصية الحى . "

وبينما كان ضجيج الأولاد يأتى من داخل صحن الدار ، كان كمال ينظر إلى الحجرة الصغيرة والضيقة للغاية فالتفت محمود إلى نظراته وقال :

" إنها مكتومة جدا ، هاه ؟ "

وأضاف :

" لقد تضايقت فيها فى الأيام الأولى . لم أكن قد عشت من قبل فى مثل هذا الوكر . ظللت مشتت الحواس لمدة ثلاثة أيام أو أربع ، ثم تعودت عليها . فالمنزل ملك سمسار بالسوق . إنه فى الحقيقة يعتبر رباطا للقوافل . إنه يحتوى على عشر حجرات أو اثنتى عشر حجرة كلها

مؤجرة . هل تسمع صراخ الأولاد ؟ إنه دائما نفس الشئ . نزال شديد وشجار وفحش وسب . هنا يمكن إعداد قاموس الشتائم العامية ، قاموس جديد لامثيل له : أظن أننى لا أذهب من هنا خاوى الوفاض وأحمل هدية من هنا : قاموس الشتائم العامية . حتما سأعده . فهذه النافذة التى تراها لها خاصية أنه عندما يأتى الأصدقاء يطرقون على الزجاج ليروا هل أنا موجود أم لا ؟ فباب هذا الرباط مفتوح دائما ... قل لى ماذا تفعل حقيقة هذه الأيام ؟ "

" فعلا لاشئ ، أتسكع كيفما اتفق ، لكن من الأسبوع القادم لابد أن أذهب إلى وكالة أبى للسخرة . "

" هل أنهيت امتحانك ؟ "

" اى ... تقريبا ، يجب أن أبدأ المذاكرة لدور شهريور [١] ، فقد بقيت أمامى مادتان أو ثلاثة ، لوتهيأت الفرصة ، أذاكر . "

" هل أنت مشغول أيضا ؟ "

" اى اى ... قليلا ، إننى أدرس ليلا ولبضع ساعات فى مدرسة ، ويأتى شخصان أيضا فى أيام ليدرسوا الانجليزية هنا . اى اى ، إنها طريقة يجب بها إمرار الحياة ، فالإنسان لايستطيع أن يكون مثل طيور الحواصل يأكل الهواء ويتبرز الحباب . "

ضحك كمال وسأله :

---

(١) شهريور : يقابل فى الشهور الميلادية أغسطس وسبتمبر .

" ألا يساعدك أبوك فى شىء قط ؟ "

" ربنا يأخذه ، حتى ولو أراد فأنا لاأريد . فعندما أستطيع أن أستقل بحياتى فما حاجتى إليه ؟ "

" إننى أقول بصدق هل انفصلت عنهم بالكامل ؟ إن الوحدة هنا قاسية جدا . ألم يضايقك إذن؟ "

" أحيانا أطل عليهم . وهم يأتون هنا أيضا بعض الأوقات . أهى ماشية . إلى الآن لم يمت أحد من الوحدة . "

رفع نظارته من على عينيه ، ووضع زجاجها أمام فمه ونفخ فيها ، وجذب طرف رباط العنق عليها وقال :

" لا ، لن أعود إلى منزل أبى ثانية ، فى أى وقت . أنا هكذا أكثر راحة جدا . "

ثم وضع نظارته على عينيه وابتسم بود :

" ذات مرة نهض أبى وجاء هنا ، وبدأ وهو لايزال على الباب فى الغمغمة غضبا : يكافح الإنسان ويعانى ويكبر الولد ، وفى الوقت الذى يجب عليه أن يأخذ بيد أبيه ويعينه فى شيخوخته وعجزه يتركه فى رعاية الله ويمضى مستقلا بنفسه ، إنه زمن عجيب . فبأى شئ يسعد الإنسان فى هذه الدنيا . لولم يكن لى ولد أصلا لقل غمى وحزنى . "

أخرج علبة السجائر من جيبه . ثم أشعل سيجارة واستمر :

" يظنون أنهم يربون الابن حتى يستغلوه ويستفيدوا منه دون أن يعرفوا أنفسهم أن كل ماعندهم أصبح تجارة واستثمار . ينبغى أن

تضع رأس مالك فى شئ لا يخسر . إن أفكاره تجعل المرء يشمئز . كل هذه الآداب والأحاديث التى وضعت عن المقام المعنوى للأب كلها هراء ولا تساوى خردلة . الحقيقة أن هناك اتفاقا له مدته وطويل من طرف شخص يسمي الأب ، ومحصول كثير المنفعة يسمي الابن ، وعند المهلة المقررة يتحول الاتفاق إلى صفقة طيبة بالفعل ، فى بعض الأوقات لاتستقيم الحسابات ويخسر مثلى أنا شخصيا الذى لم أقدم أى نفع لأبواى . وإذا كان الطرف الآخر بنت ، بنسبة ٩٠٪ ليس فيها ضرر أو خسارة . فى النهاية تجد زبونا سمينا وممتلئا اللهم إلاإذا كانت بضاعة غير مطلوبة ، وفى هذه الحالة يكون رأس المال مرفوضا ، لكن إذا كان ولد فالقاعدة أن يصبح عبدا ويضطره أبوه إلى السخرة . "

وبدت ظلال الحزن على وجهه وسكت برهة ، ثم قال ثانية وهو حزين :

" فى أثناء هذا نصيب الأمهات لا شئ ، هن سمسارات الاتفاقية . هن لهن مسئولية إزاء صاحب العقد والمتعهد عليهن تنفيذها ، وبعد ذلك لاأحد له علاقة بهن أوعلى حد قول أبى : أصلى هو الأب ، والأم مجرد وعاء . "

وبينما كان براد الشاى يغلى ، نهض محمود . دخل الدهليز ليصب الشاى ثم عاد وسأل كمال :

" ألم تر منوچهر أخيرا ؟ "

هز كمال رأسه وقال :

" لماذا ؟ "

وقص على محمود حكاية سقوطه من على السلم ، فضحك محمود وقال :

" آه ، هذا ذنب الفتيات اللائى قسا عليهن . ليس عيبا أن نطل عليه . فيها بعض الضحك . لقد سمعت أن أباه رشح نفسه لنيابة البرلمان . الدنيا فى يدهم آخرا . "

ومن داخل الزقاق طرق شخص على زجاج الحجرة بهدوء ، فانحنى محمود وقال بصوت خفيض :

" من الطارق ؟ "

ثم نهض من على الأريكة وفتح النافذة . ولاحظ كمال خطوط وجهه الحزينة منفرجة متمتما بسعادة :

" هل أنت ياماما ؟ أنا آت الآن . "

فأغلق النافذة وقال :

" لقد جاءت المرأة العجوز لترانى . "

وكانت عيناه تبرق ، نهض كمال من مكانه . فقال محمود :

" اجلس ، إلى أين ؟ "

فقال كمال :

" يجب أن أطل على دكان أبى ، ثم أعود إليك ثانية إذا كنت لا أضيع وقتك . "

فقال محمود :

" ابق الآن . أمي ليست غريبة ... حسنا إذا أردت الذهاب ، عد ثانية يا أخي . هذه الأوقات من النهار فرصة ، أكون موجودا في المنزل ولا شغل عندي ، حتما تعال أكون سعيدا بمجيئك . "

وخرجا معا من الحجرة . وعندما وصلا إلى الزقاق ، وقال محمود :

" ويلاه ... إنك لم تشرب الشاي أيضا ، لقد قمت بعمله على نار هادئة . "

فرد كمال :

" مرة أخرى . "

وخرج من المنزل . وفي الزقاق بجانب باب المنزل كانت تقف امرأة عجوز ذات جسم ضئيل ومهزوز ، تضع على رأسها نقابا أسود .

ودع كمال ومشى بسرعة . وعندما نظر إلى منعطف الزقاق من خلفه ، رأى محمودا واضعا يده خلف ظهر أمه يصطحبها معه داخل المنزل .

* * *

ومع كل الكراهة التي كانت لديه ، ذهب ليرى منوچهر . وما إن سمع من الخادمة العجوز أن فرشته ليست في المنزل وأنها خرجت مع بهرام حتى شعر وكأنها رفعت حملا ثقيلا من على كاهله .

كان منوچهر جالسا على أريكته يتصفح إحدى المجلات . عندما رآه ألقى المجلة جانبا وقال :

" يابنى أنت أيضا بوعدك هذا فضحت الأمور . أين كنت ؟ "

ضحك كمال وجلس بجانبه بجوار الأريكة . وشعر بسعادة لرؤيته منوچهر . فطبعه السعيد الهانئ أخرج كمال من حالة الحزن التى سيطرت عليه . ثم قال منوچهر :

" حتى أتجاوز عن أخطائك غن أغنية ، يا الله غن لنرى ، فقلب صاحبك منقبض بشدة . "

فضحك كمال :

" وإذا كان قلب صاحبك منقبضا أيضا ينبغى أن نرى من هو الذى يغنى ؟ "

" يارب تقطع قدماك حتى تفهم انقباض القلب يعنى ماذا ؟ "

ثم استقام على الأريكة وقال :

" أصدقنى القول يابنى ، أين كنت طيلة هذه الأيام ؟ الإنسان جالس هنا جاهل بكل شئ . وأخبرنى أيضا ماذا فعلت من أعمال ؟ بسرعة ياالله . "

" ماذا فعلت ؟ لاشئ قط ، كنت مسترخيا فى المنزل أعد أعمدة السقف . "

" تستطيع يابنى بأن تطل على هذا العاجز المقطوع عن كل الناس ، وآنذاك تستريح فى المنزل وتعد أعمدة السقف . "

" عندك حق ، حسنا الآن جئت ثانية ولازلت تطمع فى المزيد بعد كل ماحدث لك . "

" حسنا ، غن أغنية حتى أتركك ، فكل من قابلته كان يمدح فى صوتك . "

" إما أنهم سخروا منك أو سخروا منى . يابنى أى صوت وأى بدع تقصد ؟ لقد أخطأت فى تلك الليلة من شدة المداهنة والنفاق والسكر ، فكل ما قالوه وافقت عليه أيضا . "

" هكذا ، ثانية تريد أن تستغفلنا أيها الرفيق . أنت غاضب ، أولئك الذين أخبروا ومدحوا ليسوا بسكارى . "

" من الذى كان يمدح أيها المشعوذ ؟ من كان ثملا ؟ لاتظن أنك تريد أن تضحك علينا ؟ "

" بهرام ، سوسن ، فرشته ، كلهم . فأنا لا أصدق حقيقة كلمة من كلامك . إذا أتوا غدا وقالوا إننا رأينا كمالا يضاجع فى الشارع لما اندهشت قط . "

ضحك كمال وقال منوچهر ثانية :

" فى تلك الليلة كنت تتظاهر بالبراعة بحيث أشفقت عليك ، وقلت لنفسى: المسكين لايستمتع بوقته أبدا ويتحدث بسعادة ويسكر ويغنى ، يالك من تمساح عجيب ، الإنسان لايستطيع أن يفهم أفعالك . ألم يكن أنت الذى لو ذكر اسم المشروب أمامك يشحب وجهك . آنذاك كيف حدث

أن رفعت كأس الشراب وشربته جرعة واحدة . ثم من كان يتخيل أن لك صوتا ، من كان يراك تغنى حتى الآن ، لم أسمعك مرة تقول إن لك صوتا ، صوتا عذبا . لم أرك مرة تغنى ثم تدندن وسط المجلس ، ويقال لك غن ... غن بأى شكل ، والكل يريد أن يقدم لك الدعوة إلى منازلهم أيها المسكين . "

ابتسم كمال وقال :

" لا يابنى ، منذ أن كسرت ساقك وكلامك مستساغ ومنفذ . فمما مضى ، لم أشرب شيئا ، إنه كأس واحد . "

" إذن ماذا حدث حتى اختفيت مرة واحدة . خرجت دون أن تودعنى . لقد جاءت فرشته وسوسن وكانتا تبحثان عنك عندى هنا ، أين ذهبت ؟ "

أغمض كمال عينيه عنه وعبس وقال :

" إلى المنزل . لقد غالبنى النعاس ، فذهبت لأنام . "

قال منوچهر :

" خلاصة الموضوع أقولها لك إنك لمعت ووجدت جاذبية جنسية عند البنات . إذن لابد أن تكون شريكا لصاحبك ، لقد دعيت إلى عدة أماكن . "

" دعوة ؟ أين ؟ "

" الأسبوع القادم فى منزل سوسن ، والأسبوع بعد القادم فى منزل بهرام ، والأسبوع الذى يليه فى منزل آخر . لقد طلبت منى سوسن عنوان منزلك ، فقلت لها والله أنا نفسى لاأعرفه حقا . الخلاصة أن أبيها

من أولئك الهواة ، لقد جمع أسطوانات كل المطربين القدامى . "

سأل كمال مندهشا :

" من أجل أى شئ كانت تريد عنوان منزلى ؟ "

" لاأدرى لماذا : هل تظهر البنات شيئا للمرء . لقد طلبت منى أن أقدم الدعوة لك إلى منزلها من قبلها . "

عبس كمال وقال :

" حسنا . "

وفكر بينه وبين نفسه :

" إذن ، إنهم يقدمون الدعوة لى إلى منازلهم الآن من أجل الغناء ، حسنا . "

فسأله منوچهر :

" هل تأتى ؟ "

" إلى أين ؟ "

" قلت لك إلى ... منزل سوسن ، حتى ذلك الأسبوع سأمشى أنا أيضا . تأتى هنا لنذهب معا ، حسنا ؟ "

" وأحضر أيضا التار والنقارة حتى أسليهن أكثر . "

" لاتمزح . أريد أن أعرف هل ستأتى إذن أم لا ؟ "

تقطب حاجبا كمال وقال بضيق :

" لا ، لن آتى . "

فابتسم منوچهر :

" لماذا ؟ "

" لاأريد . "

" لماذا ؟ "

" لأننى لا أريد . "

ضحك منوچهر :

" الأمـان من قلبك هذا الذى لحنه الدائم عـدم الرغبـة . ذاك اليـوم أيضـا قلت لك هيا نذهب إلى هاتـين الفتـاتين ، هل تذكـرت ؟ كـرر قلبك القول : لا أريد لا أريد . "

" حسنا ، ماذا فعلت معهما ؟ "

" تصـادقت مع البدينة . هى نفسـهـا التى تعجبك ضـحكتـهـا . هى بعينها التى كنت تقول إن ابتسامتـها جميلة وإنك مسـتعد أن تضـحى بعمرك سنة حتى تضحك مرة ثانية أيضا ، هل تذكرت ؟ "

ضحك كمال وقال :

" أجل ، تذكـرت تمامـا . هى بعـينهـا التى قلت لهـا إن وجـهـهـا كله أجمل من منظرها الجانبى . تذكرت ؟ "

ارتفعت ضحكة منوچهر ثم قال :

"حقا لاأفهم لماذا لاتريد أن تسعد وتلهو . فأنت لازلت لم تذق طعم السعادة ، ولا تدرى كم من الوقت يمر على الإنسان سعيدا مع البنات . "

" لقد قلت هذا الكلام أيضا ذات مرة . "

" فيها متعة والله . تعال وجرب مرة . فأوضاعك الآن تسمح . "

" أية أوضاع يابني . إنك تلهو وتمزح . "

" كونهن اللائى يدعونك ، معناه هو أنهن معجبات بك . أنت غافل جدا عن نفسك يابني . لاأدرى حتى الآن هل نظرت إلى شكلك ، فكرت أنه من الممكن ألا تستاء البنات من مرافقتك ؟ ألا تلاحظ من أجل ماذا تريد سوسن عنوانك ، هاه ؟ "

" إنها تريده لكى أذهب إليها وأشرح لها ، البليدة رسبت فى ثلاثة مواد . "

وما إن أخبرمنوچهر بلقائه السئ معها حتى عبست أسارير وجه منوچهر وقال :

" إنها فتاة عديمة الإحساس . "

ومن أجل أن يغير كمال موضوع الحديث سأله :

" حقا هل عرفت صاحبة الرسالة ؟ "

علت ضحكة منوچهر :

" لا ، إن شئت الحقيقة الخالصة أنا فى سبيلى إلى أن أحبها ! "

وأخرج كراسة من تحت وسادته وقال :

" انظر إلى الحيلة التى قمت بها ، فكل فتاة كانت تأتى لزيارتى ، أعطيها حتى تكتب لى شيئا فيها . ترى كم أصبح صديقك العزيز عاطفيا . آه إن روحى ضعيفة معلقة مع المعشوق فى عالم الخيال ، أجل أجل فالكل عشاق للكل ، الأبواب عاشقة الجدران ، والمنازل كلها مأوى للعشق بلا باب أو قفل ، الأرض عاشقة مفتونة بالسماء ، والعالم عاشق لبعضه البعض . آه تلك النظرة التى تذيب الروح وتضئ القلب والتى تقول دائما انظر إلى واعطف على يا منوچهر ، كسبت بعين حولاء !"علت ضحكته وقال :

" كل لحظة أفتحها ، أود أن أتقيأ فيها . والله لاأدرى ماذا أفعل معها تلك التى دفعتنى إلى هذه الأمور . أنا فى سبيلى إلى أن أكون خبير خطوط محترم ! "

أخذ كمال المذكرة وتصفحها وكانت المذكرة مليئة بقطع أدبية قصيرة رفيعة المستوى . فشد نظره عدة خيوط دقيقة من بينها :

" أريد أن يحمل عنى أحد هموم كل يوم وكل ساعة وأحزانهما ، وأن يمسح دموعى ويبكى على حالى المسكين ... آه ... آه ... كم أنا وحيدة . ويهيج قلبى فرحا وسط الأغصان وأوراق الشجر . وأسمع دائما شكواه لكننى لا أفهم لغته . لماذا لا يدعو بلسانى ويتحدث ويتناجى مع قلوب أخرى استقرت على الورود وأوراق الشجر . أجل إن القلوب تفهم دائما لغة بعضها البعض ، وه ! ، لو يمضى هذا العقل الجاهل فأى عشق يمارسونه معا . آه لو ينهض القلب فى طلب الثأر ذات يوم فأى انتقام يأخذه من هذا العقل المفسد ... "

" رسم المصور صورة لها ونظم شاعر فى وصف عيونها . مثال نحت تمثالا لجسدها ، لكن لم يذكر إنسان قط قلبها ولم يفهم أحد قط أن لها قلبا فى صدرها . "

" أنت نجم ! وفى الليل المظلم الذى لانجم فيه أنت شمس . أنت ربيع ! وفى خريف قلبى المتناثر أنت ربيع أبدى . خذنى واحتوينى فى حرير حضنك الدافئ ، ودعنى أموت فى قلب النجم والربيع . "

" أيها الرجل ، انظر مرة فى عينى فحسب ، وابتسم فى وجهى حتى تجعلنى لك إلى الأبد . "

لقد وقعت أسفل هذه الرسالة سوسن . كانت بعض الخطابات بتوقيع وبعضها الآخر بدون توقيع ، قال كمال :

" بعضها جميل . "

قال منوچهر :

" كل ماقرأته المسكينات فى الكتب وضعنه فى المذكرة . لاتدرى كم هو مضحك . فكانت بعضهن تأخذ المذكرة وتمضى إلى الحديقة . عندما كن يرجعن ، كانت عيونهن تبرق بشدة ويكن فى حالة كنت أمنع نفسى عن الضحك عليها بمجهود . "

قال كمال :

" ... كان أسماء عدد من الأولاد فيها أيضا ؟ "

" أجل ، ليس هناك مكر قط ، عندما كنت أطلب من البنات كان إخوتهم يريدون أن يكتبوا شيئا أيضا ويتركوا تذكارا مثل أخواتهن .

لقد سرت فرشته من عملي هذا إلى درجة أنها تقول إن العمل الوحيد المحترم الذي عملته طوال عمري هو هذا . "

* * *

ذات يوم عندما ذهب إلى منوچهر سمع أنه غير موجود في المنزل ، فاستدار ومشى في الحي دون أن يسأل عن شئ آخر . ولم يكن يصل إلى ناصية الحي حتى جاءت سكينة وراءه لاهثة قائلة :

" هل للآنسة فرشته عمل معك ؟ "

ارتعد كمال وسأل مضطربا :

" معي ؟ "

هزت سكينة رأسها . فتكدر قلب كمال ، وكأن يد وضعت على جرح قديم . فامتعض وجهه وتساءل :

" أي عمل لديهم ؟ "

قالت سكينة :

" لاأدري . إنهم نهروني وعاركوني كيف لم أسمح لك بالدخول . "

أراد أن يعتذر ويتملص وأن يمنع نفسه عن الذهاب لرؤيتها لكنه قال لنفسه " إذن ماذا ؟ " ومشى خلف سكينة . ألقى نظرة إلى نفسه على باب المنزل . كانت هيئته مضطربة ، وملابسه قديمة ومنكمشة ومتغضنة على جسده . لم يربط رباط العنق . وكان حذاؤه قذرا وقميصه مبقعا . لم يحلق شعره منذ فترة وتذكر أيام لم يكن يأتي إلى هنا إلا بعد

أن يكوى قميصه وسرواله ويدهن حذاءه ويدهن شعره بالزيت أو يهذبه . فابتسم بمرارة وحزن وقال لنفسه :

" لو طلعوك ياسيد كمال من بين ورق مذهب ففرشته لن تنظرإليك ، فخيالك شديد الغباء . "

دخل المنزل ، وقالت سكينة :

" الآنسة فرشته فى حجرتها . تفضل إلى هناك : "

شعر كمال أن ضربات قلبه تدق بسرعة . فتوقف وحاول أن يهدىء من نفسه . وعندما اقترب من الحجرة ارتفع صوت فرشته :

" أنت ياكمال ، ادخل . "

كانت فرشته جالسة بجوار فراشها مسترخية بملابس نومها . وكانت هيئتها مضطربة ومشوشة ، وشعرها الأسود المتناثر ملتصق حول وجهها ، وكان وجهها منتفخا قليلا وعيناها غاشيتين . وبجانب يدها ، كان يرى على المنضدة عدة أغصان من الورد الأحمر فى زهرية بها ماء قليل ، وعدة أغصان أخرى فى كوب بجوار النافذة على مدفأة الحجرة . وكان فناء الحجرة مشبعا بعبير الورد الأحمر .

أفسحت فرشته مكانا ليجلس بجوارها ، لكن كمال فضل أن يجلس على كرسى بعيدا عنها . ابتسمت فرشته وسألته :

" هل أنت بخير ياكمال ؟ "

" أنا بخير . "

" لماذا لم تدخل ؟ لو لم أرسل وراءك لما جئت . ألم تشتق إلى ؟ "

" ظننت أنك غير موجودة بالمنزل . "

وأضاف بصوت مخنوق :

" ظننت أنك خرجت اليوم أيضا مع بهرام . "

" بهرام ليس هنا ، إنه مسافر . "

" إلى أين ؟ "

" إلى شيراز ، منذ بضعة أيام . "

" حسنا ، من أين لى أن أعلم . "

رقفت فرشته من صوتها :

" ألاتسأل عن أخبارى قط ؟ لقد تغيرت كثيرا ياكمال . أليس كذلك ؟ "

نظر إليها كمال وقال :

" لا . "

" لا ؟ لم أتغير قط ؟ ألاترى أية تغيير حل بى ياكمال ؟ "

نظر إليها كمال مندهشا :

" أى تغيير ؟ "

" ياللعجب ، ألاتشعر بشئ قط ؟ ألاترى أية تغيير فى قط ؟ هاه ... لاشئ قط ؟ "

نظر كمال دون إتجاه معين وقال ببراءة :

" لا . "

" لا شئ قط ؟ "

" ياللعجب ، كنت أظن أنك سوف تفطن في الحال ."

نظر إليها كمال مندهشا ، وقالت فرشته :

" انظر جيدا . انظر إلى عينى .ألاتشعر بشئ قط ؟ لاشئ قط ؟ "

" لا . "

تنهدت فرشته وقالت :

" الانتظار صعب جدا . فهذه الأيام العديدة التى مضت كانت عذابا بالنسبة لى ."

ارتعد كمال وسألها :

" من ؟ بهرام ؟ "

هزت فرشته رأسها وأدار كمال نظره عنها حتى لاترى فرشته وجهه ، فسمع صوت فرشته :

" آه . "

وأحنت فرشته رأسها لتشم الورد الأحمر . شعر كمال أن الدموع تجرى فى عينيه ، فنهض من مكانه وذهب بجوار النافذة . فتح النافذة وقال :

" الجو حار جدا ، جهنم . "

فالكبرياء الذى كان يشعر به دائما من تفوقه وأولويته على بهرام قد اختفى . فهو من الآن كان يرى رغبته ألما وندما . لقد أصبح محقرا وضئيلا .

أمام النافذة كانت السماء منبسطة ومضيئة كأنها زجاج وامض عن آخره . نظر إليها نظرة غاضبة ومضطربة . لم يتحمل شفافيتها وسكونها على وتيرة واحدة .كانت تؤذى أعصابه . أغمض عينيه وسمع فى ذهنه صدى صوت تحطم مفاجئ لزجاج . شعر بثقل يد فرشته على كتفه . فتح عينيه واستدار وسقطت يد فرشته من على كتفه . كان حائرا بلا حيلة . إنه لم يعد يتحمل رائحة الورد الأحمر .

"هل كبرت القطط الصغار ؟ "

ابتسم وجه فرشته المتفحص والحزين وقالت بانفعال :

" أجل ، ربما لم أخبرك أنهم أخذوهم منى جميعا . واحدة لبهرام ، وواحدة لـ ... آهاه ، تذكرت الآن . لقد وعدتك بأن أعطيك واحدة . يا لسوء الحظ . لم أتذكر مطلقا . إنه شئ مؤسف جدا .

" ماذا تريد الآن أن أعطيك بدلا منها ؟ "

قال كمال :

" لا شئ . "

" لا . قل ، قل شيئا . أعطيك شيئا بدلا منها ، كل ما يحبه قلبك . "

فارتسمت ابتسامة على شفتى كمال ، واستدار ثانية ناحية النافذة وقال :

" كانت سكينة تقول إن لك شغلا معى ، فاى شغل لك معى ؟ "

قالت فرشته :

" أجل أريدك فى أمر ."

ووضعت يدها على كتفه ثانية ونظرت فى وجهه وقالت :

" أنت أول إنسان يعلم سر قلبى . إياك أن تفشه لأحد ... هه ."

رفع كمال رأسه . وبدون أن تنتظر فرشته الإجابة قالت :

" كنت أعرف أنك جدير بالثقة . أنت ولد طيب ."

سمع كمال صوته المخنوق .

" أنا شاكر . "

" لايعرف أحد قط ، لا أحد قط .لهذا السبب نفسه كنت أريد أن تأتى معى غدا . "

" إلى أين ؟ "

" إلى المطار ، سوف يأتى صباح غد . أريد أن أذهب لاستقباله وأريد أن تكون مفاجأة له . هل تأتى ؟ "

" لوتريدين أن آتى . "

" سوف أكون خلف الباب فى الساعة الخامسة حتى تطرق عليه عدة طرقات فأفتح الباب ونخرج معا . لا تدرى ياكمال كم أحبه . "

وربتت بيدها على كتف كمال . فاقشعر وانتحى جانبا ونظر إلى باب الحجرة وقال :

" من الأفضل أن أخرج . "

وقفت فرشته أمامه :

" إلى أين ، إنك جئت الآن ، لن أتركك تخرج . "

نحاها كمال بهدوء ، فرائحة الورد الأحمر تكتم أنفاسه . لم تؤذه رائحة قط أبدا مثل هذه الرائحة . مشى فى إتجاه باب الحجرة ، فجاءت فرشته فى إثره وأمسكت يده ووضعتها فى يديها الدافئتين الرقيقتين . كانت يداها تفوحان برائحة الورد الأحمر :

" كم أنت طيب يا كمال ."

جذب كمال يده من يدها مسرعا من الحجرة وفى الحديقة كانت الشمس حارة بأشعتها وكانت رائحة شتلات الورد الأحمر تتصاعد فى الجو .

* * *

من بين أغصان الشجر وأوراقه كان كمال ينظر الى السماء اللامعة والمتألقة . فحرارة الشمس وأشعتها كانت تتناثر على الأرض من بين الأوراق الخضراء الكثيفة ، وكانت تلقى بالنقاط المشعة على قدمه . كانت ظلال الأشجار وشتلات الورد الأحمر وزهر العليق تغطى أطرافها . كان وقت العصر لكن الشمس بأشعتها المليئة بالنور كأنها أشرقت لتوها .

اتكأ على شجرة ، فكان يشعر أنه فقد كل شئ لقد أمضى صباحا وظهرا كئيبين بعد ليل أشد طولا وكآبة وحزنا . ليلة قضاها بأكملها فى نزاع داخلى والآن عاد من هذا النزاع ، ورأى فى نفسه نوعا من

الاستسلام . كانت انفعالاته قد سكنت . لقد استغرقت وساوسه في النوم ، كأنهم فكوا من حول جسده الحبل السميك والمحكم لكنه كان لايزال حزينا .

وعندما جاء في الصباح ليصطحب فرشته إلى المطار علم أن بهرام عاد من رحلته الليلة الماضية وكانت فرشته تطلب بإصرار أن يعود ثانية العصر .

" لا أحد موجود ، نحن أنفسنا ، بهرام وأخته وسوسن ومنوچهر . أريد أن أقيم وليمة محدودة جدا . "

الآن لأنه جاء إلى هنا وهو نادم ، كان يرى نفسه بينهم إضافيا فوق العدد . لماذا كانت فرشته تصر أن يأتي أيضا ؟ ظن في البداية أنهم دعوه حتى يغني لهم . ثم فكر أنهم يريدون إقناعه ليذهب إلى منزل سوسن ليشرح لها . من أجل هذا بعينه حاول أن يقترب من أخت بهرام التي كانت صغيرة وظريفة وجميلة . يجلس بجوارها ويتحدث معها ولايهتم بسوسن .

فالأسبوع الماضي ، ومع كل إلحاحات منوچهر لم يكن مستعدا أن يذهب إلى منزل سوسن . إنها المرة الثانية التي يرفض فيها دعوة سوسن . لكنه فهم الآن أن فرشته قدمت إليه هذه الدعوة حتى لاتبقى إحدى الفتيات وحيدة بلا رفيق .

كانوا يجلسون بجوار حوض الماء ويلعبون الورق . قد أكلوا وشربوا . وبالقرب من حوض الماء كان ينظر إلى أخت بهرام التي تعلم منوچهر

رقصة جديدة . ففى كل مرة كانت تعلو على قبضة قدميها وتدور ، كان يرتفع فستانها فيظهر فخذاها الأبيضان الأملسان . لقد اختفت فرشته وبهرام . لقد رآها كمال وسط أشجار الحديقة يظهران ويختفيان عدة مرات .

رأى سوسن قادمة نحوه وهي مبتسمة ، وقال لنفسه :

" ماذا تريد ثانية ؟ "

وتقطبت أساريره .

عندما كانوا يجلسون معا ، كان قد رآها عدة مرات تسمر عينيها الواسعتين السوداوين فى وجهه لم تكن تعجبه ، فجسدها الغليظ اللحيم ووجهها المستدير المحترق من الشمس لم يوقظ فيه أية إحساس قط . فقد قال لمنوچهر ذات مرة أن وجه سوسن كالدمى القديمة التى تصنعها الجدات من أجل أحفادهن . وكان منوچهر يضحك ويهز رأسه موافقا . كانت ذات حاجبين مقوسين وشفتين كبيرتين لحيمتين وعينين غليظتين سوداوين وأنف عريضة فطساء وذقن مستديرة مسمطة وإلى جوار هذا كان كمال يتضايق ويمل من غرورها الذى لادليل له والذى كان يراه فى عينيها ومن حركاتها وتصرفاتها السخيفة . ولم يكن يدرى لأى سبب يرى شبها بينها وبين بهرام كأنهما أخوان . كانت تصرفاتهما وسلوكهما يثيران اشمئزازه . فكلاهما كان يتحدث بطريقة خاصة فى مطهما الحروف والأصوات . كانا يحركان أيديهما أكثر من اللازم حتى تكاد تدخل الرأس والرقبة ويتحدثان عن الأمهات والآباء . كان كمال يرى كم

تختلف سوسن عن فرشته ، بينما كانت ملابس سوسن وزينتها صارخة وفجة ، كانت ملابس فرشته تبدو بسيطة لا تكلف فيها .

قالت سوسن بنفس لهجتها الخاصة :

" اليوووم ... جميل أو لا ؟ "

هز كمال رأسه ، فقالت سوسن ثانية :

" أنا عاشقة ... للصيف . "

وحركت ساعديها العاريين فى الهواء ، وضحكت ضحكة خفيفة بلا معنى كأنها جرس صغير يحركونه ببطء عدة مرات ، ونظرت إلى وجه كمال وسألته :

" أنت أيضا هل يعجبك الصيف ؟ "

" لا . "

" اوه ، لم لا ؟ "

رفعت حاجبيها ونظرت إلى كمال بطريقة وكأنه أدهشها :

" الإنسان ... يستطيع دائما ... نفسه ... أن يخفف ... ويتعرى ... يستطيع دائما ... أن يذهب إلى حمام السباحة ... حمام السباحة ... أنت !!! ... هل تذهب إلى حمام السباحة ؟ "

" لا . "

" اوه ، ألا تذهب ؟ لماذا ؟ أنا أذهب للسباحة . أليس بمنزلك حمام سباحة ؟ "

قال كمال ثانية :

" لا . "

" ألا تذهب إلى حمام سباحة ؟ عندنا حمام سباحة لكننا في الغالب ... نذهب مع ماما إلى حمام نادى سيلفر ، فرى ومنوج يأتيان أيضا هناك . وكان بهرام يذهب دائما إلى حمام شركة النفط ... "

وأطلقت ضحكة وقالت بلهجة لها معنى :

" سيأتى الآن ... نادى سيفر . "

ثم أطلقت ضحكة أخرى :

" حقا أين ذهبا هذه المرة ؟ إنهما اختفيا . "

وضحكت ضحكات متوالية ، واشتد ضيق كمال ، ونظر إليها صامتا عبوسا ، بدون ابتسامة ، بدون رد فعل قط .

رأته سوسن عبوسا فغيرت لهجة حديثها وسألته :

" هل أستطيع ان أسالك سؤالا ؟ "

هز كمال رأسه .

" هل أنت متضايق منى ؟ "

فرفع كمال رأسه ، وقالت سوسن ثانية :

" لا ، أصدقنى القول . هل أنت متضايق ؟ "

ونظرت إلى عينيه واستمرت :

" بخصوص تلك الليلة ، وحياة ماما لم أكن أريد مضايقتك . لقد

مدحت لى فرشته فى شرحك . فأخبرتنى ماما أن أقول لك بأن تأتى لتشرح لى أيضا . ولم تقل فرى لماما إنك تشرح لها من قبيل الصداقة . بالله العظيم إن الخطأ كله من فرى . لم تقل كلمة واحدة أيضا . آنذاك ظننت ... ظننت ، حسنا ، من أين كنت أعلم . عندما قال لك منوچهر أيضا ..."

سكتت لحظة وواصلت :

" إننى دعوتك ، كم من مرات اتصلت تليفونيا بمنوچهر . كنت أريد ان نتعرف على بعض أكثر . كنت أريد أن أصالحك وأرضيك . "

ثم سكتت ، وكانت قد نست لهجة كلامها الخاصة ولم تمط فى الحروف :

" أنت تغنى بصوت جميل ، جعلت تلك الليلة معمعة . وقد أخبرت أبى وأمى . تعلم أن أبى عاشق للأصوات الإيرانية .نمتلك كمية هائلة من الأسطوانات الإيرانية . إن صوتك يؤثر جدا على الإنسان ، جدا . "

وكانت تتحدث بانفعال :

" لم أكن أظن أصلا فى تلك الليلة أنك ستتضايق منى . ألاتريد أن تتصالح معى الآن ؟ "

وطبعت على شفتها ابتسامة حلوة ونظرت إلى عينى كمال بطريقة بها شوق إليه أكثر من أى إنسان ، واختفى الكبرياء الذى كان فى

عينيها . وفجأة نظر كمال بجرأة إلى شفتى سوسن الحمراوتين العريضتين وشعر بسعادة هكذا عندما نظر إليهما .

كانت سوسن ترتدى تنورة ضيقة ملتصقة على جسدها ، وبلوزة برتقالى بياقة مفتوحة تخفى بها العيون عن جلدها المحترق من الشمس وعن ساعديها البراقين . عندما رفعت يديها ، بدا من فتحة بلوزتها والتى بدون أكمام جزء من ثديها الأبيض الممتلئ والذى كان معلقا فى حمالة صدرها السوداء . كان كمال يرمق وهو مندهش أن سوسن لاتحاول أن تخفى عريها ،ولم تكن حساسة كالبنات الأخريات من نظرات الفتيان لجسدها .

ابتسم وقال :

" أنا لست متخاصما معك . "

وحركت سوسن إصبعها نحوه :

" أنت لم تصالحنى حتى الآن . لم تصالحنى حتى الآن . أنا عارفة . "

لقد تملكتها حالة الأطفال الصغار :

" تعال نتصالح معا . "

ومدت يدها نحوه وقالت بإغواء :

" تعال نتحد معا ونتصالح ، حسنا ؟ "

ومدت يدها اللحيمة ووضعتها فى يد كمال ، ولفت أصابعها الدافئة حول أصابع كمال ، ووزعت رقتها المثيرة فى يد كمال ، واستقر نظرها الدافئ والملاطف فى عينيه . شعر كمال بأن قلبه يغلى إلى درجة الاحتراق .

لقد انجذب ناحية سوسن بإحساس مرغوب وعجيب . عندما رأى منوچهر يستدير وينظر إليه مبتسما . ارتعد وسحب يده بسرعة من بين يدى سوسن ، فتضايقت سوسن لبضع لحظات وابتعدت عنه ، لكنها انجذبت إليه بعد ذلك مرة ثانية وتملكت جسده حرارة مقبولة . فمد يده نحو يد سوسن وهو مضطرب ، لكنه ارتعد قبل أن تصل إلى يدها . فسحب يده إلى الوراء بسرعة ووضعها فى جيبه كأنه ارتكب ذنبا . احمر وجهه ، وكانت أصابعه قد التهبت وأخذت تتثنى وتنفرد بوخز لذيذ .

كانت سوسن تنظر إليه وهى مبتسمة ، كان كمال بالنسبة لها حالة غريبة فهو يختلف عن كل الأولاد الذين كانت تعرفهم . تمنعه ، اعتزاله جانبا ، صمته الغامض كان شيئا جديدا بالنسبة لها . وتلك الليلة أثارها غناءه الفجائى . ثم أينما كانت تذهب ، كانت تعلن :

" كان هناك ولد صامت ... لم يكن يتحدث مطلقا ، لم يفعل شيئا قط . ثم غنى دفعة واحدة فى المجلس ، ياله من صوت ممتاز ، إنه كان يغنى غناء راقيا ... جميلا . لكنه اختفى مرة واحدة بعد ذلك ولم يدر أحد قط أين ذهب ؟ "

لكن اليوم مهما أصرت على أن يغنى كمال ، كان يرفض . لكنها تساءلت كيف إنه يستطيع الغناء بهذا الصوت العذب ولايغنى . لم تستطع أن تعرف .

أخرج كمال يده من جيبه واتكأ على الشجرة ، وظلت سوسن تمدح فى غنائه فى تلك الليلة . بينما كان كمال ينصت إليها هكذا ، تذكر تلك

الليلة التى قبلته فيها فرشته بجانب هذه الشجرة نفسها وقد أخذت يده وجذبته إلى الحجرة ورقصت معه . لقد أصيب حلقه بغصة واعتصار وشعر بضيق شديد فى صدره فصرف بصره عن وجه سوسن ونظر إلى الأشجار . ورأى بهرام وفرشته متشابكى الأيدى يسيران جنبا إلى جنب حتى حزن قلبه وشعر أن نظرته تتبعهما بحسرة وألم . ابتعد عن الشجرة التى كان يستند عليها وقال :

" مارأيك فى أن نسير قليلا ؟ "

أعطى ظهره إلى الناحية التى رأى فيها بهرام وفرشته ، ومشى بخطى بطيئة ، وفجأة شعر بالسعادة فهو ليس وحده ، إن سوسن بصحبته . شعر بالميل والمحبة نحوها . ضحك فى إثر أحاديثها وقال :

" الخطأ خطأك كله ، وإلا فإنه لم يبدر منى قط خطأ من تلك الأخطاء ، هل تذكرت ؟ "

ضحكت سوسن :

" أجل ، لقد تذكرت . أخذت تقول إن بهرام لايحسن الغناء ، وأخذت تقول ليس له صوت ، جادلتنى إذن ، فقلت لو أنت أعرف منه فغن أنت . آنذاك كم كان لذيذا ، لقد غنيت بصوت رخيم مرة واحدة لم يتوقعها أحد قط . "

" أجل ، وقعت على ظهرى وقمت بهذه الفضيحة . "

" أى فضيحة ؟ أى كلام ، هل تظن أنك قمت بفضيحة ؟ ومن ثم قل لماذا لاتريد الغناء ثانية ؟ "

" إذن لم أغن فى مجلس قط فى أى وقت . "

" إذن أين كنت تغنى ؟ "

" ليس فى مكان معين ، مع نفسى ، وحدى ، أحيانا . "

" كان بعض الأولاد يقولون إن صوتك مدرب . "

" كان لأبى صديق ، كان يغنى فى شبابه وبصوت جميل ، وهو رجل عجوز طيب كان يعلمنى أشياء من الغناء أحيانا. كان شيخا طيبا جدا ، هو ميت الآن . "

أخذا يسيران وسط الأشجار بجوار بعضهما ببطء . ونسى كمال كل آلامه وأحزانه . وكل لحظة كانت تمر كانت تقربه من سوسن ، وتملكته جذبة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . هياج وانفعال شبيه بحرارة نار هادئة كانت تدفئ قلبه المتجمد . كان يرى أن سوسن أحق بالرغبة . نسى فرشته ، وقالت سوسن :

" أنا عاشقة للأغانى الإيرانية مثل أبى . لقد جمعت كل أسطوانات بنان وقمر . "

سألها كمال :

" لماذا لاتغنين ؟ إن صوتك جميل . "

ضحكت سوسن بسعادة :

" هل صوتى جميل ؟ لا ، ليمت . كنت أود ان يكون صوتى مثل صوتك ، لكن ليس بيد الإنسان ."

" إن لم يكن صوتك جميلا فبدلا منه ابتسامتك الرقيقة . "

" أوه ، لا . "

لم تتوقع سوسن هذا الكلام . تهلل وجهها . وضحك كمال لها ، وفكر دون أن ينتبه في أن يستخدم حيلة منوچهر وكرر مرتين :

" جميلة جدا . "

فنظرت إليه سوسن نظرات دافئة ورقيقة . عجز كمال على أن يقول شيئا آخر ، فأطرق رأسه وبدأ يلعب في أصابعه بلا إرادة . جف حلقه ، وفجأة أخذ قلبه يدق . كان كلاهما صامتا. تذكر ماقاله له منوچهر بألا يجب أن تعطيهن فرصة للتفكير ، لا يجب الصمت وإلا انتهى تأثيرها . وتذكر الجملة التي كتبتها سوسن ، فقال بصوت منخفض :

" تكتبين أشياء جميلة أيضا . لقد أعطاني منوچهر كراسته فقرأتها . "

أغمض عينيه وهمهم من تحت شفته بصوت منخفض :

" أيتها الأنثى ، انظري في عيني مرة واحدة فقط ، وابتسمي في وجهي بود مادمت تفعلين هذا حتى تجعليني دائما ملكا لك . "

ضحكت سوسن بانفعال ، وبرقت عيناها من السعادة ، ورفعت يدها وقالت :

" ياخبيث ".

نظرت إلى كمال بسحنتها السعيدة وعينيها البراقتين السوداوين . كانت قد اقتربت منه أكثر . فكان كمال يسمع صوت أنفاسها وكان يرى التموجات التي كان يلقيها خفقان قلبها على صدرها .

" لماذا لاتغنى من أجلنا . كان منوچهر يقول دائما إن خطأى أنك لا تريد أن تغنى من أجل كلامى فى ذلك اليوم ... حقيقى ؟ "

" حقيقى أو غير حقيقى هل يختلف الأمر بالنسبة لك ؟ "

" إنه يختلف دائما . "

" لماذا ؟ "

قالت سوسن بإغواء :

" يختلف وبس . "

" ألا يجب أن أعرف ؟ "

" لا، أنا مخاصماك . "

" لماذا ؟ "

رفعت سوسن عينيها وألقت نظرة فى عينيه وقالت باغراء وعتاب :

" لم تغن لى . "

لم يستطع كمال أن يتحمل نظرتها ، فصرف عينيه عنها ، ودار بنظره إلى أغصان الشجر وأوراقه . وكان يسمع صدى صوت قلبه يدق فى أذنيه كالطبل ويشعره بارتفاع فى درجة الحرارة . ورأى بهرام وسط أغصان الشجر وأوراقه فى تلك الناحية وهو يحتضن فرشته ، وبدأ فى تقبيلها فجأة . فتألم صدره واستدار فجأة وبسرعة انحنى ووضع شفته على فم سوسن وقبلها بولع . ابتعدت سوسن عنه خائفة وقالت بغضب :

" ويلاه ، لماذا فعلت هذا ؟ "

ارتبك كمال وتحرك واحمر وجهه ، ونظر إلى سوسن خجلا وقلقا ولم يتحمل حرارة قيافته الحزينة ، فأطرق رأسه وتمنى ألا يكون هناك ، ليته لم يأت إلى هنا اليوم أصلا .

" لماذا فعل هذه الفعلة ؟ من أجل أى شئ فعل هذا الأمر ؟ ماذا يفعل الآن ؟ وأين يذهب ؟ "

ندم ندما شديدا واستاء من نفسه . أدار رأسه وتحرك فى حين كان يتجنب نظرات سوسن . مر من جانبها ، ومشى بخطى بطيئة مطرقا رأسه ، حائرا ومضطربا بين الأشجار . كانت يداه تقطع أوراق الأشجار بعنف وتنثرها تحت قدمه . مر من بين الأشجار وتوقف بجانب إحدى شتلات الورد الأحمر . لقد تصاعد عبير الورد الأحمر فى أنفه . وبكراهة اقتلع الورد الأحمر وفعصه فى يديه . كان داخله مليئا بالاضطراب . أغمض عينيه واتكأ على شجرة وتملك جسده شعور بالارتخاء والضعف فجأة . فتح عينيه على صوت أقدام . استدار بسرعة ونظر ، فتقدمت سوسن بخطى بطيئة حتى وصلت بجواره . لقد تملك وجهها الهدوء ، وتجنبت النظر إلى عينى كمال . قال كمال بصوت منخفض ومخنوق :

" أنا ... أنا ... لاأدرى ماذا حدث ... "

احتبس صوته ولم يكمل كلامه ، فنظرت إليه سوسن وهى صامتة لم تقل شيئا . ألقى كمال بالورد الأحمر الذى فعصه بيديه ، وسار بجوار سوسن ثانية وسط الأشجار . كان الصمت شديدا هكذا ، وقد جعله ضئيلا ومعذبا إلى درجة أنه أراد أن يتحدث ويكسر حاجز الصمت فسألها بصوت مأخوذ ومتردد :

" هل كنت تريدين أن أغنى لك ؟ ليس هنا إذن ، ليس أمامهم . هل تريدين أن أغنى لك الآن ؟ "

ابتسمت سوسن وهزت رأسها . اتكأ كمال على الشجرة وبدأ فى الغناء ، غناء هادئا ومترددا . بعد ذلك شعر أن قلبه يود أن يغنى حقا ، فأغمض عينيه وبدأ فى غناء غزلية :

" إن الحـديـث عـن هـمـوم العصـر لاتنفعك
مـادمـت لـم تـنـم ليلـة طـولها كسنة
إن حزن حال المتألمين ليس عجبا لو لم يكن لك
فإن حالا مثل هذا لم يمر بك طـوال العـمر . "

وشيئا فشيئا نسى تشتته واضطرابه . لم يكن يشعر بوجود سوسن أيضا ، كان يرى نفسه وحده مثل أغلب الأوقات التي كان يغنى فيها : وحيدا يسير فى حارة ، كان الليل والحى خال ومظلم . كان يناجى أحزان قلبه ويغنى ... عندما فتح عينيه ، كان الكل قد تجمع حوله ، فرشته ومنوچهر وبهرام وأخته ، بينما كانت سوسن ممسكة بيده تعتصرها وتنظر إليه منجذبة مفتونة .

* * *

كان منزل سوسن فى أقصى شمال المدينة . منزل حديث البناء ، حجراته مضيئة ومزدانة . يضم صحنا كبيرا وبساتين مليئة بالورود وحمام سباحة كبير وظلة صغيرة .

وفى نفس ليلة ذلك اليوم ، خرج كمال من منزل فرشته بصحبة سوسن وعرف منزلها ، فعصر اليوم التالى عندما ذهب إلى هناك ثانية فتحت الخادمة الباب له وسألته عن اسمه ، فذهبت ثم عادت واصطحبته إلى الظلة التى تجلس فيها سوسن وأمها وامرأة عجوز . كانت أم سوسن أكثر شبابا من أختها أم فرشته . كانت المرة الأولى التى يراها فيها كمال . عندما دخل الظلة ، اعتبرته أخا وقالت لنفسها :

" كانت سوسن تقول إنه ليس لها أخت أو أخ . "

كانت أم سوسن ذات شعر ذهبى . كان مصففا ومفرودا بالمكواة وكانت تغطى جلد وجهها بالبودرة والكريم ، وقد أزالت حاجبيها وبدلا منهما رسمت حاجبين جديدين يجلبان حالة من الدهشة فى شكلها ، وكانت ترتدى بلوزة رقيقة ذات رونق وبهاء ، وكانت تظهر ساعديها الأبيضين الرقيقين وشق ثدييها الجميلين البارزين . لقد بدا ساقاها الجميلان الأملسان من تحت تنورتها القصيرة الضيقة ، وعند رؤيتها اندهش كمال وارتبك . أراد أن يجلس فى نفس المكان على الكرسى بجوار الظلة فارتفع صوت أم سوسن :

" لا ، تفضل فوق ، تفضل هنا ، ياسيد كمال . "

أطاع كمال وجاء وجلس على الكرسى المريح الذى أشارت عليه أم سوسن . وأجاب مضطربا على سؤال سوسن عن حاله . قالت أم سوسن بصوت مليح ومطاط أيضا :

" أنت معنا قليل اللطف ياسيد كمال ، لماذا لاتشرفنا هنا . أختى تثنى عليك كثيرا . "

وتجنب كمال أم سوسن بعينيه ، فكل مرة كان يقع نظره على جسدها الأبيض نصف العارى الجذاب ، كان يدب في جسده حادث شبيه بالبرق ويحمر وجهه . علا صوت أم سوسن ثانية :

" إنه معلم ..."

وسكتت فترة وفهم كمال أن سوسن أومأت بإشارة إلى أمها . فقالت بصوت مرة ثانية :

" ... إنه صديق منوچهر وفرشته . وأختى ممتنة منه جدا . تثنى عليه كثيرا ... "

نظر كمال ورأى امرأة عجوز بعينيها البارزتين ، صامتة غير مكترثة تنظر إليه كالضفدعة . وجاءت الخادمة التى فتحت الباب لكمال . ووضعت صينية عصير أمامه ، واستدارت وهمست لأم سوسن :

" لقد شرف السيد فريبرز . "

ولاحظ كمال اضطراب وجه أم سوسن حين قالت لها :

" اذهبى وأحضريه هنا . "

لم تمر فترة حتى جاء إلى الظلة رجل حسن القوام ، أنيق الملبس ، طويل القامة . فنهضت أم سوسن وتقدمت مبتسمة . لاحظ كمال أن سوسن تنظر إلى الرجل بلا اهتمام . ثم أدارت وجهها دون أن تتحرك من مكانها وبدأت تلعب في يديها . وبعد ذلك ، وبينما كان كمال لايزال ممسكا بكوب عصيره نهضت من مكانها قائلة :

" لنذهب إلى حجرتى ياكمال لنبدأ درسنا . هنا ضوضاء . "

فوضع كمال كوب العصير على المنضدة أمام كرسيه ونهض . ولاحظ أن هيئة أم سوسن انقلبت ، وألقت نظرة سريعة إلى ابنتها ، وحركت شفتيها دون أن تقول شيئا .

خرج كمال من الظلة وراء سوسن . وعندما ابتعدا بضع خطوات عن الظلة ، قالت سوسن بصوت منخفض :

" إنه رجل دنئ . "

ومرا وسط أحواض الورد الأحمر حتى وصلا إلى حجرة سوسن الموجودة فى الطابق الثانى فى الجانب الآخر من حمام السباحة .

كانت حجرة كبيرة ومزدانة . كانت الحوائط مزدانة بمجموعات الصور ، صور الفنانين ونجوم السينما ، ويرى فى الحجرة عدة كراسى ، وسريرا جميلا بملاءة مطرزة بالحرير ، وأريكة ، ومنضدة زينة ، وصوانا للملابس ، وجرامافون . كان الجو حارا فى الحجرة ، فأدارت سوسن مفتاح مروحة السقف وقالت :

" إنها ستبرد الآن . إن حجرتى حارة جدا . "

وما إن جلست بجوار كمال على الأريكة حتى قال كمال :

" احضرى كتبك ، تريدين اليوم شرح الجبر أم الهندسة ؟ "

فقالت سوسن :

" لا شئ مطلقا . لا أحس برغبة فى الدرس اليوم . "

ونهضت من مكانها وحملت ألبوما من على مائدة الزينة ، وجاءت ثانية ، وجلست بجوار كمال . لقد وافق كمال على أن يأتى ليشرح لها ،

فقد جذبته قوة خفية تجاه سوسن . كان منوچهر يقول له :

" ياحمار ألا ترى أن سوسن معجبة بك . لماذا تبعد نفسك جانبا ، ألا تريد أن يكون لك صديقة ؟ بسرعة ياللا تقدم . "

الليلة الماضية ، لم ينم . فقد تذكر قبلة سوسن وضاع النوم من عينيه . فكل مرة كانت تأتى صورتها أمام عينيه ،كان يسيطر على قلبه شعور لذيذ . كان يغمض عينيه ، ويود أن يحفظ في نفسه هذا الشعور ، وأن يجرى في نفسه . كانت شفتاه ترتعشان معا . كان يجمع جسده وينكمش على نفسه ويتقلب على السرير وتطويه السعادة .

كانت متعة وسعادة تسرى في كل جسده . كان يتخيل أن سوسن بين يديه ، في حضنه ... يالها من لذة ... نهض من مكانه وجلس بجوار النافذة . يالها من سماء مرصعة بالنجوم . ياله من ضياء . ياله من نسيم بارد أخاذ . كان الكل نائما . كان طير يصدح في حديقة الجيران .اتكأ على النافذة . يحلم بمنظر الغد ، وجلس في حديث طويل مع سوسن في الخيال :

" تعرف ياكمال ، أعجبت بك من أول نظرة . "

" أنا أيضا . "

" لا ، أصدقنى القول ، أنا أعرف أنك لم تعجب بى . أنت عاشق لفرشته . "

" أنا ؟ عاشق لفرشته ؟ من يقول ؟ أنا أكرهها . فرشته جديرة ببهرام المقلد . هل رأيت كيف كانا يلتصقان ببعض ؟ "

" أجل ، فأنا أعرف هذا الفتى جيدا . إنه خرع جدا وسخيف ، لقد تملقنى بنفس الطريقة لفترة لكننى لم أهتم . أنا لا أدرى ماذا أعجب فرشته فيه . إذن هل بهرام إنسان حتى يحبه أحد ؟ "

" فى الواقع أيضا . "

" أنت تختلف عن كل الأولاد . أنت صنف آخر . الصنف الذى يعجبنى جدا . "

" ألم أضايقك بالأمس ، بتلك الفعلة ... "

" ضيق ؟ هاهاها ... فى الحقيقة لا ، أخذتنى على حين غرة . لم أكن أتوقعها قط . "

" تنتظرينها الآن . "

" انتظار ماذا ؟ "

" انتظار هذه ... "

" أوه ، لا ... لا . هنا ، لا . إنهم يروننا . تعال نذهب إلى حجرتى . نفس الحجرة التى حدثتك بأن نجلس فيها للدرس . "

كان يجلس فى نفس الحجرة بجوار سوسن ، وكان يفكر :

" أنا أحمق ، أحمق و أحمق . "

ونظر إلى وجه سوسن التى تملكتها حالة كآبة وفكر . لم يكن هناك خبر قط عن الأحاسيس الجميلة التى كان يتوقعها . فجأة مال إلى النهوض والذهاب من هناك .

كانت سوسن تتصفح الألبوم وتشير على صورها . سوسن فى عامها الأول ، سوسن فى عامها الثانى تركب جوادا خشبيا ، صور بين أطفال الحضانة ، صور وسط الزملاء فى المدرسة ، صور على شاطىء البحر ، صور مع العائلة ، ثم صور أمها بهيئتها وأوضاعها المختلفة وزينتها المختلفة ، وصور رجل أنيق الملبس قصير القامة ضئيل الحجم ووجه نحيل بشعر أسود ممشط . قالت سوسن :

" إنه أبى العزيز . "

بعد ذلك وبالتدريج ، كأنها كانت تتحدث مع نفسها ، أضافت :

" إننى أحبه جداً . "

نظر إليها كمال ولاحظ أن سوسن تنظر بحيرة إلى نقطة ما وارتعشت شفتاها وقالت :

" عديم الشرف . "

ثم نظرت إلى كمال وقلبت صفحة الألبوم بسرعة وقالت :

" إنه الرجل الذى أتحدث عنه . "

بعد ذلك وكأنها أفاقت ، ابتسمت وقالت :

" تعرف ، أنا أكرهه دائما . إنه إنسان ماكر ومحتال . "

وبدأت تخبره أن السيد فريبرز يريد أن يفتح ناديا يضم فيه أنواع وأقسام التسلية والهوايات ويريد أن يأخذ مساعدة مالية من أبيها .

وعاود الميل إلى الذهاب كمالاً . لم يستطع أن يقاوم فنهض من مكانه وقال :

" أنا خارج . لو كنت غدا فى حال تسمح لك بالدرس سآتى . "

فأغلقت سوسن الألبوم وقفزت من مكانها :

" لا ، لا تذهب ، الآن لا تذهب . "

كانت لهجة صوتها تحتوى على حالة من التوسل ، سألته بسرعة وبود :

" هل تريد أن تسمع الأسطوانة ؟ صوت بنان ، قمر أو أى مطرب آخر تريده . إننى أمتلك أسطوانات لكل المطربات الممتازات . مرضية ، دلكش ، رفيعى ، من تريده منهم . وبدون أن تنتظر إجابة منه إتجهت صوب مائدة الزينة وأخرجت ألبوم الأسطوانات من أحد أدراجه واختارت من بينهم مجموعة أسطوانات واتجهت ناحية الجراماقون .

وبعد المقدمة الموسيقية ، ارتفع صوت بنان العريض الدافىء :

" جئت روحى فداء لك ولكن لماذا الآن ... "

جلس كمال فى مكانه . كان يحب صوت بنان . كانت تموجات صوته تذكره بالعجوز الذى كان يعلمه ويدربه على الغناء . جاءت سوسن وجلست بجواره ، وسألته :

" هل يعجبك بنان ؟ "

قال كمال :

" جدا ، إنه أفضل مطرب . لا يستطيع أحد أن يغنى مثله . "

" إن أبى العزيز أيضا معجب جدا ببنان . هل سمعت هذه الأسطوانة ؟ "

" لا . "

" تعرف أنك تغنى دائما مثل بنان . "

" أنا ؟ "

" أجل ، تعجبنى النغمة الإيرانية جدا ، ليس معنى هذا أننى لا أحب المطربين الأجانب . لا ، فهذا شئ وذاك شئ آخر . يقول أبى العزيز دائما إن النغمة الإيرانية بها حرارة ، ولها لذة ووجد ، هى ملكنا . "

ثم تغيرت الأسطوانة وبدأت دلكش فى غناء أغنية . فقال كمال :

" لا تعجبنى دلكش . إنها تغنى برجولة . "

فضحكت سوسن وقالت :

" لا ، لا تقل هذا الكلام ، إنها تعجبنى جدا . "

لقد حدثت لهم حالة من السعادة والنشوة ، ولم يعد هناك فى هيئتها أثر سابق للحظات من المرارة والحيرة ، وقالت :

" غن أنت أيضا . "

امتنع كمال عن النظر إليها وظل صامتا لحظة ثم قال :

" تعرفين أننى نادم أصلا على تلك الليلة نفسها التى غنيت فيها . "

فقالت سوسن ضاحكة :

" حسنا ، لقد قلت للأولاد إنك تريد أن تغنى لهم . "

عبس كمال :

" لا يسعدنى مطلقا أن أغنى أمام جمع . "

" لماذا ؟ "

" أنا لست مطربا . "

" من قال إنك مطرب ، أربما كل من صوته جميل ويغنى لأصدقائه يكون مطربا ؟ "

" ليس الموضوع موضوع أصدقاء وغير أصدقاء . الموضوع كله أنه لا يسعدنى أن أغنى لأحد . "

" إذن لماذا ؟ "

" لا أدرى . "

ضحكت سوسن ومالت برأسها نحوه وقالت بإغراء :

" لى أيضا ، ألا تغنى لى أيضا ؟ "

لم يرد كمال . هاجمه ثانية الشعور بالرغبة فى الانصراف ، فنهض من مكانه :

" جلست كثيرا ، يجب أن أمضى الآن . "

ربتت سوسن بيدها على كتفه وأجلسته :

" لا بأس ، اجلس ولا تغن . "

قال كمال :

" عندى شغل الآن . "

" حسنا جدا ... ليس هناك تأخير . اجلس دقيقة أو دقيقتين فقط حتى أقول لك بضع كلمات . "

فجلس كمال ، وقالت سوسن :

" لماذا أنت بهذا الشكل ؟ "

" أى شكل ؟ "

أخرجت سوسن لسانها وشكلت صورة ساخرة على وجهها ، قالت :

" سىء الأخلاق ، سىء الأخلاق . "

ابتسم كمال وقال :

" لو أغنى هل أكون حسن الأخلاق جدا ؟ "

فأخرجت سوسن لسانها ثانية :

" تكون سىء الأخلاق . "

" إذن أغنى ... حبيبتى ويلاه ، أمان ، أمان . "

علت ضحكة سوسن وقالت :

" أنت خبيث جدا . "

تركت شفتيها اللحيمتين والحمراوتين نصف مفتوحة وبدت أسنانها البيضاء الجميلة . وأحس كمال بميل إلى تقبيلها . وبدأ قلبه يدق بسرعة . ونظر بجرأة إلى ساقيها الأبيضين الأملسين الطويلين . وفجأة تذكر فرشته . لكن فرشته لم توقظ فيه أبدا مثل هذه الحالة .

رفع بصره عن ساقى سوسن وأطل من النافذة وتذكر خيالات الليلة الماضية . كان يشعر بالخجل . ورأى أم سوسن خارجة من المنزل مع السيد فريبرز . نهضت سوسن ، وغيرت الأسطوانة وعادت وجلست ليملأ صوت بنان فضاء الحجرة .

استدار كمال بنظره بلا إرادة تجاه سوسن . كانت سوسن ترتدى تنورة ضيقة وبلوزة بنصف كم . فساعداها النضران والمليئان بالحيوية واللافتان للنظر كانا عاريين حتى أعلى المرفق .

ظل كمال ينظر إليها هكذا ، ومد يده وهو حائر ومتعب وأمسك يد سوسن الدافئة والرقيقة . كان يفكر أن سوسن لو جذبت يدها من يده لخرج من منزلهم ولما عاد إلى هناك ثانية أبدا ... كان واثقا أن سوسن سوف تجذب يدها مثلما حدث فى الحديقة فى ذاك اليوم ، وتنظر بوجهها العبوس المحقر ناحية باب الحجرة . كان يستطيع أن يبلغه بنفسه ببضع خطوات . وقال فى ذهنه لسوسن :

" لقد جئت هنا أصلا بلا إرادة . تعلمين يا آنسة سوسن أننى لست معلم بيوت ولست مطربا . وداعا . "

هكذا كان يثق فى تمنع سوسن ورفضها حتى قام نصف قيام . لكن على عكس تصوره ارتسمت على شفتى سوسن ابتسامة تحمل معنى وأطلقت يدها فى يده . ونظرت إلى عينى كمال بنظرة حارة ودامعة . فاحمر وجه كمال خجلا وبدأ قلبه يدق بشدة وكأنه يريد أن يقتلع من صدره . غيرت الأسطوانة . أخذ كمال ينظر إلى سوسن ، وهو مضطرب ومشدود إليها ، وفى تلك اللحظة كان يشعر بإعجاب بالغ تجاهها .

وانزلقت يد سوسن والتصقت بيد كمال . وكانت تدور بعينيها فى وجه كمال كالمعتاد ، وسألته بصوت منخفض :

" أنت معجب بى يا كمال ؟ "

فارتعد كمال وهز رأسه . وشعر أن الدم يجرى فى وجهه . فتجنب عينى سوسن . ونظر حائرا ومضطربا إلى جنبات الحجرة ، ثم سألته سوسن بدلال :

" إذن لماذا عندما قلت لك غن لى ، لم تغن ؟ "

" فيما بعد ... "

" الآن لو أردت أن تغنى لى ؟ "

فى الوقت الذى كان كمال يرتعد فيه مع دفء يد سوسن واعتصارها ، جعلت الحرارة تسرى فى جسده كلية وهز رأسه . وضغطت سوسن بيدها على يده أكثر :

" هل تغنى إرضاء لى أم من أجل أى إنسان آخر ؟ "

لم يجب كمال . وأطرق برأسه . والتفت أصابع سوسن فى أصابعه وتشابكت .

" غدا نجتمع فى منزل أحد الأصدقاء ، لقد أخبرتهم بأننى سوف أصطحبك معى . كلهم أصدقائى . ليس بينهم غريب . "

" هل فرشته ومنوچهر موجودان أيضا ؟ "

" لا . "

" لماذا ؟ "

" ليسا منسجمين معنا كثيرا . فنحن معارف لا تكلف بيننا . نجتمع دائما فى منزل أحد الأصدقاء ، وفى أحيان أخرى هنا فى منزلنا . ليس هناك غريب بيننا ، الكل غير متكلف . لا نسمح لأحد بالدخول بيننا من

تلقاء نفسه . أما أنت فمستثنى . أعرف أنك سوف تتألق . ليس بيننا أحد صوته فى جمال صوتك . "

" ماذا تفعلون ؟ هل ترقصون أيضا ؟ "

" أجل ، يعزف اثنان من الأولاد على آلة الأوكورديون ، وواحد على القيثارة . ويمر الوقت جميلا جدا . أعدك لو جئت مرة لوددت أن تأتى يوما . "

" أنا لا أعرف الرقص . "

" لا تفكر فى هذا ، سوف أعلمك . "

نهضت من مكانها وحملت عدة أسطوانات من داخل ألبوم الأسطوانات ، ووضعتها على الجرامافون وأمسكت يده وأوقفته من مكانه . قال كمال مرتعدا :

" الآن لا . "

فأخذته سوسن من يده وجذبته إلى وسط الحجرة .

* * *

فى الوقت الذى كان يدندن بأغنية ، وقف أمام مرآة طويلة ، وارتدى القميص الصيفى المربعات الذى كانت سوسن قد أهدته له ، ونظر بتفحص فى المرآة شاعرا بالخجل والسعادة . كان القميص رقيقا فاخرا وجميلا وكأنه حيك على جسده . ثم خلعه من على جسده حتى يلبسه فى الغد عندما يذهب إلى منزل سوسن . وارتفع صوت على الباب الرئيسى . ثم فى فناء الدار ، سمع صوت عمه الحاج ، فاختفى شعوره بالسعادة

والحبور . وتقدم بخطى مرتبكة تجاه نافذة الحجرة . لقد صفع وجهه عمود حرارة شمس بعد الظهيرة . من أجل أى شيء جاء إلى منزلهم ؟ هل بلغ مسامعه شيء آخر ؟ وبم اغتابوا ؟ فمنذ أسبوعين ماضيين أى منذ ذهب إلى منزل سوسن ، شعر بالذنب ، وكان يشعر أن السعادة واللهو كالمخدر تلقى به فى عالم شفاف من النسيان . منذ فترة وهو يتحاشى عمه الحاج . كان يذهب إلى منزلهم قليلا ، وقليلا ما كان يظهر نفسه له . جلس بجوار النافذة ، يلوم نفسه ويوبخها :

" لماذا تخاف من عمك الحاج ؟ ومن يكون أصلا ؟ "

لكنه كان شغوفا أن يفهم لماذا جاء عمه الحاج إلى منزلهم فى هذا الوقت من اليوم . صبر بضع دقائق ثم خرج ببطء من الحجرة ونزل درجات السلم درجة درجة ببطء . وأسفل درجات السلم ، سمع صوت عمه الحاج من داخل الحجرة :

" ... السيد الأخ ، لا تقحم نفسك ، ليس هناك صلاح أو خير أصلا . هل نستطيع أن نقوم بعمل ؟ هل نستطيع أن نشتبك معهم ؟ والله لا . بالله لا ، إننا نجعل أنفسنا أداة للسخرية . الإنسان العاقل لا يلقى بنفسه فى إشكال شديد خبط عشواء ولا يقامر بحيثيته . "

" لا يا سيادة أخى الأكبر ، من الأفضل ألا نلقى بأنفسنا فى ورطة دون أن نحس . فليعتبر أبوه . مالنا نحن . الوضع غير مناسب ، سوف يقبضون علينا ويلقون بنا فى زنزانة ، وآنذاك من الذى سينجدنا . من الذى يستطيع أن يمدك بالعلاج اللازم . هذا وهم حتى الآن لم يضربوا المعول الأول . وجدوا دكاكين عدد من الزبائن ذوى الحيثية . بالأمس

أرسل لى أحد المتدينين شخصا من طرفه يريد أن يعقد معنا صفقة من أجل الدكاكين . ليطمئن خاطرك ، فهذا الأمر معى ولن يستطيع أن يخدعنى . الرجل الحقير شديد الطمع تدخل فى صفقة المقهى ، وهو يتصور أنه يستطيع أن يأخذ منا الدكاكين بالمجان . إنه يخبط خبط عشواء . "

ارتفع صوت أبيه بانفعال :

" والله لا أدرى فيم تفكر يا أخى الحاج . أليس أساس فضيحتنا وسواد وجوهنا أنهم جاءوا ليبنوا سينما بجوار المسجد ، إذن أين ذهب الإسلام ، إنهم يسلبون عرض كل مسلم وكرامته آنذاك تقول يا أخى الحاج : نضع يدا على يد ونشاهد . كأن الله غضب منا وحول وجهه عنا حتى ترتبك حياتنا بهذه الطريقة . حقيقة أنا حائر ومندهش . من كان يظن ذات يوم أن تقام سينما على بعد خطوات من مسجد فى هذا الحى . ليجعل الله عاقبتنا ونهايتنا خيرا . يجب على مدعى الدين القواد المجوسى أن يوضع مكانه ، فهو أساس فضيحتنا . منذ أن جاء إلى هنا حل الكفر والفسق المكان كله . وزوجته ، تلك الداعرة التى تتزين تماما وتتسكع فى الشوارع ؟ وأولئك الفتيات بزينتهن إنه أيضا فساد خاتمتهن . بالأمس اجتمع أهل الحى فى منزل " السيد " يريدون أن يتظلموا ويكتبوا عريضة ... "

قطع عمه الحاج كلام أبيه :

" بالله لا فائدة هناك أيضا . الأوضاع فاسدة ، أنت ساذج يا أخى . وقبل أن تتحركوا يلصقن بكم بعض الرقع وآنذاك هات الحمار وحمله

بالفول . اتركهم يفعلوا ما يحلو لهم . ولا تدنس نفسك ، فالرأس التى تتألم لا تربط بمنديل . بالأمس هذا الرجل الذى كان يدعى أنه متدين كان يقول إنه فكر فى كل شىء ، لقد قال له رئيس الشرطة إنه لن يحدث شىء أبدا . كان يقول كل من يخرج صوته سوف يسجن . لقد انقضت أيام الفوضى[١] . إنه وقت السيد الأخ ، كنت تريد الذهاب إلى مشهد ، فماذا حدث ؟ لماذا أخرت ذهابك ؟ إنه أفضل مكان ، اذهب لتخفف عظامك من الذنوب ، أنا نفسى ألاحظ كل الأمور . السيد الأخ ، اطمئن بالا . "

استراح خاطر كمال . وتذكر كلام محمود :

" لا ، الدين فقط وجه القضية ، أساسها قائم على الاقتصاد . "

جر قدمه بصوت على آخر درجة من درجات السلم ونزل دون أن ينظر فى الحجرة ، مر من أمامها . ناداه والده . استدار ودخل الحجرة وألقى السلام . وبينما كان عمه الحاج متكئا على وسادة أعلى الحجرة كان أبوه يجلس متربعا بجواره . رد السلام على كمال . وانطبعت ابتسامة على وجهه الضخم والمستدير وقال بلهجة ذات مغزى :

" يا ابن أخى ، ألا تذكرنا ، ألا تطل على عمك الحاج ثانية ؟ أخشى أن تكون غاضبا منا يا ابن أخى ؟ "

قال أبوه :

---

(١) حرفيا : لقد انقضى عهد حسينقلى خان ، وحسينقلى خان : قاطع طريق مشهور يضرب به المثل على الفوضى عندما تضرب بأطنابها ويفعل كل إنسان ما يحلو له .

" هل هو غاضب ؟ يا لها من أخطاء . "

ثم تنحنح وقال :

" يا بنى اذهب إلى الدكان فورا ، لقد اشتريت شيئا ، احمله وأحضره إلى المنزل . وأخبرهم بألا يغلقوا حتى أحضر بنفسى ، فهمت ؟ "

عاد كمال إلى حجرته ، وارتدى ملابسه . وعندما مر من أمام الحجرة ، رأى عمه الحاج محنيا إلى الأمام يهمس فى أذن أبيه ، فاختلط شكل أبيه وتكدر وعبس وأخذت حبات المسبحة تتساقط من بين أصابعه .

كان الجو حارا والسماء كاللهب ، بينما كانت بيضاء بياضا باهتا ، كانت الشمس تخيم على المكان كله . كانت بضع نساء تجلسن تحت ظل شجرة بجوار جدول الحى وكن يغسلن الأوانى ويهمسن . فالليلة الماضية كان موعد ماء الحى ، وظل كمال مستيقظا حتى الفجر وملأ خزان المنزل ونام فى الصباح وقد حل به التعب .

كان يشعر بالخفة والسرور . بدأ الطريق الذى كان متجها ناحية الشارع ، لكنه استدار حتى يذهب إلى الشارع من السويقة . كان يريد أن يمر من أمام المقهى . كان منفعلا وكان يقول لنفسه :

" أواه ، من يتخيل أن تبنى سينما فى حيّنا ذات يوم ، أواه من يظن . "

ومر من أمامه بضع أولاد محدثين ضوضاء يسيرون على جانبى السويقة . وعرج فى حارة ذات أشجار ، فرأى فتاة جالسة بجوار جدول

الماء تغسل كوبا صغيرا وكأسا ، كانت ذات وجه أسمر نضر وعينين غليظتين سوداوين . مر كمال من أمامها . وتقدم بضع خطوات إلى الناحية الأخرى ونظر إليها ثانية :

" إن جو حارتنا ليس مليئا بالسيئات . "

فغطت الفتاة رأسها بملاءتها وابتسمت لكمال ابتسامة رقيقة ومؤثرة ، ونظرت بعينيها إلى أسفل خجلا وحياء .

كان قد تجمع عدة أشخاص أمام منزل متدينى ، كان باب المنزل مغلقا ، والستائر مسدلة على النافذة . وفى الناحية الأخرى ، كان العمال يهدمون المقهى ، والتف مشايخ الحى وكباره حول الحاج تقى بائع الغلال ، بينما كان الأولاد يقذفون العمال بالحجارة . قال الحاج تقى بصوت عال وبانفعال :

" اليوم وقد بنوا السينما ، غدا يؤسسون بيت دعارة ، آنذاك نجلس هكذا ولا نفعل شيئا قط . عجبا والله ، إننا أناس بلا غيرة ... "

قطع كلامه الشيخ حسن :

" الخطأ كله متدينى عديم الشرف . يقال إنه قدم قطعة من حديقته أيضا حتى يفتح باب السينما على الشارع . "

قال بابا البقال :

"إن الخال على لن يظهر ثانية . منذ أن أخذ ابن اللئيم خلو رجل ضخم لمقهاه ، لم يعد معلوما أين غطس ... "

قال الشيخ حسن :

" دار الزمان . تغيرت الدنيا . كل يوم معصية . كل يوم انعدام شرف . كيف يستطيع الإنسان ثانية أن يخرج مع زوجته لخطوتين . "

قال الحاج على الخباز :

" منذ أن سمع ابنى بالأمس أنهم يريدون بناء السينما هنا وهو فرح جدا . فأقول له ألا تخجل أيها الجيفة ؟ ألا تخجل ؟ كان يقف فى وجهى ويقول ، من أى شىء أخجل يا أبى العزيز ؟ فأقول له أيها الولد الجهول إنهم يبنون السينما حتى يسلبوا دين الناس وإيمانهم وينشروا الكفر وعدم الشرف . فيرد بوقاحة ، دعك يا أبى ، هذا الكلام عفا عليه الزمن . "

وعبر السويقة ووصل أتوبيس وهو فى ناصية الشارع فركبه . كان الأتوبيس مليئا بالركاب وأيضا بتابعى السائق ، كان ينادى من فترة إلى أخرى :

" خذ بالك من النشالين . معاك ريال واحد حافظ عليه . "

وكان السائق ينظر ويصيح :

" ارجع إلى الخلف يا سيد ، ارجعى إلى الخلف يا ست . "

كان كمال يتراجع مع الركاب الآخرين . وكان الركاب يثرثرون ويتحدثون بصوت عال ، وكانت أصواتهم تختلط مع صوت محرك السيارة . وسمع كمال أحد الركاب يتحدث وراءه بصوت منخفض :

" لقد وزعوا منشورا سريا فى حارتنا بالأمس . "

وسأل صوت آخر منخفض :

" أتقول حقا ؟ ألم يبيدوهم ؟ "

استدار كمال بفضول ودهشة ونظر إلى الشابين من ورائه ، فسكت الشابان ونظرا إليه بشك . وبعد فترة طويلة يسمع ثانية كلاما عن المنشور السرى . فكر :

" منشور سرى ! كم من الوقت ولا خبر هناك من هذا الكلام ؟ متى كان ذلك ؟ ففى العام الماضى كانوا قد أتوا إلى الحى وقبضوا على ناصر أغا الحلاق ، وكانوا يقولون إنه يوزع المنشورات . المسكين ، بأى وضع أخذوه مقيد اليدين . "

خلا الكرسى المجاور لكمال وبينما كان جالسا ، كان الأتوبيس يمتلىء ويفرغ قاطعا طريقه . وبجانب كمال جلس رجل نحيل بلحيته وهو يسبح ، وكان يستدير بين الحين والحين وينظر نظرة ملتوية إلى كمال ، وفى المحطة نهض من مكانه ووضع ورقة مطوية صغيرة في يد كمال ونزل من الأتوبيس . وجلست امرأة بدلا منه بجوار كمال . نظر كمال بتفحص حوله وإليها ، فلم يكن أحد قد لاحظه . حتى المرأة المجاورة له كانت تخفى وجهها بالنقاب حتى أنه لم يظهر شيء من تحت نقابها سوى عينيها السوداوين وأنفها المسحوبة كأنف العقاب .

فتح كمال الورقة بحذر وحيطة وقرأ خطها المتعرج والمعوج بصعوبة :

" ليلة الجمعة السيد نور إمام حى " باجنار " يوحى له فى النوم ويرى ولى إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه فى النوم . يقول إن طهران

غارقة فى الكفر والضلال ، وقد سيطرت جراثيم الفساد على كل مكان . سوف ينزل عليها بلاء من السماء بسرعة يحرق الأخضر واليابس معا . فعليك أن تخبر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ترشدها إلى الطريق المستقيم حتى تحذر من هذا الضلال . ويا بنى عندما تصلك الرسالة لابد أن تكتب منها مائة نسخة ، وتوزعها على مائة مسلم . لو تقوم بهذا العمل تبلغ مرادك وإلا نزل البلاء بك وبأسرتك خلال أسبوعين . "

واطمأن بالاً . أول ما وضع الرجل الورقة فى يده ظن أنها واحدة من تلك المنشورات السرية وتملكه الخوف ، وقرأ الرسالة مرة ثانية وابتسم وقال لنفسه :

" ما هذا ؟ مائة مرة . لا عشرة ولا عشرين بل مائة تكتب وتوزع على مائة رجل . ينبغى على الإنسان أن يكون بلا عمل والله . "

مزق الورقة وألقاها تحت الكرسى . ومن جانب الأتوبيس مرت سيارة فورد بلون الكريز . كانت شابة تجلس بجوار السائق . وفجأة بدا لكمال أنها سوسن . فقام نصف قيام ونظر بدقة إلى الأمام . تجاوزت السيارة الفورد الأتوبيس ، وانطلقت بسرعة واختفت عن عينه فى منعطف الشارع . سأل كمال نفسه :

" مع من تكون سوسن ؟ أين كانت ذاهبة ؟ "

واتكأ على كرسى الأتوبيس ونظر إلى الخارج وغاص فى التفكير . وفى نهاية الخط ، توقف الأتوبيس . نهض كمال من مكانه وهبط منه . فجرت خلفه شابة تحتضن طفلا ورجته :

" أيها الشاب ، لتحصد الخير فى شبابك . اعطنى نقودا لأركب بها ، لا حرمك الله من ظل أبيك . "

جلس فى دكان أبيه نصف ساعة ، وشرب كوبا صغيرا من الشاى ، وتحدث مع كاتب حسابات أبيه ، وبعد ذلك أخذ منديلا معقودا فى يد ، وفى اليد الأخرى علبة صغيرة من السمن وركب الأتوبيس وعاد سالكا طريقه .

عندما وصل إلى السويقة منهكا ومتعبا ، تعجب . فلم تكن السويقة كما كانت مزدحمة ومليئة بالضوضاء دائما . كان يخيم عليها صمت غير عادى . بعض المحلات كانت مغلقة . بعض الحراس كانوا يمرون فى السويقة . كانوا يظهرون ويختفون ويحملون فى أيديهم هراوات .

كان أمام المقهى خاليا . وكان العمال يدقون بصخب ويهدمون حوائط المقهى ويلقون الطوب الآجر والجص أرضا . وكانت سحابة من الغبار والتراب ترتفع فى الجو . وأمام منزل متدينى كان يقف أحد الحراس . فقد ألقوا بالقذارة على باب المنزل ، فحطم بعض زجاج نوافذ المنزل . وكانت حارة " درختى " خالية .

* * *

جلس كمال صامتا وظل ينظر إلى والد سوسن . كان متعبا وضائقا من كثرة ما قال :

" لا ، إننى لا أميل إلى هذا ، لا أستطيع الغناء فى النادى . فى

النهاية لست مطربا . أنا الذى ... "

كان متعبا من كثرة ما قدم من حجج وأعذار . ولم يفهموا كلامه مطلقا ، ولم يريدوا أن يفهموا وضعه وحاله . كان والد سوسن يصر أن يقنعه : كانت سوسن وأمها أيضا يشجعانه . كانوا قد أحاطوا به ، عبست سوسن وقالت :

" كمال كم أنت عنيد . "

وقالت أم سوسن :

" إن السيد يريد لك الخير والصلاح . "

وقال والد سوسن :

" والله كنت أود أن أقدم له خدمة . إنه فهم قصدى خطأ الآن . لا أصر على شىء آخر . "

قالت أم سوسن :

" منذ أن سمع السيد غناءك ، وأعجب بك جدا . بالأمس كان يقول لى خسارة أن تذهب كل هذه الامكانيات سدى . لابد من مساعدة السيد كمال ، والأخذ بيده وإرشاده . إن السيد كمال لا يدرى أى موهبة وهبها الله له . فقد طلب السيد من السيد فريبرز أن يضع لك برنامجا خاصا . ولم يكن السيد فريبرز مقتنعا أو راضيا فى البداية . لكن السيد أصر كثيرا حتى أقنعه . وفى رأيهما أن النادى أفضل مكان تستطيع أن تعرض صوتك فيه . "

قالت سوسن :

" إن أبى العزيز أعجبه صوتك منذ أول يوم . تلك الليلة ، عندما قمت بالغناء فى عرس ابنة العمة العزيزة مع اوركسترا حبيب الله خان ، أعجب أبى بصوتك . كان حبيب الله خان يقول إنه مستعد لتعليمك وتدريبك أكثر . كان يقول لأبى العزيز لو تتجرأ أكثر وتكثر الغناء هنا وهناك حتى ينضج صوتك تماما ، تكون واحدا من أفضل مطربينا . "

قال والد سوسن :

" أجل ، أجل ، غن ، غن فى كل مكان ، لا أضع فى حسبانى قط سوى سعادتك وارتفاع شأنك . إنه أفضل لك أيها الشاب . "

قالت أم سوسن :

" إنه سيوافق ، فأين يوجد مكان أفضل من النادى . فالنادى مكان للناس المحترمين ولا يسمح فيه بالدخول لأى إنسان . "

قبل أن كان والد سوسن يلح ويصر لعدة مرات ، أراد أن يصطحبه ذات مرة إلى منزل أحد الأصدقاء ، وكان يقول :

" لقد عاد أحد الأصدقاء من رحلة بأوربا . نريد أن نجتمع معا حوله فى إحدى الليالى . تعال وغن لنا بضع أغنيات . "

إنه كان يكبر أم سوسن بعشرين عاما . وذات يوم كان يجلس فى ظلة الحديقة مع سوسن حين دخل فجأة . إنه رجل فى سن الخمسين . كان وجهه متجعدا ومتغضنا . كان حاجباه كثيفين وعيناه سوداوين حادتين . كان شعره قليلا ، لامعا نظيفا قد أسدله فوق رأسه . وكان

بياض عينيه يميل إلى الصفرة ، وحركاته الخفيفة غير الساكنة كانت تدل على أنه على غير ما يرام . فقالت سوسن :

" أبى العزيز . "

فمد الرجل يده بشكله المضطرب وتتبع كمال :

" أنا سعيد . "

وجلس أمام كمال وبدأ يسأله سؤالا تلو الآخر :

" أين تدرس ؟ ماذا يعمل أبوك ؟ كم دخله ؟ من أين تعرف منوچهر وفرشته ؟ من أين عرفت سوسن ؟ "

كان يسأل فى نفس واحد ويجيب كمال على أسئلته ببراءة . وكان يرتبك بشدة من أسئلته المتعاقبة . فأنهت سوسن إلى أبيها :

" أبى ، إنك تستجوب كمالا ؟ "

فابتسم والد سوسن وقال :

" كنت أود أن أعرفه أكثر . آمل ألا أكون ضايقته . "

ثم نهض من مكانه بعد قليل مودعا ، وخرج من ظلة الحديقة .

وجاء بعدها عدة مرات أخرى فجأة ، وجلس بضع دقائق وسأل ومضى . ذات مرة وفى إحدى الحفلات التى كانت تقيمها سوسن ، ظهر وجلس ينصت إلى صوت كمال ، وجذب كمال إلى السؤال :

" منذ متى تغنى ؟ عند من تعلمت ودرست ؟ وأين تغنى ؟ "

كان يسأل السؤال الثانى دون أن يسمع جواب السؤال الأول ، والسؤال الثالث دون أن يسمع جواب السؤال الثانى ، كان وجهه يتهلل

أكثر ويبرق سواد عينيه أكثر ، ويرتسم الرضا على خطوط وجهه الحزين . كان يفتح فمه ويسحب لسانه الأحمر الطويل على شفتيه اللحيمتين . بعد أن كان يتحدث ويقدم أسئلته كان ينهض من مكانه بسرعة ويمضي مسرعا . لن يستغرق مجيئه وذهابه أكثر من بضع دقائق اللهم إلا أن توجد حفلة وموسيقي وغناء كان يجلس وينسى كل ماليديه . لقد أخبرته سوسن أن والدها العزيز مشغول جدا . عنده أعمال كثيرة . إنه أمين عام ... إنه عضو الهيئة العليا للتفتيش في ... إنه وكيل امتياز سيارات Y. P. F، والمورد الوحيد للآلات الثقيلة .

كانت تقول :

" أبى دائما مشغول . ليس موجودا فى المنزل فى أى وقت . ماما مضطرة أن تذهب وحدها فى أى مكان ، وهى على خلاف دائم مع أبى حول هذا الموضوع . "

كان كمال يستاء منه . فوالد سوسن كان دائما نصف ثمل . كان فمه يفوح برائحة الخمر النفاذة . أحيانا كان يتتبع كمالا ويطلب بإصرار أن يغني له ... كان كمال يشعر بالنفور منه أغلب الوقت وأكثر من أى إنسان . ففى مقابل إلحاحه كان يود أن يقول له :

" سيدى لا أحب أن آتى لأغنى فى ناديكم ، أهو بالعافية . "

كان يمر فى خاطره :

" إنه يريد دائما أن يعرضنى ويستفيد من وجودى من أجل ازدهار ناديه . "

قال والد سوسن :

" إنه لا يختلف مطلقا . حقا كأنك تغنى فى مجلسنا . أتشعر بضيق دائما عندما تغنى لنا ؟ فالنادى هو هكذا تماما يا سيد . فأى اختلاف يا سيد أن تغنى لخمسة أشخاص أو تغنى لخمسين ؟! "

قال كمال بانفعال :

" أقول مرارا إننى لست مطربا يا ... يا ... سيد ... "

ومط فى كلمة " السيد " وتلفظ بهذا الأسلوب كما يفعل والد سوسن . فابتسمت والدة سوسن وقالت بصوت رقيق ولطيف :

" لم يقل السيد إنك مطرب . فقد جاءت الفرصة حتى تعرض قدراتك . ألست منتبها ؟ إن لم تكن ميالا فهو لن يصر . إنك تقطع استفادتك بنفسك يا سيد كمال . ألست منتبها ؟ يريد أبى أن يجعل لك شأنا . تعلم أن كثيرا من الفنانين قد اشتهروا نتيجة حادثة صغيرة . ذلك المطرب الأجنبى ما اسمه ؟ لودفيج ؟ كان فى البداية عامل مصعد . وأخرى ، تلك المرأة ... على صوتها الآن يدقون رؤوسهم وأيديهم ما اسمها ؟ نسيت . إنها كانت تعمل فى البداية بائعة ورد . لماذا نبعد . لنأخذ مطربينا بعينهم ، إنهم وصلوا جميعا رغم كونهم مغمورين . واخد بالك ؟ "

مدت قدميها ووضعتهما فوق بعضهما ، فظهر بياض فخذيها الممتلئين والمثيرين ، وسلطت عينيها الحادتين إلى وجه كمال ، وابتسمت له ابتسامة عذبة ومثيرة ، فارتعد قلب كمال ، واحمر وجهه ، فهو أمامها

مـضطرب بلا إرادة دائمـا . لم يكن يدرى كـيف أن نظرة أم سـوسن وابتسـامتها تؤثر عليه وتدفعه إلى الكبر والتظاهـر ، يكون رقيقا مستـعدا للخـدمة ومن أجل رضـاها يقوم بأية عـمل . كانت نـظرتها تلقـى بحـرارة مؤثرة فى قلبه وتحـرك فيه هوس ورغبات مـختلطة وغريبة . كان يترك لها أفكاره حتى تنطلق . وكانت الأفكار المثيرة للانفعال تسرى فى رأسه ، والتفكير فى التضحية والفداء فى سبيلها ومن أجلها . كان أغلب ما يدور فى خياله أن يلعب فى مواجهتها دور العاشق المسكين البائس . كانت تهجم على خيالاته ، وكان يدور أمام عينيه أيضا مشهد فيلم وكأنه فنان يرسم فى طريقه أعظم دور فى التضحية والفداء :

تسرى النار فى المنزل وأم سوسن وسطها ، ولا أحد يجرؤ أن يلقى بروحه إلى التهلكة وأن يخلصها من الموت . ألقى كمال بنفسه بتهور وسط النار المشتعلة ليصل بنفسه إليها ويحتضنها من حيث سقطت وسط النار عارية بلا وعى ، ويعبر بها من النيران ويخلصها . آنذاك كانت أم سوسن تقول :

" أنجيتنى من الموت يا عزيزى . أنا مدينة لك . كل ما تريده أقدمه لك . "

" كل ما أريده ؟ "

" كل ما تريده . "

" كل ما ؟ "

" كل ما "!

قال والد سوسن بصوت غليظ وجاف :

" والله إن حبى لسوسن واهتمامى بها يلزمانى بأن أقدم خدمة إلى صديقها الشاب ، وإلا فما الفرق عندى أن يغنى جنابه أو لا يغنى . لقد قلت إن هذه الليلة الخاصة يأتى واحد أو اثنان من الإذاعة ويرون كم من المواهب العظيمة فى هذه المملكة وهم غافلون . وجمعوا حولهم اثنين أو ثلاثة من المطربين النكرات بأصواتهم القبيحة ، ويعذبون الناس كل لحظة بأصواتهم الصاكة للسمع . أصلا أنا لا أفهم سبب رفضك . إنهم يستطيعون دائما أن يهيئوا الأمور لك . أربما لا تريد أن تدرب صوتك أكثر يا سيد ؟ "

قال كمال :

" لا . "

" ألا تريد أن ترقى يا سيد ؟ ألا تريد أن تغنى ذات يوم فى الإذاعة ؟ "

" لا . "

" لا ؟ "

تقطبت أسارير وجه سوسن :

" لا زلت شابا . لا تعرف مصلحتك . فكر ، فكر سيدى الشاب . لا ، إننى أسألك بإخلاص ، ألا تريد أن تمضى فى إثر كسب والدك وعمله الذى ... ؟ بلا شك أنك شاب طيب ووالدك أيضا إنسان شريف ويعمل عملا شريفا ، لكنه ألم يقاس طيلة عمره فإلى أى شىء وصل ؟ لا أحد يعرفه ، ولا أحد يذكر اسمه . إن وضعك يختلف . سيأتى يوم يذكرك

من فى المملكة . وتفهم فى ذلك اليوم سبب إصرارى هذا كله وتشكرنى . حسنا جدا ، أنا لا ألح ثانية طالما أنها رغبتك ، فإما أن تأتى إلى النادى هذه الليلة أو لا تأتى . "

أخرج ساعة جيبه ونظر فيها ثم نظر إلى سوسن نظرة مليئة بالمعانى ، ونهض من مكانه مبتسما وحيا كمالا قائلا :

" أتمنى التشرف بكم هذه الليلة ... "

وبسرعة سلك طريقه بجانب باب ظلة الحديقة ، ونهضت أم سوسن من مكانها أيضا وقالت :

" اصبر . فأنا آتية أيضا . "

واستدارت ناحية كمال بدلال وانطبعت ابتسامة حلوة على وجهها ، وقالت بإغراء ودلال ولهجة مميزة :

" أنا موجودة هناك أيضا يا سيد كمال ، تعال ، فلن أسمح أن يمضى الوقت عليك سيئا . أنا ، أنا أعرف أنك آت . "

وتعقب كمال بنظره زينتها الرقيقة وكتفيها الأملسين الأبيضين وتقوس رقبتها العالية والجميلة وما بين ثدييها المثير للقلب . لقد استقرت ابتسامتها الحلوة والمؤثرة فى عينى كمال ، وبعدها استدارت وبحركات وخطى سالبة للقلب خرجت من ظلة الحديقة وراء زوجها .

ثم جاءت سوسن وجلست بجواره . ابتسمت وقالت :

" كم أنت عنيد يا كمال . إن أبى يتحدث من أجلك . يجب عليك أن تفهم هذا . إنه يريد الخير لك . "

قال كمال بانفعال :

" أنا أريد ما لا يريده . الخطأ كله خطأك . "

" خطأى ؟ أى خطأ عندى ؟ "

" أجبرتينى على الغناء دائما هنا وهناك . دائما ... "

" و ا ا ا ا ، يا له من كلام . وهل الغناء عيب ؟! هل كل إنسان يمتلك صوتا يجب أن يغنى لنفسه فقط ؟ . "

" لماذا لا تريدين أن تفهمى ؟ ليس الموضوع موضوع غناء ، الموضوع موضوع احتراف الغناء . إن والدك العزيز يظن أننى أريد أن أكون مغنيا ومطربا ، وفى ظنه أن يقوم من الآن بإعداد وسيلة إلى ذلك . لماذا لا يفهم كلامى . أقول مرارا إننى لست مطربا . أخطىء لو فتحت فمى أمامه ثانية . أخطىء لو أغنى أمامه ثانية . أصلا لا أدرى لماذا قبلت الغناء لأصدقائكم وضيوفكم . لماذا غنيت فى حفلات العرس نزولا على رغبتك حتى يظن أبوك أننى مطرب . أصلا ... أنا ... أنا ... ذاهب من هنا . "

اضطرب شكل سوسن وقالت :

" اذهب ، لا أحد يمنعك . "

فنهض كمال من مكانه . وتقدم خطوة إلى الأمام لكن قدميه كما يحدث دائما وكأنهما شُلاً وسرى التردد فى قلبه . فكر لو ذهب ، فبأى حجة يعود . لم يكن يود أن يفقد سوسن . لقد أحب سوسن واعتاد على الحياة اللاهية المليئة بالإثارة التى كان يعيشها إلى جوارها . لم يكن يود

أن يعود ثانية إلى حياته السابقة المحزنة والرتيبة ، فيذهب إلى الدكان في الصباح ويعود إلى المنزل عصرا ، وفى الليل يتجول بعبد الله في السويقة ويعيش غده مثل يومه السابق . عجزت قدماه عن السير وتوقف . كما يحدث دائما ، عندما كان يتحدث مع سوسن يسأل نفسه :

" أذهب ، أم لا أذهبَ ؟ أنفصل عن سوسن ، أم لا أنفصل ؟ "

استدار فرأى سوسن تبتسم له ، وقالت :

" تعال . لا تغضب أيها الطفل الصغير . "

وأمسكت يده وجذبته وأجلسته ثانية . ثم عاتبها كمال :

" ماذا يظن أبوك ، هه ؟ كله من أجلك ، إننى لا أقول شيئا . "

" دعك من أبى . "

وجلست بجواره ، وفكت رباط عنقه وقالت :

" يا لك من مجنون . "

وبينما كانت تربطها له مرة ثانية ، قالت بدلال :

" لا تأخذ كلام أبى مأخذ الجد . "

كانت أنفاسها الحارة تصفع وجه كمال .

" إنك لا تأتى هنا من أجله ، هل تأتى ؟ "

قال كمال :

" إذن إنه كان يتحدث معى بطريقة وكأننى حمار لا أفهم شيئا قط . "

شدت سوسن رباط العنق وعقدته بإحكام وقالت :

" إنه أفضل كثيرا الآن . "

وبعد ذلك وبنفس اللهجة ، همست بالقرب من أذنه :

" لا تكن جادا إلى هذا الحد ، ولا تتصور أمورا إلى هذه الدرجة ، كن سعيدا يا حمار . "

" أى أمور أتصورها . ألا يستطيعون دعوة مطرب ، ألا يستطيعون ؟ "

" لقد دعوا ثلاثة بدلا من واحد يا عزيزى ، من تلك الأسماء اللامعة . إنها ليلة الافتتاح . "

" إذن لماذا يصر والدك كل هذا الإصرار بأن أحضر أيضا ؟ إنهم يغنون أفضل منى . "

" يا مجنون أنت تغنى أفضل منهم جميعا . صوتك أكثر صفاء وعذوبة وجاذبية عنهم جميعا . حقا إن أبى لا يريد أن يخبرك بشىء . إنه راهن عليك الكثيرين . تعلم أنهم لا يريدون الإفصاح بشىء لأحد . عندما تغنى يرون تأثيرك على الضيوف . ومن ثم فإن كل من قدموا لهم الدعوة هذه الليلة هم أشخاص أصحاب نفوذ . تصور أنت أن تتناقل الأفواه اسمك . إن أبى عالم بهذا . دائما يمكر ويفعل أفعالا تجعل اسمه على الألسنة . بالله سوف يكون أمرا رائعا ، لا تستطيع تخيله . "

هز كمال كتفه وقال :

" أنا لن آتى . "

فقالت سوسن بإغواء :

" إنك سوف تأتى . "

" أنا لن آتى . "

فانحنت صوب كمال واتكأت عليه بجسدها الناعم واللحيم ، وقالت :

" إنك سوف تأتى . "

ونظرت بعينيها اللامعتين فى عينى كمال وقالت بصوت منخفض :

" من أجلى . "

ورفعت يديها ، فاستقر نظر كمال على جلد ساعديها الأملسين العاريين ، وقالت سوسن :

" انظر يا فتى ، ليس قصد أبى هذا أن تذهب للغناء هناك دائما ، ليس قصده هذا أن تحترف الطرب . إنه يريد فقط أن يعرض صوتك ويظهره هذه الليلة . يريد أن تكون مفاجأة للجميع فى ليلة الافتتاح . "

فقال كمال :

" لماذا لا تريدين أن تفهمى . لمدة ليلة أو مائة ليلة ... إذا وصلت إلى مسامع أبى ، ربما إلى أحد أهلى ، ربما إلى أحد المعارف ... "

" و ا ا ا ا ، ماذا يفعل أهلك بقدومهم هناك ؟ أعدك بأن أحدا من الضيوف لم يرك حتى الآن . من هنا أقول إنه أمر مثير أن تذهب هناك وتبدأ فى الغناء . آنذاك يسأل الجميع بعضهم البعض : هل رأيت هذا ؟ هل تعرف هذا الشاب ؟ هل تعرف هذا ؟ فليحيا . إنه يغنى بشكل ممتاز ، صوته جديد ، إنه شاب ، حديث جدا ، لا تستطيع أن تتخيل كم يكون الإعجاب يا كمال . هاه . ألا تستطيع ؟ "

" فى النهاية لا يعجبنى ... "

" أعرف ، أعرف أنك لا يعجبك أن تغنى وسط الناس . لقد قلت هذا من قبل . لكن من أجلى أنا وماما غن هذه الليلة فحسب ، هذه الليلة فقط . إن كرامة أبى مطروحة فى الموضوع . "

أطرق كمال رأسه ولم يجب . كانت أفكاره مشتتة ، وكان مضطربا ، فكان جسد سوسن الحى المليء بالدم والمثير ملتصقا به وهمس وسوسة سوسن الخافتة فى أذنيه " من أجلى أيها المجنون العزيز . وصوت أم سوسن الساحر والمليء بالمعانى فى رأسه :

" أنا موجودة هناك يا سيد كمال ، أعرف أنك آت . "

اقترب وجه سوسن منه إلى درجة أنه كان يشعر بأنفاسها الحارة على وجنتيه ، وكان يرى فمها المثير والمحبب للنفس والزغب فوق شفتها .

ومن بين عمدان ظلة الحديقة رأى والد سوسن يخرج من المنزل ، قال بسعادة :

" لقد خرج أبوك . "

فقالت سوسن :

" عنده شغل . فى الساعة الثامنة تذهب أمى فى إثره ويتجهان معا إلى النادى . "

وغمزت بعينها :

" نذهب معا أنا وأنت . "

نهضت من مكانها وقالت :

" أنا ذاهبة . فأنا مستعدة وجاهزة بنفسى ، ولا يزال عندنا متسع من الوقت . أين نحن الآن من الساعة الثامنة ونصف . "

ثم انحنت وقبلت كمال وهمست فى أذنه :

" إذا أحسنت الغناء هذه الليلة أيها المجنون العزيز ، فلك جائزة جميلة عندى . "

وغمزت بعينها ثانية :

" من تلك الجوائز الجميلة جدا . "

تلعثم لسان كمال :

" أ ... نا ... أ ... نا . "

فضحكت سوسن وجرت خارج الظلة . ظل كمال وحده داخل الظلة ، حائرا ساهما . كانت الشمس موشكة على الغروب وظل الليل يزحف على الظلة . مد كمال رجليه وشبك يديه وأغمض عينيه . فقد ملأت رأسه الأفكار المؤلمة ، وفقد النشوة واللذة اللتين أيقظتهما سوسن وأمها فيه . وسيطر على قلبه تعب وكدر كأنه دخان أسود .

تذكر الشيخ العجوز الذى كان يدربه ويعلمه الغناء . فقد أخبره ذات مرة أنه تورط فى احتراف الطرب والغناء منذ شبابه . وكان يقول :

" كل ليلة كنا نذهب إلى منزل أحد هؤلاء الأعيان والنبلاء . كان جواد يضرب على التار ، وكان حسين يضرب على النقارة ، وكنت أقوم أنا بالغناء . ليلة هنا وليلة هناك ، لا منزل ، لا حياة ، لا امرأة أو طفل...

مشردون فى المنازل والحوارى والمدن ، مشرد حائر . كان جواد ذكيا ولماحا بيننا ، لقد درس حتى الصف السابع . كان يقول دائما ليس لعملنا آخر أو نهاية يا رفيقى . فى تلك الأيام ... كان كل منا ينهار . بشكل أو بآخر ، تعرف يا أخ ، كنت أنوى بمجرد أن أجمع القليل من المال أضع التار جانبا ، وأذهب وأفتح دكانا لبيع الأحذية مثل أبى وأتزوج . لكن جيبنا كان مثقوبا ولم يجمع فيه مال فى أى وقت . وفى النهاية أصيب المسكين بسكتة وحمل رغبته إلى القبر . أما حسين فقد شرب العرقى بإسراف حتى تمزق كبده وخرج من حلقه . كنت أكثر صمودا منهما . لكن ما الفائدة ، لقد تأخر أيضا . لقد ضيعنى الغناء . كم كنت أتمنى ألا يكون لى صوت أصلا ... "

كان يذهب نهارا إلى دكان أبيه ويقوم بأعمال حساباته . فقد ذهب أبوه إلى مشهد لمدة ثلاثة أسابيع وسلم الدكان لصبيه . عندما كان يعود من الدكان أوقات العصر ويذهب إلى المنزل ، يهذب شعره ويحلق ذقنه ويبدل ملابسه ويتوجه إلى منزل سوسن . كانت سوسن تذاكر ويجلسان معا يتحدثان . أحيانا كانت سوسن تضع أسطوانة ويرقصان معا ، وأحيانا أخرى كانا يذهبان إلى السينما أو إلى ولائم أصدقاء سوسن بالتناوب . ففى الأيام الأولى كان يتملكه شعور باليأس والخجل ، وكان يشعر بغربة شديدة وسط أصدقاء سوسن . وفى الأيام الأولى التى ذهب معها إلى منزل أحدهم وجد نفسه فجأة بين الأولاد والبنات الذين كانوا يثيرون نفوره دائما فى الحارة والشارع . لو لم تجذبه سوسن للرقص لفر من بينهم . لكن الأيام التالية جاهد أن يبعد عن نفسه النفور والضيق

، فارتدى القميص ورباط العنق اللذين أهدتهما له سوسن ، ودهن شعره بالزيت وحلق ذقنه ووضع الكريم ، وسار بصحبة سوسن ذاهبا هنا وهناك مغنيا لأصدقائها وأقاربها . وحاول ألا يكون غريبا غير متجانس بينهم وأن ينسى نفسه وسطهم .

كانت سوسن تكبر فرشته بعام أو عامين ، وكان سلوكها مصحوبا بإخلاص أحيانا وأحيانا أخرى مصحوبا بالتصنع وحركات الإغراء . كانت تتعامل معه أحيانا بالحب والود ، وأحيانا أخرى بجفاء وسوء خلق . كانت أحيانا تتجاهله وتذهب مع أولاد آخرين وتتركه وحيدا ، وأحيانا أخرى كانت تقول له بلا مقدمة :

" غن يا كمال ، بسرعة ، يا الله . "

ثم تصيح ولم يكد كمال يبدأ فى الغناء :

" لا تغن . أقول لك لا تغن . "

فكان كمال يصمت عن الغناء وهو حائر بينما كانت ضحكات أصدقاء سوسن تعلو ، وتتركه ضئيلا بلا حيلة . أحيانا وكأنها تود أن تختبر نفوذها وقدرتها عليه ، كانت تتفق معه قائلة :

" تعال الساعة الثانية أمام السينما ، فعندى موضوع مهم لك . "

وكان كمال يخرج من دكان أبيه بأية حيلة ويصل بنفسه فى الميعاد حسب اتفاقهما فى حمارة القيظ المحرقة ، ويوصل نفسه إلى مكان موعدهما فى الساعة الثانية تماما . كان يظل فى انتظارها فى الشمس ساعة ، ساعة ونصف ، ساعتين ، ساعتين ونصف حتى تأتى فى

الخامسة إلا ربع . كانت تنظر إليه مبتسمة وسعيدة دون مراعاة لتعبه وإرهاقه الشديدين على قدمه ، وكانت ضحكتها تعلو وتقول :

" يا أحمقى الصغير . "

بعد أن كانت ترى كمال متضايقا ، تقبله وتلاطفه قائلة :

" وددت أن أرى كم تظل فى انتظارى . آه لو جئت ولم أجدك . "

عندما كانا وحدهما ذات مرة ، سألته بدلال وإطراء :

" أتحبنى يا كمال ؟ "

هز كمال رأسه ببراءة . فعبست سوسن وقالت :

" لا ، ما تقوله كذب وخداع ، لو كنت تحبنى لكتبت لى رسالة . "

حتى ذلك الحين لم يكن قد كتب لها رسالة ، كان ثابتا معها . أمسكت سوسن الرسالة وقرأتها ، وأغمضت عينيها وهى سعيدة راضية ، وقدمت وجهها وقالت :

" قبلنى . "

فاحتضنها كمال وقبلها ، وجذبت سوسن وجهها ، ومسحت شفتيها بظهر يدها قائلة :

" آه ، إنك لوثتنى بلعابك . ما هذا الشكل للتقبيل . "

وضعت الرسالة فى حقيبتها ، وذهبا معا إلى منزل أحد أصدقائها . آنذاك أخرجت الرسالة من حقيبتها وسط دهشة كمال وحيرته وقالت :

" يا أولاد ، اليوم كتب لى شخص رسالة حب ، أتريدون أن أقرأها عليكم ؟ "

وغمزت بعينها ، ودون أن تنتظر إجابتهم بدأت بلهجة ساخرة فى قراءة رسالته بصوت عال . أطرق كمال المسكين الذليل رأسه وأنصت . وعندما أنهت الرسالة ، رفع رأسه ولاحظ أن نظرات أصدقاء سوسن الضاحكة والممزوجة بالسخرية تتجه إليه .

أحيانا كانت سوسن تختفى فجأة مع أحد الأولاد ، والذى كان يكبرهم جميعا وكان يعتبر بالنسبة له رجلا تقريبا . كان الولد يأتى بسيارته الفورد الجميلة بلون الكريز فتخرج سوسن بصحبته ، وكان كمال يشعر من نظراتهما ولمزهما وهمهمتهما وسلوكهما الغامض أن هناك علاقة بينهما . فسلوكهما الأكثر غموضا وجفاء كان يجعله يفهم شيئا منه . إنه رأى سوسن فى سيارة السيد فريبرز مرة أو مرتين . وأوصته سوسن بألا يخبر أمها بشىء : فى الأيام الأخيرة كان السيد فريبرز يظهر بشحمه ولحمه فى ضيافاتهم أحيانا . لم يكن كمال يلاحظ أثرا آخر من ضيق سوسن السابق وعدم اهتمامها به . كان العالم الجديد يجذبه إليه أكثر يوما بعد يوم وينغمس فيه ، حياة مليئة باللذة والسرور والهوس ، وفى الوقت نفسه ممزوجة بالحقارة والخجل . كان يرى أنه لم تعد له إرادته ، وأنه استسلم للذات والمهاوس المدمرة . أحيانا عندما كان يبتعد عن سوسن ، كان يبتلى بالألم والاضطراب ، وكان يتملكه النفور والاشمئزاز بحيث يشتهى الموت . كان يصمم فى أوج متاعبه ألا يخطو خطوة إلى منزل سوسن ، لكنه فى اليوم التالى كان يخرج نفسه من تحت أنقاض التعب والضيق ويذهب مشتاقا ومنجذبا إلى منزلها . لم ير نفسه قط مسحورا وأسيرا إلى هذا الحد ،

كان لا يرى أنه أصبح إنسانا آخر ، إنسانا بفكر وأفكار أخرى ، بحركات وسلوك آخر ، برداء آخر ، عبدا لأهوائه ورغباته ... لم يكن هناك خبر عن سوسن . كان داخل الظلة مظلما ، وتنبه كمال أن الزمن لا يمر، وأنه يسير بأفكار مضطربة ومشتتة . فجأة وكأن سدا تهدم فيه وانهمر سيل متاعبه وضيقه :

" الملعون ، الرجيل التافه ، ماذا يظن دائما . هل أنا مطرب . كان الديوث يتحدث معى بأسلوب وكأننى طفل ويستطيع أن يخدعنى ويستغفلنى . لا يهمنى إلا سعادتك ومستقبلك . كنت أريد أن أقدم لك خدمة . يا حمار أنت نفسك مجرد ديوث فاقد للغيرة مع امرأتك تلك وابنتك هذه . خطأى أننى سلمتهم زمامى أينما يريدون يجذبوننى وراءهم ، ويجعلوننى أرقص على كل نغمة ... لماذا تأتى هنا أصلا ؟ أى علاقة لك بهم ، هه ؟ لماذا تأتى هنا يا ابن الكلب يا حمار ؟ لماذا لا تريد أن تفهم . لماذا لا تقوم وتذهب لتعش حياتك ، إنك مغفل ابن كلب حمار ... لماذا لا تذهب وتغور فى داهية ؟ "

ونهض من مكانه غاضبا :

" ماذا ظنوا ؟ ماذا ظنوا ؟ " .

وخرج من الظلة .

" لن أدعهم يحقروننى . لن أدع نفسى أقع تحت سيطرتهم . حتى الآن لم أصبح إلى هذه الدرجة ذليلا ووضيعا . لن أضيع نفسى مثلك أيها العجوز المسكين ، أيها العجوز المسكين الطيب . "

كان مصباح حجرة سوسن مضيئا فى طرف صحن الدار ، وفى الجانب الآخر مصباح حجرة أمها .

" أذهب لأخبرها بأننى لن آتى . أقول لها ... الموت يحدث مرة واحدة ، والنواح مرة واحدة . "

ودق الأرض بقدميه وضرب الهواء بقبضتيه :

" إن لم يعجبها فلتذهب إلى جهنم . ليلة واحدة فقط ، ليلة بعينها فقط . كلامها دائما : فقط هذه المرة ... غن فى عرس ابنة العمة العزيزة . غن من أجل العم العزيز العقيد ... ثم يرسل العم العزيز العقيد حماره قائلا لتغن فى حفلنا وخذ مائة تومان . ليذهب ماء وجه أبيها العزيز ، ليذهب . أواه . إنه يريد أن يعرض صوتى . أواه . إنه ينتفخ ويجلس هناك ويقول ، لقد أحضرت هذا . إنه تربية يدى . أواه ... "

ثم فكر :

" هل كل هذا الإصرار من أجل ليلة واحدة فقط ؟ لا . ألم تخبره أم سوسن ، إنها طلبت من السيد فريبرز أن يضع برنامجا لى . برنامج لليلة واحدة ؟ لا ، إنهم أنفسهم حمير وحمقى . لقد قام بالدعاية من أجلى : لأول مرة مطرب جديد وشاب وصاحب صوت ساحر ! وإلا لما أصر كل هذا الإصرار ولما قال لى ألا تريد الغناء فى الإذاعة ؟ إنه كان يتحدث معى بطريقة كما لو أننى أود أن أكون مطربا . أف ... حتما إنه يريد أن يسعى إلى عائد أكبر من أجل ناديه . أف ، إنه يخبط خبط عشواء . "

أنزل يديه ووقف وسط صحن الدار :

" حتما أن سوسن لا تعلم شيئا من قصد أبيها . حتما إنها جاهلة بخطط أبيها ومشاريعه وإلا لما طلبت منى أن أذهب إلى هناك هذه الليلة بعينها فقط . يجب أن أوضح لها . يجب أن أقول لها إن الموضوع ليس موضوع ليلة أو ليلتين . لابد أن أقول لها يجب أن تفهمى يا سوسن ، يجب أن تفهمى موقفى . بالنسبة لى مستحيل . فأنا لازلت غير مستقل بما أحب أن أفعله . لو يصل خبر إلى مسامع أبى لطردنى من المنزل نهائيا . لقد قلت لك كم أن أسرتى محافظة . ربما يعرفون ويكون حسابى عسيرا . يجب أن أفهمها . "

كان صحن الدار خاليا نصف مظلم . جاء كمال مسرعا مضطربا ، وما إن وصل أمام حجرة أم سوسن حتى تملكته دهشة فجأة . فقد رأى السيد فريبرز واقفا أمام باب حجرة أم سوسن ، وكان بجسده الغليظ وسط إطار الباب . وكانت هناك ربطة صغيرة مربوطة بشريط أحمر وزهرة حمراء . وقف كمال بجانب بستان الورد الأحمر ورأى يده فى الحجرة بالربطة الصغيرة ، وارتفع صوت أم سوسن الحلو ذى الدلال من داخل الحجرة :

" أوه ... لا . "

آنذاك رأى الرجل ينحنى إلى الأمام ، وأدخل رأسه بنصف جسده فى الحجرة ، وقالت أم سوسن بصوت ثانية :

" أوه ، لا ، لا . "

وما إن ظهر ساعدا السيد فريبرز من داخل الحجرة حتى رأى كمال رأس أم سوسن بين يديه فجأة ، ورائحة شتلات الورد الأحمر تنطوى فى أنفه .

وبدون صوت مر من أمام الحجرة ودار فى الجانب الآخر من حوض الماء لينظر بفضول وانفعال . لم يعد الرجل موجودا ، بينما كان باب حجرة أم سوسن مغلقا .

اعتلى درجات السلم بسرعة ، ودخل حجرة سوسن دون استئذان . كان منفعلا من السر الذى اكتشفه . كانت سوسن جالسة نصف عارية أمام المرآة بقميص داخلى زيتى قصير يظهر عرى ساعديها وفخذيها الجميلين الأملسين والأكثر حسنا ببياضهما .

توقف كمال بجانب الباب ، ونظر بجرأة ووقاحة ودق قلبه . فمن قبل لم ير امرأة عارية بالقرب منه . فقط كان يغطى جسدها قميص داخلى قصير ناعم وشفاف وسروال داخلى صغير . تقدم ببطء . ولم تره سوسن حيث كان ظهرها له . كانت تدهن وجهها بالبودرة بدقة . فمنضدة الزينة بمرآتها العالية كانت تعكس صوان الملابس بركن الحجرة .

وفجأة استدارت سوسن على صوت قدمه وصرخت صرخة مخنوقة وهى خائفة . وبدأت تجمع فى جسدها وتعتصره بيديها حتى تلملمه . وبعد أن عرفته ، هدأت وقالت :

" وه ، أنت ، إن شاء الله تموت ، كم خفت ، اللعنة ... "

ثم وضعت يدها على قلبها . وكان صدرها يعلو ويهبط ، وثدياها المستديران الممتلئان يهتزان ويرتعدان . ونظر كمال ساهما ، وفجأة كأن النار سرت فى جسده وتملكته رعدة . وبدأ يرتعش بشدة . فاتكأ على حائط بجوار المرآة . كان مندهشا منجذبا . لم يكن يستطيع أن يغمض عينيه عن جسد سوسن وبدنها . كان جسد سوسن يعكس كالمرآة نور المصباح وكان كالحباب الأبيض الناصع جميلا ملتهبا .

سمع صوت سوسن :

" لماذا جئت فجأة أيها الماكر ؟ "

وغطت ثدييها العاريين بيديها ونظرت إلى وجهه المنفعل وجسده المرتعد وغمزت غمزة :

" فيم تخمن أيها السيء بالفطرة ؟ فمنذ متى وأنت هنا أيها المحتال ؟ "

ثم استدارت وبدأت فى رسم عينيها بالريميل ، وقالت بصوت منخفض :

" كمال ، اخرج ، فليس مقبولا أن تقف هنا . "

حاول كمال أن يهدأ ، وتذكر أنه لماذا جاء إلى الحجرة ، وسعى ألا ينظر إليها ، وأخذ نظرة منها وهو مرتعد ونظر إلى صور الفنانين والنجوم نصف العارية والتى كانت تملأ جنبات الحجرة . أطل من النافذة على شتلات الورد الأحمر بجانب حوض الماء حيث كانت الظلال السوداء تغطى صحن الدار . رأى أم سوسن خارجة من حجرتها مع السيد فريبرز تجاه باب الممر وخرجا من المنزل . ثم قالت سوسن ثانية

بلهجة متزنة وآمرة :

" اخرج ... اخرج ... يا كمال . "

والتفتت إليه قائلة :

" أنهي عملي الآن . وآتي لنذهب معا . فاخرج ، ألست ترى أنني عارية ؟ "

فقال كمال بصوت مخنوق :

" لن آتي . "

فعبس وجه سوسن وهزت كتفها استهانة دون أن تقول شيئا ، ونهضت من مكانها متجهة صوب صوان الملابس . فتحت بابه ووقفت في ظله . فقال كمال ثانية وبلهجة كان يحاول أن تكون محكمة وقاطعة :

" أنا لن آتي . إن أباك مخطيء ، فأنا لست مطربا ، لست من أولئك الذين يستغلون . أنا ... أنا ... لست ألعوبة والدك . "

وتملكه غضب فجائي وصاح :

" يظن دائما أنه أحضر إنسانا مغفلا يستطيع أن يخدعه . فما دخله بي فيما أريد أن أكون في المستقبل ، كأنه صاحب مصيري . لو لم يكن من أجل خاطرك لتملصت منه وأخبرته أنه أخطأ . فأنا لست من هؤلاء الذين يظنهم . "

كانت سوسن تنظر إليه نظرة حائرة يشع منها برق غاضب وتنصت إلى كلامه صامتة وهي واقفة خلف باب صوان الملابس لا يظهر شيء من جسدها سوى رأسها وساقيها العاريين . كان كمال قد أسلم نفسه

لغضب طبيعى باعث على الحرية :

" أنا لست مغنيا أو مطربا . فالذنب ذنبى أنا . لو لم أغن من أجلها لما اعتقدت الآن بهذه الدرجة أننى مطربها الخاص وأنها كل شىء لى . ماذا تخيلت أصلا ؟ هل تخيلت أننى من نفس هؤلاء المطربين الأخساء ؟ من نفس مطربى الخمس تومانات ؟ هاه ؟ عندما أبرح المكان الآن وأمضى لن أعود هذه الليلة ، وسيعرف الرجل مع من يتعامل . "

فقالت سوسن بلهجة ساخرة :

" طالما لا تريد المجىء ، إذن لماذا وقفت هنا ، اذهب الآن . "

وظل كمال يقف بجانب المرآة ، وهو فى حالة تردد . وكان يرى نفسه محقرا وخجلا . عزم أن يمضى لكنه كان مترددا . فلازالت خيوط أحاسيسه التى عقدها لسوسن لم تتمزق بعد . لازال قلبه يود أن يمتلكها . لم يتحمل فراقها وبعدها . لكنه كان قلقا متضايقا يحركه شعور بالحقارة . كان يستسلم للغضب الذى كان محببا ومخففا عنه بشدة نحوها ، وكان الغضب الذى كان يمنحه الجسارة والحمية والقدرة يقضى على تردده .

" أنا ذاهب ، ذاهب ولن أعود ثانية إلى هنا حتى أغنى من أجل أبيك العزيز وأمك العزيزة وابنة عمتك العزيزة والسيد فريبرز . "

وارتفع صوته أكثر :

" لقد نفد صبرى . لم آت هنا كى أغنى لكم . لقد تعبت تماما من كثرة سحبكم إياى هنا وهناك وأوامركم لى بأن أغنى . "

وصاح فجأة وعلى خلاف إرادته :

" تخيلتم أننى مطرب ، هاه ؟ مطرب خاص تأخذوننى معكم أينما تذهبون حتى أشغل وقتكم ، وقتما تريدون أن تفتحوا فمى حتى أغنى لكم ، أنا ... أنا ... "

وصرخت سوسن بانفعال فجائى وسط كلامه :

" أنت حتى أقل من مطرب خصوصى . "

وانفعلت وبدأت فى الضحك :

" ظننا أنك مطرب . ها ها ها ، إذن ماذا أنت ؟ ألست كذلك ؟ تظن أنك لا تغنى من أجلنا ؟ ألا تغنى فى حفلاتنا وضيافاتنا ؟ إذن لماذا أصطحبك هنا وهناك وأسمح لك بالدخول بيننا . هل تظن أنك إن لم تغن هل سيأذن أحد لك بالدخول هنا ، لا ، إنه يطردك طردة الكلاب يا ابن بائع الجلود ؟ "

وعلا صوتها الممزوج بضحكة ساخرة أكثر . بينما كان كمال ينبش فى الحائط ويذهب ناحيتها ببطء وهو مضطرب . لقد تملكه غضب وانفعال من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . فضحكات سوسن كانت تجعله ضئيلا ومجنونا .

" ياله من تكبر و غرور ، أنا لست مطربا ، أنا لست مغنيا . إذن من تكون ؟ السيد المعلم ؟

ها ها ها ... كان أبى العزيز يقول حقا إنك كثير الإدعاء . إذن بأى شىء تغتر وتتمنع يا سيد ... يا معلم . إنك تستحق الذهاب لقراءة

الروضة ، ويضعون في كف يدك خمس تومانات . مالك أنت بأن تأتى إلى النادى تغنى وتأخذ خمسة آلاف تومان . أردنا أن نجعلك مطربا من الدرجة الأولى ونشهرك في كل مكان أيها البائس سئ الحظ . خسارة أنك لست جديرا بها . من الأفضل أن تعمل كاتبا فى دكان أبيك وتبيع الجلود . "

وقف كمال وسط الحجرة وهو غاضب ومندهش جدا ، كأنه تلقى ضربة فوق رأسه وسمر نظره في سوسن . وقد تشنج حلقه وتكدر . وشعر أنه فى سبيله إلى الاختناق . شعر بطوفان من الغضب والانفعال يلفه أكثر من أية لحظة . كانت سوسن تسخر منه هكذا وتضحك قائلة :

" سأذهب ولن أعود ثانية ، لا ياحبيبى لاتذهب ، وحياة أبيك وأمك لاتذهب ، سوف أموت من أجلك ... سو .. ف . أ .. مو .. ت .. من .. أجلك . "

نظر كمال إلى سوسن وهو لايزال صامتا بينما كانت عقد المتاعب والذلة التى رآها منها تتفتح من وجوده وتتحرك وتملأ قلبه ورأسه . إن صوت ضحكتها كان يرن فى أذنيه ، ووجهها الساخر المضيع يضحك أمام عينيه . كان حائرا ، ويتحدث بطريقة غير مفهومة . ورويدا رويدا تقدم إلى الأمام حتى أنه لم يفكر فيم يريد أن يفعله . رأى سوسن وقد توقفت عن الضحك فجأة ونظرت إليه بدهشة . سمع صوتها وهى تقول :

" تتخيل أنك تستطيع أن تخيفنى . اوهوووو. "

وعلت ضحكة سوسن الساخرة ثانية . عندما رأت يده تعلو بسرعة في إتجاه وجهها ليصفعها ، انفجر صوت في أذنيها وأغمضت عينيها تحت ألم محرق ...

بعد ذلك أمسك يد سوسن وقاومت سوسن لتخلص يديها . ثم بدآ معا في المقاومة والحركة . جذب جسدها العارى وثدييها الدافئين الأملسين إلى جسده حتى سالت رقتها وحرارتها على جسده كله . آنذاك جاءته الرغبة فجأة . وبكل قوة لديه اعتصر جسدها نصف العارى . قاومته بكل قوة لديها . لكن كمال كان يضمها إليه بإحكام شديد وبدأ في تقبيلها . وكانت سوسن تخمش بأظافرها في وجهه وتسبه ، وبكل قوة لديها كانت تريد أن تمنعه وأن تخلص نفسها من بين يديه . لكن ستارة كانت قد انسدلت أمام عينيه وبكل قوة ضمها إليه بشدة . كان يرتعد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، وبكل جسده الحار كان يضغط على جسدها الرقيق واللحيم ، يلقى بكل مافى متناول يده ويمزقه ، كان يريد أن يتحد في هذا الجسد الرقيق واللطيف الواهب للذة لا نهاية لها . وتمزقت الملابس الداخلية على جسدها بينما كانت تقاوم بجسدها العارى بيأس . وكانت تصرخ ...

بعد ذلك خارت قوة سوسن بينما كانت حرارة أنفاسها السريعة والمتقطعة تسيطر على وجه كمال كله . وكانت أظافرها تغوص في لحم كتف كمال وتقول بصوتها الضعيف والمرتعش بالتدريج :

" لا ، لا . "

بعد ذلك انزلق كلاهما معا وهما خاضعين . ونامت سوسن تحته . وأمام عينى كمال اللتين غطاهما الضباب كانت شفتاها الحمراوتان الجميلتان تفتحهما وتقفلهما كأنهما منقار طائر ظمآن . كان كمال يداعب ثدييها الحارين الرقيقين ويمسكهما بقبضته ويقبل شفتيها ورأسها ووجهها ويضغط على جسدها بكل جسده الثقيل بينما هى تئن وتتأوه بصوت منخفض . ثم ارتفعت يدا سوسن ولفتهما حول جسده برغبة غير عادية وجذبته إليها بشدة وشفتاها تبحث عن شفتيه . وتجرد كمال بسرعة البرق من ملابسه . كانت الملابس كأنها ورقة شجر خريفية فى مواجهة عاصفة شديدة ، وكانت سوسن تتثنى فى كل ناحية وتنظر إليه بوجه أحمر شاحب قليلا وبعيون مشتعلة وملتهبة . أنذاك وفجأة مر خاطر كالبرق من رأس كمال :

" لا ، لا يجب أن أفعل هذه الفعلة ... لا يجب أن أفعل هذه الفعلة ... "

ثم نظر إلى سوسن وكف لحظة ، لكنه كان يريد سوسن بكل ذرات جسده بحيث لم يستطع أن يتحمل ، والتفت حولها ، والتفت يد سوسن حول جسده ، وحركت جسدها الدافىء الخفاق المثير للذة تحت جسده . وظل كمال حائرا ومندهشا فى جسده وعلى جسدها . ثم رفع رأسه ونظر بسعادة إلى عينى سوسن الحارتين والمحرقتين وتمتم بصوت منخفض :

" إذن فأنت ... "

فأخذت سوسن نظرة منه ، وجذبته إليها أكثر وأنّت .

وعندما نهض من مكانه ، كان مبللا بالعرق . كانت سوسن قد استدارت ونامت على حافة السياج السفلى للحجرة وغاصت رأسها بين ساعديها العاريين وظلت بلا حركة .

ونظر كمال إليها . فالآن وبعد أن خلعت ملابسها كانت تبدو أنها صغيرة بلا مقاومة مثل فتاة فى سن العاشرة أوالثانية عشر . ارتدى كمال ملابسه وتوجه صوب باب الحجرة بلاصوت . استدار فى المدخل ونظر ثانية . كانت سوسن عارية على حالها بلا حركة ساقطة فى وسط الحجرة . ثم خرج من الحجرة ومر من صحن الدار الخالى نصف المظلم بلا صوت وخرج من المنزل .

* * *

بعد أن ترك سوسن ، مرت الأيام عليه مليئة بالخوف والاضطراب . ولمدة قصيرة ، كان خائفا جدا من أن تفكر سوسن فى الانتقام منه ، كان يرى أحلاما مخيفة ومزعجة فى الليل . يأتى والد سوسن مع الشرطة ويحملونه غصبا . ويجتمع أهالى القرية فى الحى ويشيرون عليه بأصابعهم معا . وينظرون إليه أيضا بمرارة وغضب ويتعقبونه ساخطين عليه مثلما يفعل والده وهو لايزال فى المدرسة الابتدائية ، فعندما كان يعصاه كان يعاقبه أحيانا بأن يربطه فى الشجرة ويضربه بالسوط قائلا :

" يا هاتك العرض . يا عديم الشرف والكرامة . "

بعد ذلك ، خرج من اضطرابه هذا ، ثم لازمه اضطراب دائم وملح وخوف مما يفكر فيه أبوه بالنسبة لمستقبله . كان يشعر بتوسع عميق مرعب من الخوف والهلع فى أساس أفكاره وكأنه ألياف سرطانية .

كان سلوك أبيه بالنسبة له قد تغير ، فلا خبر هناك عن هذه الصرخات والشتائم واختلاق الشجار كل يوم . عندما جاء إلى المنزل فى وقت متأخر لم يستنطقه ولم تعل غمغمته غضبا :

" ليس معلوما أيضا إلى أية داهية ذهب الحمار وعاد فى هذا الوقت من الليل . ولد سايب تماما وغشاش . "

كان أبوه صامتا . بل كان يتعامل معه أحيانا برقة وحنان . كان يذهب إلى الدكان كل يوم كما كان يعمل فى الماضى ويقوم له بالأعمال الكتابية . كان يشعر أن أباه يحمل بعض المشاريع فى رأسه من أجله . فى سكونه وسيطرته على نفسه كان يبدو شئ يخيف كمال . خاصة عندما كان يرى أمه بجوار أبيه ولم تعد تدافع عنه عكس الماضى ، كان قلقه يزداد . لم يكن يرغب فى الشجار مع أبيه . فلم يعد قد بقى على فتح المدارس أكثر من أسبوعين . لم يكن يود أن يغضب أباه ، فهو لايزال فى حاجة شديدة إليه ، من أجل الإنفاق على دراسته ومن أجل إعاشته . كان يراوده الأمل مرارا أن تنتهى هذه السنة أيضا ويحصل على شهادته الثانوية ويستطيع بعدها أن يلتحق بعمل ويرى نفسه حرا مختارا .

من أجل أن ينسى خوفه واضطرابه ، اتجه إلى قراءة كتاب مرة أخرى . وعندما كان يذهب إلى المدرسة حصل على كارنيه عضوية مكتبة ، ومنذ تلك اللحظة عندما كان يخرج من الدكان كان يذهب هناك قليلا . فيأخذ كتابا ويجلس فى ركن يقرأه حتى ينتهى وقت المكتبة ، آنذاك كان يغلق الكتاب مضطرا ويخرج من المكتبة ورأسه مملوءة بما قرأه وقلبه ملىء باللذة لما قرأه . أحيانا كان يذهب إلى محمود ، فيجلسان ويتحدثان كثيرا أو كانا يذهبان معا إلى المقهى الذى كان ملتقى أصدقاء محمود . حيث كان كمال يجلس صامتا ينصت إلى الأحاديث والمناقشات المثيرة . وكان يبهت من عدم التزامهم أو خوفهم مما كانوا يتحدثون فيه بصوت عال ، وكان يشعر فى قلبه بإعجاب نحوهم . وكان على معرفة بالموضوعات السياسية بأسلوب غامض ومعوج فى المدرسة ، لكن السياسة لم تجذبه إليها أبدا . فالسياسة كانت عالما مجهولا لم يكن يفهم فيه الكثير . ففى الأعوام الماضية ، عندما كانت المظاهرات تملأ الشارع ، كان يقف ويشاهدها . بينما كان أبوه يسب دائما ويقول :

" إنها ألاعيب الإنجليز ، يظهرون كل يوم خدعة ويجعلون الناس يقعون فى بعضهم . "

فالاغتيال الذى وقع العام الماضى جعل تلاميذ المدرسة فجأة مهتمين بالسياسة لفترة .الاغتيال الذى تبعه اعتقالات كثيرة . كان زملاؤهم فى المدرسة يحملون كل يوم أخبارا جديدة إلى المدرسة ويتناقلون بالأيدى الصحف السرية .

كان أصدقاء محمود يقرأون الصحيفة ويتباحثون بشأن لائحة قانون المطبوعات والمادة السادسة من لائحة الانتخابات ومباحثات أزمة النفط . كانت كل أحاديثهم المستحدثة تظهر له جهله على نحو مؤلم ومؤيس . فالصحف والكتب التى كان يأخذها من محمود وأصدقائه كان يقرأها بولع ، لكنه كان يظل متحيرا تائها . عندما كانت كثرة المصطلحات والمفاهيم الجديدة تقف فى مواجهته كالسد ، كان يحاول القراءة أكثر وأكثر حتى يتخلص من حيرته واضطرابه ويمحو الشعور بالخجل الذى كان يعتريه من جهله . منذ فترة وهو لا يعلم شيئا عن فرشته ومنوچهر . فقد رأى منوچهر فى منزل سوسن مرة أو مرتين . كان عاتبا عليه ، لماذا نسيهم ولم يفكر فيهم ثانية ولم يسأل عن أخبارهم . لكنه كان جاهلا بأحوال فرشته كلية ومع أنه سمع من سوسن أنها تشاجرت مع بهرام إلا أنه لم يمل إلى رؤيتها .

ذات يوم بعد ظهر يوم جمعة ظل ماكثا فى المنزل يقرأ كتابا ، جاءته أخته الصغيرة لاهثة وأخبرته أن شخصا يريده على الباب . نزل بسرعة . كان منوچهر ، كان متجليا ونظيفا ممشط الشعر ، مرتديا سترة قطيفة قرمزية اللون ، ضاحكا وصاخبا .

" هل خاصمتنا يابن الكلب ؟ لقد جئت لأراك كى لا تخطئ ثانية . "

" أنت ابن الكلب . "

" أنا ؟ تسب بالأم والأب ، هه ؟ أشق بطنك بالسكين الآن . "

" كف يدك يابنى ، الأطفال لايضربون ... حرام . "

وتنحى عن الباب وقال :

" أدخل لنرى . كم أنا مشتاق لك . "

ثم انحنى وقبله واصطحبه إلى الحجرة .

قال منوچهر :

" لم أكن أتخيل أنك فى المنزل . أيوم جمعة وبقاء فى المنزل ؟ إن فرشته تعرفك حق المعرفة . لقد كسبت الرهان . والله يكون مجنونا من يبقى فى المنزل مثلك أيام الجمع . لماذا لا تأتى إلى منزلنا ؟ "

" كنت مشغولا . "

" مشغول ؟ من شغلك إذن ؟ لقد سمعت أنك تخاصمت مع سوسن . "

" أجل . "

" فعلت طيبا . إنها فتاة فظيعة . حسنا ، ماذا تفعل إذن ؟ بالله أخبرنى لأعرف أيضا . لم ير كلانا الآخر منذ فترة طويلة . حتما عندك أخبار كثيرة ستخبرنى بها . "

" يا بنى أنت واهم أيضا . تظن أن تحت القبة شيخ . الحياة بنفس الأسلوب الذى كانت عليه : الصبح فى الدكان ، والعصر فى المنزل . ليس هناك أخبار أخرى . فماذا فعلت أنت ؟ وأين ذهبت ؟ كانت سوسن تقول إنكم لستم موجودين هنا ، لقد ذهبتم إلى قرية أحد أفراد عائلتكم . "

" ذهبنا أسبوعين وعدنا . ونفكر فى الذهاب أسبوعا آخر أيضا . القرية ملك أحد أصدقاء أبى على بعد بضعة فراسخ أعلى الكرج . المكان جميل جدا ، معتدل ومخضر . من تلك التى يقول فيها الشاعر

أنها لاباردة ولا حارة وأن ربيعها دائم بلا جدال فى أشد أيام الحر . والخلاصة أن الأحوال كلها على مايرام جدا والبنات هناك على قفا من يشيل . يكفى أن تفتح يديك بشاعرية أيضا حتى يمتلئ حضنك . أواه عزيزة قلبى ، محبوبتى ، جميلتى ، أنا أحبك ... عندى أشياء كثيرة أقولها لك . قم والبس ملابسك لنذهب إلى منزلنا ... الأولاد ينتظرون "

" أولاد ؟ من هم ؟ "

" لاتخف يابنى ، ليس هناك أحد غريب . نحن أنفسنا اشتقنا إليك كثيرا . فقلت أذهب بنفسى لأصطحبه وأحضره . "

" لن آتى . "

" لماذا ؟ "

" لست فى حالة تسمح . "

" قم وأنا أفيقك . حقيقة ، فرشته غاضبة منك . فماذا قلت لسوسن حتى خبرته ونقلته لفرشته بنفس الطريقة . كانت تقول لم أكن أتوقع من كمال قط أن يقول هذه الأشياء من وراء ظهره . "

" أى أشياء ؟ "

" لا أدرى . لم تقل شيئا لى . فهى غاضبة منك جدا . لكنها تود أن تراك . فهى منتظرة الآن أن أصحبك معى . قم إذن أيها المتبلد . "

" الخلاصة ، آتى هناك من أجل ماذا ؟ "

" أنت عايز علقة ، هاه . تأتى من أجل ماذا ؟ ثم ماذا ؟ أبيننا شئ من هذا الكلام ؟ إذن من أجل أى شئ كنت تأتى دائما ؟ "

ابتسم كمال وقال :

" كنت آتى لأشرح لكما . لقد أنهى السيد المعلم مهمته . "

" ملعون ياابن الكلب ياابن الزنا . أحطم فمك ، هل استأت منا إلى هذه الدرجة ؟ أخبرنى كم اشتقت إليك ، قلت أذهب لأرى أين هو وماذا يفعل . حسنا لنفوت هذه . ذهبت البارحة إلى المدرسة وأخذت ملفى ، الوداع . "

تساءل كمال مندهشا :

" لماذا ؟ "

" لقد اشترى أبى منزلا فى شميران وباع هنا . وبعد سبعة أيام أو ثمانية ننقل . لو كنا قساة لذهبنا . "

" بعد سبعة أيام أو ثمانية ؟ "

" ربما أسرع ، إذن ألا تريد المجئ إلى منزلنا ثانية ؟ أيها الجاهل . "

عندما خرج كمال من الحجرة مع منوچهر ، رأى أخواته يقفن يتنصتن خلف باب الحجرة ، وعندما رأوهما قفزن من مكانهن وفررن محدثات جلبة .

عندما وصل إلى منزل منوچهر ، شعر كمال بفتور عجيب فى قلبه ، لأنه رأى نفسه ثانية أمام الباب الأخضر الكبير للمنزل وهجمت عليه نفس الأفكار والمشاعر القديمة ، كان مضطربا : يدخل المنزل ثانية ويحارب شعوره بالغربة بينهم ويتحمل ما يكره ثانية . إذن من أجل ماذا ؟ وكيف ؟ لكنه عرف نفسه أنها آخر مرة يذهب هناك ، ووضع فى حسبانه

أنه جاء من أجل تشييع ذكريات ماضية وتوديعها .

أثناء الطريق فهم أن منوچهر لايعرف شيئا مما حدث بينه وبين سوسن . كان قلقا ربما تكون أمه قد سمعت شيئا من أختها أو من سوسن ، لكن عندما أطلت أم منوچهر بوجه متهلل بشوش ناحيته ، اختفى كل قلقه . وعاتبته أم فرشته لماذا تركهم ولم يأت إليهم :

" لاتذهب أيضا إلى منزل منيجه . إنها كانت تبحث عنك عندى قائلة إنك تشاجرت مع سوسن وخاصمتهم ، أليس كذلك ؟ "

قال كمال :

" لا ، كنت مشغولا قليلا ، ولم أستطع الذهاب إليهم .

ضحك منوچهر وقال :

" كان مشغولا بالأخلاق يا أمى . "

قالت فرشته :

" حشرت نفسك ثانية يامليح . "

قالت أم فرشته :

" هل خاصمتنا أيضا ؟ لماذا لم تطل علينا ؟ "

قالت فرشته :

" أنا غاضبة من كمال غضبا شديدا . "

قال منوچهر :

" أحسن ، بناقص دلوعة . "

دخلت سكينة الحجرة تحمل صينية الشاى . وكان موجودا فى الصالون غير فرشته وأمها أمرأة وفتاة أخرى أيضا . كانت صبية شقراء ذات بشرة بيضاء يملأ النمش وجهها . بينما كانت أمها سمينة وضخمة بحيث كان جسدها البدين يملأ الكرسى .

كان منوچهر جالسا بجوار كمال ، بينما كان الأخير يشرب الشاى ببطء وهو صامت . كانت فرشته مشغولة بالحديث مع الفتاة الشقراء ، وكانت تستدير بنظرها أحيانا تجاه كمال تنظر إليه بعينيها الجميلتين الحانيتين .

سـأله منوچهر :

" ألم تر محمودا أخيرا ؟ لا أعلم شيئا عنه ولاأعرف شيئا عنه منذ فترة طويلة . "

قال كمال :

" إنه مشغول جدا . فى الليل يذهب ليشرح فى المدرسة ، وفى النهار يدرس أيضا لامتحان كليته . وقته كله مشغول . أراه أحيانا . مركزه نفس المقهى القديم . كان يقول إنه رآك ذات مرة مع فتاة شقراء فى الشارع . ولم يظهر نفسه لك ، ولم يحب أن يضايقك أو يتطفل عليك . "

وأدار عينيه تجاه الصبية الشقراء بلا إرادة ، وضحك منوچهر وقال بصوت منخفض :

" هل تذكرت الرسالة إياها ؟ كانت هى التى كتبتها . "

وأشار بعينيه إلى الفتاة وبرقت السعادة فى عينيه . فنظر كمال إلى

الفتاة والتى كانت تشبه فرشته وفى عمرها . ممشوقة القوام ، جسدها مسحوب ومتناسق . وقد دهنت وجهها بالبودرة . وكانت شفتاها الرقيقتان والصغيرتان قرمزية اللون . ثم قال منوچهر بصوت منخفض :

" إنها فتاة حسناء ، ذائبة فى هوى صاحبك . "

بعد ذلك خرج من الحجرة مع فرشته ومنوچهر والفتاة . كانت السماء صافية مصقولة والشمس دافئة .

وأخذ كمال يسير ببطء بجوار فرشته تحت ظلال الأشجار وكان كلاهما ساكتا . لاحظ كمال أنهم جمعوا متاع المنزل وأثاثه ووضعوه جانبا بالقرب من باب المنزل فى ركن من الحديقة . كل ركن فى الحديقة كان يوقظ فيه رغبة وخيالا . فذكرى الأيام المليئة بالرغبة والفتنة التى قضاها هناك ، كانت تترك فى حلقه طعم المرارة وأفعمت قلبه بالحزن . أحيانا كان ينظر من جانب عينه إلى بروفيل فرشته الجميل والرقيق ، ويتذكر العشق الذى جعل قلبه يدق فترة ، فكانت عنده رغبة ملحة أن يطرد من حافظته الذكريات الماضية ، وكان تحقير هذه الخيالات يدفعه إلى أن يكون مع فرشته باردا غير مكترث . كانت فرشته تنظر إلى وجهه بعينيها الحانيتين المثيرتين . فكان كمال يرى فى سلوكها وحركاتها إطراء وإغراء لم يره من قبل . كان يشعر أن فتور سلوكه يثير فرشته فتسعى إلى جذب اهتمامه إليها بنظراتها وإغرائها .

كان منوچهر يتقدم على بعد مع الفتاة الشقراء . كانت ضحكاتها عالية . كان يقول لها شيئا فتضحك بصوت عال جدا . ابتسم كمال

وتذكر كلامه :

" اضحك البنات أولا ، وأشغلهن بعد ذلك ، وافعل معهن كل ما تريده . "

حطمت فرشته حاجز الصمت وسألته بصوت مخنوق :

" هل أحببت سوسن جدا ؟ "

فانطبعت ابتسامة حزينة بجانب شفة كمال وقال بشجاعة أدهشته هو أيضا :

" بنفس القدر الذى أحببت به بهرام . "

تكدر شكل فرشته ونظرت إلى كمال غاضبة . وفتحت فاهها دون أن تخرج صوتا منه . وأخذت نظرة من كمال فنظر إليها وسألها بهدوء :

" كيف تخاصمتما ؟ لقد كنتما سعيدين معا . "

فأجابت فرشته بحدة :

" إنه ولد سئ ، سئ جدا . عديم الشرف ، متشرد ومحتال . "

" الآن مع سوسن ؟ "

" أجل . "

" إنه لايعجبنى . "

" ألم تأت هنا لنفس هذا السبب أيضا ؟ "

" لا أدرى . "

" هل أحببتها جدا ؟ كانت تقول أنك ميت فى هواها ، وكانت تقرأ

لى رسائلك الغرامية . "

أطرق كمال رأسه خجلا ولم يقل شيئا .

" كانت تقول إنك كنت محبا لها من البداية وإنك كنت تجعلنى الوسيلة . "

" ماذا ؟ جعلتك الوسيلة ، أية وسيلة ؟ "

" أخبرتنى بأنك قلت إنك هدفت من البداية أن تتعرف عليها وأنك جعلتنى الوسيلة . وكانت تقول إنك أحببتها من أول نظرة . "

" أنا ... لم أقل مثل هذا الكلام مطلقا . "

" وقلت لها إن فرشته تمشى وتزيق . "

" يا لها من افتراءات . "

" وقلت لها إنك تحملت المشاق وبذلت مجهودا حتى حشرت الدروس فى رأسى التى كالجبس . "

" لا . "

" وقلت لها إننى خدعتك وإننى كنت أستغلك . "

" لا . "

" متى خدعتك ، هاه . متى قمت باستغلال صداقتك أسوأ استغلال . أنا ... لم أتخيل قط أنك تتحدث عنى بهذا الأسلوب . لم أتوقع منك مطلقا . أنا ... كنت طيبة معك . بالله لم أكن أريد أن استغلك فى أى وقت قط . أنا ... أنا ... بالله دائما ..."

واختنق صوت فرشته وسالت ذرات الدمع على وجهها . فارتبك كمال وخرج عن فتوره وقال بحدة بالغة :

" كله كذب . كله كذب . أنا لم أقل عليك كلمة لسوسن أصلا . ناهيك ماذا حدث لأصغرك وأحقرك أمامها . كنت دائما ... إياك ... إياك ... "

" ألم تقل شيئا قط ؟ "

" لا والله . "

" إذن فقد اختلقت هى كل هذا الكلام . "

" أجل أنت نفسك تعرفينها ، إنها فتاة غير سوية وكذابة . يجب ألا تصدقى كلامها ، ولايصل الأمر أن تتضايقى منى . فأنا لا أحقرك أمام سوسن ولا أمام أى أحد آخر قط . يجب أن تفهمى الموضوع لقد أحببتك أنت ... دائما . "

فانفرجت أسارير وجه فرشته من الحزن ومسحت وجهها بظهر يدها ، ونظرت إليه نظرة رضا وابتسمت :

" كنت أعرف أن هذا الكلام قد اختلقته . إنها مثل خالتى ، فأبى يقول حقا إنهم أجلاف ومبتذلون ، لايعجبنى أحد منهم قط . فعلت خيرا أنك لم تعد تذهب إلى منزلهم ثانية . تعلم أن سوسن كانت تأتى هنا وتهزأ بأفعالك وتصرفاتك . ماذا فعلت لها إذن حتى استاعت إلى هذا الحد ؟ كانت تقول إنها لاتراك أبدا ... وإلا فعلت بك ما تستحق . "

ابتسم كمال :

" أظهرت لهم مع من يتعاملون . كان أبوها يظن أننى أغنى ، وكان

يريد أن يصطحبنى لأغنى فى النادى . كانوا يريدون أن يلقوننى بأيديهم إلى التهلكة . سوسن هذه الجهنمية وأمها تلك ... دعك ، ألا من الأفضل ألا نتحدث عنهم ؟ حقا عندما أتحدث عنهم أستاء من نفسى كثيرا . آنذاك مهما يكون فهم أهلك وأقاربك . "

ابتسمت فرشته وهزت رأسها وقالت :

" وهو كذلك . "

كان وجه فرشته متهللا سعيدا وعيناها تبرقان . كانت تنظر نظرات متصلة فى عينى كمال ، وكانت تسبل عينيها .

وفى الحديقة رأى منوچهر وسط الأشجار ممسكا بيد الفتاة الشقراء ويجذبها بشدة خلف الأشجار فابتسم وقال :

" إذن وصل منوچهر إلى مراده ووجد صاحبة الرسالة . "

ضحكت فرشته :

" أنا التى اكتشفتها له . فلم يصل إليها بنفسه . لقد أخبرتنى " بروانه " وأبلغتها أيضا سرا إلى منوچهر . ففى مقابل هذا أعطانى منوچهر كراسته أيضا . لاتدرى كم هى كراسة جميلة . كم كتبت فيها أشياء جميلة . "

ونفذت بنظرتها المغرية فى عينى كمال ، وقربت نفسها إليه أكثر وسألته بإطراء :

" لو كنت تحبنى فلماذا لم تأت هنا إذن ؟ أنا لازلت غاضبة منك . "

واتكأت بجسدها الرقيق اللطيف على جسد كمال ، فاقشعر كمال

وانتحى جانبا وهو مضطرب . لقد بدا له أنه يرى سوسن إلى جواره وسيطر عليه النفور . ثم همست فرشته فى أذنه :

" لقد تغيرت كثيرا ياكمال ، كثيرا . "

ولصقت نفسها به مرة ثانية وقالت :

" إنك متأنق . لقد أصبحت لطيفا . لقد أصبحت محترف حب . "

فضحك كمال :

" وماذا أيضا ؟ "

جلسا على كراسى بجوار حوض الماء ، وقالت فرشته ثانية :

" أقول لك بجدية ياكمال ، لقد تغيرت كثيرا . "

" أى تغيير إذن ؟ "

" لا أستطيع حقا أن أقول . كل ما أعرفه أنك تغيرت كثيرا . "

" لماذا إذن ؟ "

" فى رأيى ... لا أدرى ماذا أقول ، أعرف بنفس القدر أنك لم تعد كمال السابق . "

لم يقل كمال شيئا ، وكان طير فتاح يقف على حافة حوض الماء وهو يشرب ، ويحرك ذيله قليلا قليلا . وأخذ ينظر إليه بعينيه البراقتين الصغيرتين ، ويغمس منقاره فى الماء ثم يرفع رأسه بسرعة . ويخفض جسمه الضئيل ويرفعه إلى الأمام . كأن توازنه قد اختل . وفجأة سحب قوادمه متجها صوب سور الحديقة وكأنه كرة سوداء ... ونظر كمال إلى الماء الذى انعكس عليه وجه فرشته المرتعد والمخطوف ، وتذكر أول يوم

جاء إلى هنا فانحنى ببطء وقبل يد فرشته .

ومن خلفهما ، سمع صوت أقدام مسرعة . كان منوچهر يتقدم بظفر بينما كانت الفتاة الشقراء من ورائه مطرقة رأسها ويداها تصلح من شأن تنورتها بلا إرادة . عندما اقتربا أكثر لاحظ كمال أن وجه الفتاة قد أحمر وتدخل أصابعها بسرعة وسط شعرها المتشعث ثم تنزلها على تنورتها وترتب كل شئ بسرعة . لقد تملكتها حالة من الخجل ممزوجة بالذنب . وما إن وصل منوچهر حتى صاح :

" أوهو ، كيف حال نقاشكما ؟ "

قالت فرشته :

" ممتاز . "

ذهب منوچهر . وجاءت الفتاة وجلست صامتة على أحد الكراسى . وكانت عيناها تتجنب النظر إلي كمال . ولم يمض وقت طويل حتى عاد منوچهر بأقشاط النرد ، وجاءت خلفه أم فرشته وأم الفتاة . بينما كانت سكينة تحمل من خلفهم سجادة صغيرة . قالت أم فرشته لسكينة أفرشى السجادة الصغيرة على حافة حوض الماء ، ثم قدمت اعتذارها أنهم جمعوا أمتعتهم وأنهم مجبرون للجلوس على السجادة الصغيرة . فقالت أم الفتاة الشقراء :

" إنها جميلة جدا ، وصفاؤها أكثر . "

وفرشت سكينة السجادة الصغيرة على حوض الماء وجلس الجميع عليها . واشتركت فرشته مع كمال ، ومنوچهر مع الفتاة الشقراء ،

والأمـهـات مـعـا ، ووزعـوا الورق . ويدأ اللعب . ومـا كـادوا يلعـبـون دورا أودورين حـتـى تملك الجـمـيع انفـعـال اللعب ومـلأت الحـديقـة أصـوات ضحكهم وصراخهم ... كانت فرشته جالسة بجوار كمال تصخب . كل مرة كانوا يكسبون فى اللعب ، كان صراخها السعيد يرتفع . بينما كان كمال يشعر بجسدها الساخن والمثير وكأنه يرشح من قمة رأسها إلى أخـمص قدمـيـهـا ، ويـتـقـطر على جـسـد كـمـال قطرة قطرة ، ويجـرى فى عروقه ويملأ قلبه بلذة مقبولة . واستمر اللعب حتى اظلم الجو . فوضعوا أقشاط النرد فى الكيس وأنهوا اللعب .

وخفت حدة الحرارة قليلا . وذهبت نسمة باردة تداعب وجوههم . بينما كان القمر المستدير المضئ يبسط ضوءه الخالص على كل الحديقة كالحرير .

وبهدوء همست أم فرشته بشئ لفرشته ، فانحنت الأخيرة تجاه كمال وقالت بصوتها المألوف العذب هامسة :

" عزيزى كمال ألاتغنى ، ألاتغنى من أجلى ؟ "

كـانت ليلة جـمـيلة . وكـانت النجـوم تتـلألأ وتضئ الواحـدة تلو الأخرى منبثقة فى حوض الماء وكأنها نيلوفر أبيض ، وتملكت كمال حالة من النشوة والسعادة ، ونسى العهد الذى أخذه على نفسه بألا يغنى أبدا أمام أحد ، وبدأ فى الغناء العاطفى المحزن :

" اسأل عن طول الليل من عيون البائسين المتألمين ... "

وعندمـا نهض من مكانه ، كـان الوقت قـد تأخـر . رافـقـوه حـتى الباب... وألحوا عليه ثانية .

قال منوچهر :

" أقنع أباك بأى طريقة . لايصح أن تذهب طوال الصيف إلى الدكان . إذن متى تمرح وتلهو. قل له إنك تريد هذا الأسبوع الأخير تروح فيه عن نفسك . بعد غد سنذهب إلى القرية . تمكث أسبوعا ثم تعود . أسبوع لايعد شيئا . "

وقالت الفتاة الشقراء والتى كانت تتحدث معه الآن بألفة :

" لاتنس أنك وعدتنا . تعرف لو جئت ، كم يمر الوقت سعيدا علينا جميعا فى القرية . "

وأمسكت فرشته يده وقالت :

" إذا لم تأت سوف أغضب منك ياكمال . أزعل منك جدا ... أنت تعلم أننى أتكلم بجد . "

وضغطت على يده ، فقال منوچهر :

" إنه آت يابنيتى ، إنه آت . إن كمالا ليس أهلا للتملص . إنه وعد وسوف يأتى . "

*　　*　　*

وذهب إلى المنزل متأخرا جدا عن كل ليلة . متأخرا جدا إلى درجة أن كانت المحلات مغلقة والحوارى والشوارع خالية . بينما كان الدركيون يسيرون فى الشارع ، كان بعضهم ينظر إلى كمال نظرة شك عندما كان يمضى مسرعا أمامهم . كانت ليلة مقمرة ودافئة حيث كان قرص

القمر يحلق فى السماء مضيئا .

فأسرع كمال الخطى حتى يصل إلى المنزل فى أسرع وقت . كان يوبخ نفسه لماذا نسى كل شئ فى منزل منوچهر ولم يتنبه لمرور الوقت . وتلاشت سعادته ونشوته وعاد إلى حزنه ثانية . وظل يشتم فرشته ومنوچهر في داخله . عندما وصل إلى المنزل ، لاحظ أنهم أغلقوا الباب بالمزلاج ، فاضطر إلى طرق الباب وهو خائف ومرتعد . كان يخشى أن يفتح أبوه الباب ويحدث ضجة في الليل . وتنفس الصعداء عندما سمع صوت أقدام أمه المألوف خلف الباب .

لم تقل أمه شيئا قط . ردت السلام عليه بفتور . ووضعت المزلاج خلف الباب ثانية دون أن تنبث بحرف ، فاستدار ومر بهدوء من صحن الدار وتوجه إلى حجرته . لقد ظل فترة يلاحظ فتورا وقسوة خاصة فى سلوك أمه . وشعر أن أمه لم تعد تهتم به كما كانت فى الماضى . أينما كانت أمه تذهب وأينما كانت تجلس كانت تفتخر به :

" إن لكمال طبعا آخر غير ما لأولادى الأخر . لم يرسب فى الامتحان قط حتى الآن . عنده إقبال شديد على الدرس . إنه يريد أن يدرس الطب . "

فمنذ فترة لم ترضيها مذاكرة كمال أو درجاته ، وأيضا لم يعد فى وجهها أثر من ذلك الشعور بالفخر والرضا السابق ، وبدلا منه بدا التعب والقلق على وجهها الحزين والمجعد . لاحظ كمال أن سلوك أمه تغير معه تماما . كانت تنظر إليه بعين أخرى . وبالتدريج كان يشعر أنه

غريب بالنسبة لأمه . فلم تستطع أن تتحمل الواقع بنفس الصورة التى كانت تراه بها . كأنها كانت تعيش فى الماضى وتريد أن ترى كمالا صغيرا ومطيعا بنفس هذا الأسلوب ... أن يأتى كمال إلى المنزل بشوق ولهفة والشهادة فى يده مهللا " عزيزتى لقد نجحت فى الامتحان " . إنها الآن ترى أن كل شئ مستحدث فى كمال ، فأصبح أساس قلقها . كل شئ لم تكن تستطيع فهمه ، كان يصبح باعثا على قلقها ، وكانت تبدأ فى الزمجرة والتعلل ، وكان كمال يضطر غالبا إلى التوضيح ، لكن لم تكن تفهم كلامه وتفسر سلوكه بشكل آخر . كانت تتألم منه ببساطة وتغضب لأتفه الأشياء وتبدأ فى الشكوى .

" إن يدى أصلا لا بركة فيها ، ومهما أحسنت لايقدر أحد . "

بينما كان كمال يقول :

" ياعزيزتى إنك لم تفهمى قصدى جيدا ، أنا قلت ... "

" أنا لم أفهم ؟ يعنى أنا لا أفهم . معقول يابنى : يعنى أنا حمارة ؟ "

" لا يا عزيزتى ، كنت أريد أن أقول إنك لم تنتبهى أن ... "

" ألست منتبهة ؟ أنا منتبهة جدا . ماذا دهاك ؟ الآن ولم يحدث شىء بعد ، فقدت نفسك تماما . "

" من فقد نفسه يا عزيزتى ؟ "

" أنت ، أنت الجحود . تعرف أن الذى يقول لأمه أنت لا تفهمين . هو الذى لا يفهم وحمار ، تعلم أن ... "

" متى قلت إنك لا تفهمين ؟ أنت تختلقين هذا يا عزيزتى . "

" قلته الآن بعينه . ألم تقل إننى لا أفهم ، يعنى أنا حمارة . "

" فى النهاية يا عزيزتى ، قصدى هو أن ... "

" اذهب ، اذهب ، فى الأيام الأخيرة أنت ممتلىء كبرياء ، تظن أن كل من درس بضعة فصول يجب عليه ألا يحترم أحدا . أن يصير الإنسان عالما ، فهذا أمر سهل ، أما أن يصير مؤدبا فهذا هو الصعب . "

" متى عاملتك بوقاحة وعدم احترام يا عزيزتى ؟ "

" اذهب ، أنت لم تصر شيئا بعد ولديك كل هذا الكبر ، فويل لذلك اليوم الذى تكون فيه إنسانا . لابد أنك لا تعرفنى . "

ترك درجات السلم بلا صوت خلفه ودخل حجرته . كان مرة أخرى فى حجرته ودخل المنزل الذى تفوح فيه رائحة القدم والعفن ومع مشكلته الدائمة :

" ماذا أستطيع أن أفعل ؟ هل أستطيع أن أسير معهم وأتصرف مثلهم ؟ هل أستطيع أن أنفصل عنهم ، ماذا أفعل ؟ "

كان ظمآنا ، فحمل كوب الماء ونزل دون أدنى صوت حتى يذهب أسفل الصنبور ويأخذ قطعة ثلج . فكانت أمه تضع الثلج فى جوال أسفل الصنبور . عندما هبط درجات السلم سمع صوت أبيه :

" ذهب فى الظهر ولم يظهر حتى الآن ، أتعلمين أين يذهب ؟ هل أنا أعلم أين يذهب ؟ لا . ينبغى الوقوف أمامه قبل أن يضيع الأوان ، وحتى لا يضع فى يدنا غدا كأسا ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ . عندما تعوج الشجرة يمكن إقامتها . فكرت أنه من الأفضل ألا يكون تحت يدى وجناحى . أن يتربى وينشأ تحت يد أخرى . الأفضل أن يضبطه ويربطه

شخص أجنبى . بالأمس اتفقت مع الحاج أصغر الدباغ وهو ممتن جدا . أين يستطيع أن يجد كاتبا مثله ؟! . عندما قلت له ، قال : عندما تحضره فقدمه على عينى . كمال ليس غريبا ، فهو منا ... كان الحاج سعيدا بشكل لا يوصف ثم إنه عندما يتقدم فى العمل سيكون نفعه كثيرا لى . أستطيع بنفسى أنا أيضا أن أشترى الجلد غير المدبوغ وأعطيه ليقوموا بدبغه وآخذ مكسبه لنفسى . "

قالت أمه :

" هذا هو أفضل شيء . أنت نفسك تعلم أن الحاج أصغر عنده أفكار وأحلام بالنسبة لكمال . إنه يود كثيرا أن يزوج كمال ابنته . هل تتذكر العام الماضى عندما جاء من مكة وأرسل قطعة قماش لكمال قائلا : إنها لعريسنا ، لو نأخذ فاطمة لكمال ستزدهر أحواله . ويكون الحاج أصغر ظهره ، وترقى أموره . رغم كل هذا فكر بنفسك ، أليس خسارة أن تخرجه من المدرسة بعد أن درس عدة سنوات وتحمل الصعاب ، والآن وقد وجب أن تنال ثمرته . لقد صبرت حتى الآن ، فتحمل عاما آخر واصبر حتى يحصل على شهادته على الأقل . بعد ذلك أنت حر . افعل معه كل ما تريد أن تفعله ، وما سألك أحد لماذا ؟ "

صاح أبوه :

" إذن كفى ما سمعته من كلامك وكلام أخيك . أريد أن أعرف أى نفع من هذه الدراسة ؟

لو يدرس عاما أو عشرين عاما ، فما الفائدة التى تعود علىّ ؟ أى

حمل يرفعه عن كاهلي ؟ أي تغيير يحدث لي ؟ مع كل هذه المصاريف التي أنفقتها وكل هذا العناء الذي تحملته من أجله ، أخبريني لأرى أي نفع عاد عليّ حتى الآن ؟ هاه ؟ أريد أن أرى أيضا أي فائدة تعود عليه من هذه الدروس الكافرة التي تبعده عن الدين والإيمان ، هاه ؟ مهما درس أولادنا فلن يصبحوا شيئا . منذ بضعة أيام قابلت الحاج عبد الله . كان قلبه حزينا داميا ، فبعد أن أنفق على أولاده كل هذه النفقات مضطرا ، يتسكعون منذ عام بلا عمل . من يقدم لهم العمل ؟ ليس لهم أحد يضعهم فى عمل ما . لا يسمح لهم أو يقبلهم أحد فى مصلحة قط . آنذاك أيضا لم أكن أريد أن أخبرك ببعض الأشياء حتى الآن ، تعلمين أننى رأيته بنفسى ذات مرة فى الشارع يجلس مع فتاة سافرة عارية فى سيارة وتعلو ضحكاتهما . هكذا كانا يتحدثان من القلب إلى القلب وكأنهما لا يحملان رائحة من الخجل والحياء . بصقة على زمانهم وأيامهم . بلغ الأمر أن يأتى إلى هنا وراءه قائلا له : تمام ... الأوضاع على ما يرام والبنات كثيرات . انظرى إلى أى الأمور شغلت رأسه بحيث يأتون الآن وراءه . كنت أظن دائما أن هناك خدعة فى أمره . تعلمين ما أخبرنى به أخى أنه يذهب إلى منازل الأعيان والنبلاء ليشرح لبناتهم . كان أخى يقول : يجب التنبيه عليه حتى لا يخدعونه ويفقدونه عقله . إنه مخدوع عديم الشرف ، والدرس مجرد حجة . ليس واضحا ماذا يخفى خلف ظاهره حتى يذهب معهم إلى الرقص والمجون . بصقة على هذا الزمان الذى يقدم لنا كل يوم خدعة ، بصقة ... من يفكر أن ابنى ... من كان يصدق أن ولدى صايع بلطجى ؟ كل يوم يعلق على رقبته زنارا بلون ،

ويمشط شعره ، ويجلس بجانب البنات فى السيارة .

أول أمس ذهبت إلى حجرته لأرى رف كتبه مليئا بكتب العشق والغرام . تدور كلها حول الشوق والقبلات واللعق ... ليس بلا سبب أن عديم الشرف الكسول لا يهتم بعمله . عندما أحرك رأسى يتسلل خفية من الدكان . ليس معلوما أين يذهب وماذا يفعل . غدا يعنى غدا سوف يصيبنا شؤمه[1] من على البعد ... بصقة ... بصقة على زمانه . عندما أفكر أننى تحملت كل هذه المتاعب من أجله ، وأنفقت عليه كل هذا وتكون نهايته هكذا يفور دمى غضبا وغيرة . "

وضع كمال رأسه على الحائط وأغمض عينيه :

" لابد أن أخواتى تنصتن على كلامى أنا ومنوچهر خلف الباب . إذن ليس بلا سبب أن أبى صار عطوفا معى هذه الأيام . لابد أنه دبر شيئا لى . "

ودب اليأس فى قلبه كأنه خنجر :

" إنه يريد أن يخرجنى من المدرسة ويتركنى عند الحاج الدباغ ، وأتعلم الدباغة حتى أضيف له دخلا فى المستقبل . إنه يتحدث عنى وكأنه يتحدث عن أحد حمره . كأنه اشترانى . كأنه صاحب إرادتى ومالكى . سوف أعرفه . إننى تحملت كل أساليبه حتى الآن ، وكنت أقول دعك حتى تنقضى هذه السنة . لكن الآن كيف أصبر عليه ، حتى الآن يديرنى بالشكل الذى يريد . كم للإنسان من طاقة وقدرة . كم يستطيع أن يتحمل . لقد بذلت مجهودا من أجله طوال الصيف وصنفت دفاتر

---

(١) جبلى قم قم : الفج من الجبلة أو من الطبيعة وتعنى الشؤم. وقم قم تعنى الحصرم وهى كلمة عربية .

حسـابـاته ، وسـعـيت بروحي وقلبي في إثر أعـمـاله حتى لا يمنعني من الذهاب إلى المدرسة أيضا ، لقد أخطأ تماما والآن يريد الشرير البخيل السيىء أن يخرجني من المدرسة حتى أذهب لأتعلم الدباغة ويزيد دخله . إنه متخبط . سوف أدبرحصرماً بحيث يتمتع به تماما . "

رفع صـوت حـذاءه بغـضب شـديد ودخل صـحن الدار . كـان يجـر حـذاءه كـالأطفـال على سـيـاج صـحن الدار المبنى من القـرمـيـد ، ويروح ويجيء كالمجنون من هذه الناحية إلى تلك .

كان صحن الدار مستكينا في ضوء القمر . وكان كل شيء ساكنا . وكان صـوت حذائه يرن في الصـمت . كان يشـعر بقوة غضب عارم في نفـسـه . كـان ينتظر بقلق وشـوق . كـان ينتظر أباه عندمـا يخـرج من الحجرة ويضع معه حسابه دفعة واحدة . كان والداه صامتين ولم يسمع صوتا قط من حجرتهما .

وفي النهاية ظل عـاجزا مـضطربا وحـزينا ، وعـاد إلى حـجرتـه ظمـآنا دون أن يأخذ ثلجا باردا من تحت الصـنبور . فلم يشـعر في أي وقت بمثل هذا الشـعور بالحـزن والوحـدة . كـأن البسـاط سـحب من تحت قدمـه مرة واحدة وسقط في الهوة . جلس بجوار النافذة وبدأ في الحديث مع نفسه :

" مـاذا أفعل ، مـاذا أفعل الآن إذن ، معـهمـا ... اخـفض لهما جناح الذل : إلى متى يستغرق الحنان والطاعة ، إلى متى ؟ لقد تعبت . متعب ، متعب ، متعب . لابد أن أمضى من هنا . لابد أن أمـضى من هنا حتى لا أتأخـر . إننى أخـشـى ألا أتحـمل ثانيـة . إننـى أخـشـى أن يفـوت الوقت . إننى أخشى ... يجب أن أمضى من هنا ، أمضى ، أمضى . "

*   *   *

وفى منتصف الليل استيقظ من نومه ، وهو حزين متكدر ، كأنه رأى حلما سيئا . وظل تأثيره نحسا وسيئا ، لكن النوم ضاع . فلم يذهب بالأمس إلى دكان أبيه وظل طوال اليوم فى حجرته . كان يقوم ويروح ويجىء من جانب الحجرة هذا إلى ذاك ، بينما لم تهدأ عاصفة أفكاره .

ومن النافذة كانت تدخل الحجرة نسمة باردة . ورأى سحابة سوداء فى السماء أمام النافذة تسير مع صف أبيض من النجوم كأنها ذئب مخيف مكشر عن أنيابه . أغمض جفنيه المتعبين الثقيلين وجاهد أن يمحو الأفكار المحزنة عن عقله . فكر فى اليوم الذى أمامه :

" أنام حتى لا أنعس فى الصباح . "

كان يتقلب على جنبيه ، ولم ينم . فدار بنظره إلى الظلام أمام الحجرة ، وتمتم بشفتيه :

" يا لها من ليلة طويلة ! "

كان الليل بالنسبة له طعاما زائدا . هجم أول الليل برغبة واشتهاء على هذا الطعام ، وأغمض عينيه معا على أمل الذهاب فى النوم ورؤية حلم . لقد تملكه الضيق والنفور منه الآن . لقد طال الليل عليه ولم تكن خيالاته حلوة مثل بداية الليل . كانت محزنة ومنفرة . كلما أراد ألا يفكر ، لم يستطع . كلما كان يفكر يرى وجوده إضافيا فوق العدد وبلا نتيجة ، إنه إنسان إضافى . كان يرى نفسه وكأنه بضعة من الحباب الموجودة

تحت النافورات تستقر فوق سطح الماء وتبدى نفسها . كان يشعر أنه إضافى فوق العدد مثل يد تحت شلال أجوف وصاف ، لكن أبوه هو أصل الشلال ، إنه ماء ، إنه لا شيء ، صاف وأجوف . كل من كان يعرف أباه ، كان يعرفه أيضا . فكان يقع موقع القبول من أجل أبيه وكانوا يحترمونه لخاطر أبيه ، عندما كان يتحدث عنه ، كانوا يتذكرون أباه :

" ياله من ابن محترم له وزن ، حقا إنه ابن فلان . إن تعليمه فى مكانه ، إن اهتماماته وكمالاته من أبيه . "

عندما استرجع ونظر إلى ماضيه ، كان قلبه مفعما بالغضب . فسأل نفسه :

" من يكون أبى هذا ؟ أى عمل مارسه ؟ أى فضل أبداه حتى يكون له كل هذا التقدير والقيمة والقرب ؟ أليس أكثر من متهوس مذهبى . فتوة ؟! "

أنذاك كان صراخ هذا المتهوس المذهبى يعلو دائما باحتقار :

" هل أنت ابنى يا مفضوح ؟ كنت نصف حجمك وكنت أدير حانوتا ، وأنت ساذج عديم الكفاية لازلت لا تستطيع كسب قرش أسود ! . أنا لا أدرى ماذا علموك فى هذه المدرسة إذن . أية فائدة من هذه الدروس حتى الآن ؟ ابن الشيخ على قارىء الروضة لم يدرس أكثر من خمسة صفوف ، تعال وانظر ماذا جمع من أموال ، وكيف ثرى . آنذاك أنت لازلت غير كفء . حتى الآن تمد يدك وتتسول منى . أريد أن أعرف أى

نفع من هذه الدروس ؟ خسارة ما أنفقته عليك من مال . خسارة هذه المتاعب التى تحملتها من أجلك . خسارة . خسارة أن ينفق الذهب على مجرد مطلى بالذهب . لو كنت تعلمت حتى الصف السادس وحملتك إلى الدكان لكسبت أموالا كثيرا من ورائى . إننى أجرمت ، حقا والله إننى أجرمت . خطأى هو أننى لم أسمع كلام أخى الحاج ولم أرسلك من أول يوم إلى قم لتدرس وتتعلم عند السيد وتنمو وتنشأ فى طريق الله كجدك حتى لا أكون أسود الوجه سىء العاقبة فى العرصات عند الله ورسوله . خطأى أننى وافقت على كلام أمك وخالك . أرى نتيجته الآن . "

ظل لمدة اثنتى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة يحمل كتبه تحت إبطه ويذهب إلى المدرسة . بعد المدرسة كان يستدير ويعود للمنزل . لم يحدث أى تغيير أو اختلاف فى هذا السلوك الدائم . كان يذهب من هذه المدرسة إلى تلك ومن هذا الطريق إلى ذاك . لم يحدث فى أى وقت قط أن جلس وحاسب نفسه لماذا يدرس ويتعلم . كان خاله وأمه يأملان أن يصبح طبيبا أو مهندسا . كان عمه الحاج يحب أن يراه يوما عالم دين أو واعظ ، وكان أبوه يريده أن ينتهى بأسرع ما يمكن حتى لا يكلفه بعدها مليما . فالحياة بالنسبة لأبيه كفتا ميزان المال فى كفة والدين فى كفة أخرى ... كان هناك رجل يناجى من بعيد . كان يئن ويستغيث فى ظلمة الليل . أمعن النظر فى الظلام الذى كان قابعا على النافذة ، شاهد قبر سد النافذة . كان أنين الرجل يلقى طنينا فى أذنيه . وقال لنفسه :

" ماذا يريد من الظلام ؟ "

ثم أغمض عينيه وأعطى ظهره للنافذة ، وجر اللحاف على رأسه حتى لا يسمع صوت الاستغاثة . تذكر أباه وفكر مضطربا :

" ماذا يحدث فى صباح الغد ؟ "

أخذ يفكر فى الخيالات الجميلة والمثيرة التى كانت تدور فى رأسه ، وشعر بخوف فى قلبه ونفر من أبيه . كان أبوه مثل كابوس مسيطر على حياته لمدة عشرين عاما وقيد حريته . حياته فى قفص رغباته وطلباته المحددة ...

لقد اختفى صوت المناجاة ، وكان الظلام ينقشع بالتدريج . ومن الظلمة كان نور الحجرة يموج بصور آل البيت المعممين ، بها مرآة طويلة وساعة حائط وجدرانها المشقوقة والمسدودة بالعنكبوت . كانت تنعكس عليه المرآة الطويلة ، وصور آل البيت المعممين وساعة الحائط . وعندما كانت الساعة تطلق عواءها كأنها جرو كلب قد ركل ، كأن كل المعممين من داخل المرآة أخذوا فى النواح ورواية مصائبهم . تقلب واستدار نحو النافذة ، متأملا الخطوط البيضاء والمضيئة التى كانت تعلو عرض السماء . كان الصباح يقترب ، ويصل إلى مسامعه صوت عواء كلب الجار الضعيف والمؤثر . كانت مجموعة من الغربان تطير فى السماء بلا صوت أمام النافذة . ومن الحجرة الأخرى كان يعلو صوت أبيه . لقد أنهى صلاته وهو الآن صامت . كان يرفع أنفه بجلبة ويتظاهر بالأنين :

" يا إلهى ! انظر إلى بكرم أنا الدرويش . أنت المحتشم . فانظر إلىّ أنا جريح القلب . "

كان الصمت قد خيم على كل الحجرات . لم يسمع صوتا آخر سوى أنين أبيه وعواء كلب الجار المحزن والضعيف ، ففر من الصوت . وتملكت قلبه هزة نفور . فأنين أبيه كان يؤذى أذنيه :

" انظر إلىّ أنا جريح القلب ... انظر إلى الجريح ... الجريح ... الجريح ... الجريح ... "

كان الجو صافيا والسحب البيضاء والمتناثرة معلقة فى السماء .أطل من النافذة على السماء كأنها لوحة مرسومة . إنها نفس اللوحة الجميلة التى رآها فى حجرة فرشته . تخيل أن السماء والسحب المتفرقة البيضاء وضعت فى إطار النافذة . ليسمع صوت فرشته الرقيق والعذب فى أذنيه :

" إذا لم تأت سوف أغضب منك ، إذا لم تأت ... "

عادت مخاوفه :

" لو منعنى أبى من الذهاب قائلا أن تأتى إلى الدكان ؟ ... "

وعلا صوت أنين أبيه ومناجاته مرة ثانية :

" ليس لدى شىء جدير بأعتابك ، فلا تنظر إلىّ ، انظر إلىّ بكرمك ... "

" انظر إلىّ ... انظر إلىّ ... "

فأغمض عينيه وحاول أن ينسى مخاوفه واضطرابه . فكر فى الأسبوع الذى سوف يقضيه مع فرشته . فالليلة التى جاء فيها من منزل فرشته كان يراها حلما ، والآن بدت مجسدة وحية هكذا حتى اختلطت مع خيالاته ووساوسه :

يركب الجميع سيارة والد منوچهر . والشوارع لازالت خالية . وتمضى السيارة بسرعة فى شوارع المدينة ، والشمس منبسطة . وكل مكان براق . غارق فى النور . وتعلو السيارة من تل . وكل مكان أخضر وجميل . الجبال الرمادية والزرقاء تحيط بها . فرشته جالسة بجواره . يشير كمال على الجبل :

" إنه جميل . "

وبينما يخترق صوت الرياح ومحرك السيارة من خلال نافذتها . تسأله فرشته بصوت عال :

" ماذا ؟ ماذا قلت ؟ "

فيجيب كمال بصوت أعلى :

" الجبال ... انظرى إليها ، يالها من عظمة . "

تهز فرشته رأسها :

" آه . "

ويرى كمال شجرة وحيدة خضراء مورقة فى سفح الجبل شمخت وحيدة بينما تظلل رأسه السماء الزرقاء والصافية .

" كنت أود أن أكون كاتبا وكنت أستطيع ... "

تلتفت فرشته إليه وتسأله بصوت عال :

" ماذا ؟ ماذا قلت ؟ "

" أود أن أكون كاتبا وأستطيع ... "

تقتحم الرياح السيارة ويختفى صوته . يسمع صوت فرشته بصعوبة :

" أتريد أن تكون كاتبا ؟ "

فيرى الشجرة الوحيدة المورقة . وتداعب الرياح وجهه ، وتصيبه بدوار . بعد ذلك يرى نفسه يعلو من سفح جبل ، ويتقدم منوچهر والفتاة الشقراء بينما كانت فرشته تتكىء عليه ، والجبل الصلد والبراق مرتفع أمامها ، وقطع الحجارة تتدحرج من تحت أقدامهما . وتقول فرشته :

" تعال ! ندخل فى مشاعرة . "

" فيم تريدين ؟ "

" فى أى شىء . "

يضحك كمال ويقول :

" فى أى شىء أريده ؟ "

تبتسم فرشته ابتسامة مليئة بالمعانى :

" أجل ، كل ما تريده . "

" وأنتِ ماذا ؟ "

تغمز فرشته بعينيها وتقول :

" كل ما أريده أنا أيضا ، موافق ؟ "

" موافق . "

" لنبدأ . "

" إبدأى . "

" أشاعر أحد الملات ، فأجبنى بسبعة من قل هو الله ... ابدأ بالهاء . "

" كل قبيلتى[1] ، كانوا علماء دين ، ولقد علمنى معلم العشق الشعر . هات حاجة أولها تاء ... "

وبينما هو مع خيالاته ارتفع صوت أبيه من حجرة جانبية :

" يا حمار ، إلى متى تريد أن تنام ، لقد صارت صلاتك قضاء . كمال يا حمار ، أنا أناديك . "

فتح عينيه وحرك شفتيه معا :

" ت ... "

" ت ت ... أنت أنت ... أنت أنت ... بصقة ... "

ثم تنحنح أبوه بصوت ، وبصق من النافذة فى صحن الدار .

*   *   *

دخل الحجرة . كان السماور يغلى ، وكانت أمه تربط وسطها بملاءتها ، وتجلس أمام عدة السماور ، وكان أبوه محنيا راكعا على ركبتيه أعلى الحجرة يقرأ الكتاب المستطاب " حلية المتقين " . وبينما كان أخوه عبد الله جالسا مع أخواته حول السماور ، جلس فى ركن على

---

(١) وردت فى النص الفارسى : همه قبيله ... أى بدأت بحرف الهاء .

مقربة من السماور . كان يسمع صوت غليان الماء وكأنه أغنية هادئة تدعو إلى النوم ، ونظر إلى البخار الذى كان يتصاعد من السماور كأنه فرخ حمامة . كانت أمه تصب الشاى . وبينما كان أبوه يرتعد تحت عباءته الرقيقة المصنوعة من وبر الجمل ألقى نظرة عليه من أعلى نظارته ، وشكله عبوس قمطرير .

احتسى كمال شايه بسرعة . ونظر إلى أمه وأومأ إليها بعينيه . كان خائفا . فنهض من مكانه ، ونظر إلى وجه أبيه العبوس وخرج من الحجرة . كانت السماء صافية والشمس لم تشرق بعد .

توجه إلى حجرته . وفيها كان فراش النوم لازال مفروشا . فجمع اللحاف الذى كان يشبه إنسانا قاعدا يدعو ، وكومه ووضعه بين ثنايات الحشية . ثم ارتدى ملابسه ، ومشط شعره ، وربط رباط العنق الذى أهدته له فرشته . وتقدم أمام المرآة . ونظر إلى نفسه . فقد تعود منذ الطفولة أن ينظر إلى نفسه عندما يقف أمام المرآة ليرى من يشبه . كان يرى نفسه فى صور كثيرة ، مثل المعممين وأولاد قراء الروضة الذين كانوا يقفون بجوار منبر آبائهم يصرخون عند قراءتهم مراثى آل البيت . أحيانا كان يرى نفسه أيضا مثل أطفال الشياطين الذين يرسمون صورهم على ستر الوعاظ الشعبيين وصور قراء مصائب آل البيت لكنه داخل المرآة . وفى الغالب كان يرى أباه أمام وجهه . تنعكس على وجهه نفس رعشة الشفاة الشهوانية ، حركة الحاجبين المتموجة وبرق العيون الحادة . ذات مرة وفى قمة الضيق أيضا ، كان يرى جاره وهو رجل عجوز ومجنون يربط كلبه غالبا فى شجرة وسط الحديقة ويظل يضربه

بالسوط ضربا مبرحا حتى يقلق الجيران . ذلك اليوم الذى رأى فيه الرجل العجوز فى المرآة ، كان قد ضرب أخواته بلا سبب . أخرج صورة فرشته من داخل ألبومه العائلى ، وبحث عن المال الذى كان قد وجده فى محل البقالة ، وبدلا من أن يعطيه للبقال تركه فى جيبه . والآن عندما كان ينظر إلى المرآة ، كان يرى نفسه عبارة عن وجه مستدير بجبهة مرتفعة ، حواجب كثة وملتصقة ، عيون واسعة براقة وشفاه صغيرة وعالية قليلا ، وبشرته قمحية ويبدو طويل القامة .

لقد شعر بالرضا من النظر إلى نفسه . وأخذ يروح ويجىء عدة مرات ناظرا إلى نفسه بتفحص فى المرآة ، كان يعجب بعينيه البراقتين وشفتيه المضغوطتين . وانطبعت ابتسامة على شفته . وكرر مع نفسه قول فرشته بصوت منخفض :

" إنك أصبحت أنيقا ، وأصبحت جميلا . "

وبدأ يتمتم بالغناء من تحت شفتيه .

ثم استدار من أمام المرآة ، وأخرج صورة فرشته من بين أحد الكتب . ففى الماضى عندما كان يمسك الصورة فى يده كان يفتن بجمالها ويدق قلبه ، فيغمض عينيه ويدع نفسه فى إثر الخيالات الجميلة والعذبة ، وهو الآن على العكس تماما لم يعد قلبه يدق ، ولم تجذبه عيناها الحادتان المثيرتان . لعل صورة فرشته قد فقدت جاذبيتها وسحرها . وضع الصورة أمامه مرتين ، وساوره الشك وسأل نفسه :

" من أجل أى شىء أذهب ؟ "

لكنه قبل أن يتكدر ويتضايق ويعطى لنفسه الفرصة حتى تعود أفكاره اليائسة ، خرج مسرعا من الحجرة . بينما كانت أمه لا زالت تصب الشاى ، كان أبوه راكعا على ركبتيه ، وقد وضع على كتفه عباءته المصنوعة من وبر الجمل ، يسبح ويتمتم بشفتيه الغليظتين الزرقاوين ، وقف على أعتاب الحجرة بلا دور أو هدف . وانتظر حتى ينهى أبوه أذكاره . لم يكن يشعر باضطراب أو شوق ولم يحركه التفكير فى أسبوع بعيدا عن المنزل ، ويكون حرا بلا خيال وأن يقضى وقتا جميلا . سأل نفسه :

" إنك لا تستطيع أن تفهم من أجل أى شىء يريدون اصطحابك معهم إلى القرية ،

ألا تستطيع ؟ إنهم يريدون اصطحابك إلى ناديهم وهم ... "

وفكر بيأس :

" لماذا أريد ثانية أن أذل نفسى ، لازلت لا أعتبر . "

حركه صوت أبيه :

" حضرة السيد بهذه السحنة والهيئة الخاصة بالفاسقين ، إلى أين يريد سيادته أن يشرف ؟ "

فتملكت جسده رعدة ، وفجأة شعر بأن نفس الاضطراب والشوق قد حلا فيه . فقد قضت ضحكة أبيه الساخرة على كل قلق وتردد عنده ، وحركت الشوق والانفعال فى قلبه ثانية . واستدار بعينيه تجاه أمه وقالت

بصوت منخفض :

" لقد أخبرت الوالد ... "

فنظر إلى أمه ثانية . كان يود من أمه أن تخبر أباه بعدم ذهابه إلى الدكان أسبوعا .

قالت أمه :

" إنه يقول إن رفاقه دعوه للذهاب عندهم أسبوعا فى القرية ... "

وأدارت وجهها عنه ولم تزد كلمة . كانت المسبحة بين أصابع أبيه . رفع رأسه ، وألقى نظرة سخيفة ومحقرة على كمال كلية . وفرك حبات المسبحة ثانية بين أصابعه . وأحنى رأسه ثانية وحرك شفتيه الغليظتين معا ، وقال :

" يذهب بشرط أن تكون آخر مرة له ، وأن يصطحب معه عبد الله أيضا . "

وكأن ماء بارد سكب على وجه كمال ، وذهب لونه . وقال بضيق :

" ماذا ؟ أصطحب عبد الله أيضا ، هل يجوز ؟ "

عبس أبوه :

" ولم لا ؟ "

اتكأ كمال على الحائط ، وسرت البرودة حتى أعماق قلبه ... ودار فى رأسه :

" أصطحب عبد الله . أصطحب معى عبد الله الصغير الذى يسيل لعابه والمصاب بإسهال دائم . "

وقال بصوت مرتعش :

" فى النهاية يا سيدى العزيز ... "

فنظر أبوه إليه بعدم اكتراث وقطع كلامه :

" ماذا تريد أن تقول ، هاه ؟ إن ما قلته بعينه . تريد أن تذهب احمل عبد الله وخذه معك . ولا تقل كلمة زيادة . "

نظر إلى أمه التى كانت تجلس صامتة ثم فكر :

" لا . إنها حجة وتملص . لو قلت إننى سعيد جدا باصطحابى عبد الله معى سوف يتعلل بحجة أخرى . لقد تآمرا معا . "

وسمع صرخة فى رأسه :

" يا أولاد الكلب . "

وسأله أبوه بانفعال :

" أصلا تريد الذهاب هناك ، فماذا تفعل ؟ أصلا تريد أن تذهب هنا ، كيف ؟ كل هذا العمل كالتل فى الدكان وتريد أن تهرب من العمل . سأشرب الشاى الآن ونذهب معا إلى الدكان . "

" الخلاصة يا سيدى العزيز ... "

" اخرس ثانية ، كل ما أقوله لك ، قل من عينى . لا تقل الخلاصة ، الخلاصة ... ليس معلوما أية مصيبة تخفيها خلف ظهرك . "

كانت حبات المسبحة قد سكنت بين أصابع أبيه ، ويتناثر صفير شفتيه فى الحجرة . كان يدور فى فكر كمال أيأخذ عبد الله معه أم لا ؟ ماذا يفعل ؟ قفز عبد الله من مكانه دفعة واحدة وكأن النار سرت فى

جسده فى الوقت الذى كان يدور حول نفسه كأنه مروحة وقال :

" أمى ، أريد أن أتبول ، بولى شديد ، سأتبول على نفسى ... "

صفعته أمه صفعتين على رأسه بقوة وأخلعته سرواله ودفعته نحو باب الحجرة وصاحت :

" أسرع نحو المرحاض حتى آتيك بخبر موتك ... كم تتبول يا مفتضح ، لقد طهرتك . "

أغمض كمال عينيه وتخيل أنه يخلع سروال عبد الله أمام عين فرشته ويقول :

" أسرع نحو المرحاض حتى آتيك . "

ثم فتح عينيه وشعر باضطراب فى أعماق قلبه . قال أبوه :

" عندما تذهب إلى العمل مخلصا ، سوف تنسى النزهة . النزهة للناس الذين لايشعرون بالعار، العاطلين . من الأفضل أن تنسى . كل يوم نزهة ، كل يوم تسكع . "

فقال كمال بصوت عال :

" أى نزهة ؟ أى تسكع ؟ لتر كثيرا أن كلاما لا داعى له . لقد جئت طول الصيف وذقت العذاب وعانيته فى الدكان ، ماذا تريد منى الآن ؟ "

هز أبوه رأسه ورقق صوته :

" حقا ، لا ينكر أحد ، لكن ليس هذا هو قصدى . كنت أريد أن أقول إنك سوف تذهب من عندى غدا . "

رفع كمال صوته أكثر وقطع كلامه :

" من عندك ؟ غدا ؟ "

هز أبوه رأسه ثانية وقال بنفس الأسلوب الناعم والهادىء :

" أجل يا عزيزى ، ما الفائدة التى عادت عليك من كل ما درسته ؟ أى فائدة حصلت عليها من أجلنا ؟ كفى ما درسته . لقد وعدت الحاج أصغر الدباغ ، واتفقت معه . وبناء على ذلك فإنك ستذهب عنده من الغد وتتعلم المهنة تحت رعايته وتكون إنسانا من أجل نفسك . "

فارتبك . ولم يكن يظن أن أباه سوف يسلمه فى يد الحاج الدباغ بهذه السرعة . وأضاف والده :

" أصلا الحاج أصغر يكنّ لك عطفا وحبا آخر . "

ضحكت أمه وقالت :

" لاحظت عندما جاء من مكة أحضر لك قطعة قماش . "

كان واقفا فى مدخل الحجرة ينظر بغضب إلى أبيه ، كان يدور فى رأسه :

" ... أجل أصير كاتبا عند الحاج الدباغ ، حسنا ، ثم أتزوج ابنته ضخمة الجثة القبيحة ، وبعدها عندما أكون زوج بنت الحاج الدباغ يرقى شأنى وأصير كبير الدباغين . ثم أمضى معها تحت اللحاف وأنتج المزيد من القائلين لا إله إلا الله تباعا . ثم أجلس القرفصاء ، وآكل حساء الشعرية والزبادى بالخيار وأتجشأ . وأضع على كتفى عباءة من وبر الجمل وأقرأ كتاب حلية المتقين وحديقة المسلمين وأصرخ : يا حمير مهما أقول ، قولوا على عينى . افعلوا هذا ، ولا تفعلوا ذاك . اذهبوا هنا ،

ولا تذهبوا هناك . هذا ثواب وذاك معصية . هذا حلال وذاك حرام . هذا طاهر وذاك نجس ... أمسك المسبحة وأسبح باستمرار وأقول الذكر دائما وأذكر وأذكر وأذكر وأذكر الله ... "

سمع صرخة فى حلقه . هكذا كانت تعتصره كل الحقارات والمضايقات التى كان أبوه يطوقه بها منذ الطفولة إلى درجة أنه لم يكن عنده القدرة على تحمله . نظر إلى أبيه . إنه صغير وضئيل . إنه مسخ . بنى اللون . يشبه الخروف بوبره البنى . كاد أن يتحول إلى سلحفاة ذات صدفية ... برص ببطن بنية كبيرة ... إنه كان يستطيع أن يشعر بثورة عارمة تملأه كل لحظة أكثر ، كان يستطيع أن يرى الغضب ، كان يستطيع أن يتحسسه . كان الغضب يملأ عينيه ، ويشغل رأسه . كان الغضب يقفز من حلقه كأنه رصاص منصهر يملأ فمه . جاهد أن يبعد عن نفسه نفوره ، جاهد أن يخلص نفسه من تحت نيره ... كان فمه ورأسه مليئين بالكلام والغضب .

وبينما كان أبوه ينظر إليه بحدة ويسبح بالمسبحة ، كان صفير شفتيه يؤذى أذنيه وتلقى رعدات النفور فى قلبه . صرخ والده :

" يا حمار ، لماذا تقف وتنظر إلىّ بهذه الطريقة . لماذا لا تذهب وتغرب من أمام عينى .

لا أريد أن تذهب إلى النزهة . أصلا ليس لك حق فى أن تخرج خطوة من المنزل . "

" إلى متى لا أملك الحق ، ألست ... "

" كل الغائط أيها الكلب الميت ، هل أنا من أرباب النزهة حتى تكون أنت . "

" لماذا آكل الغائط ؟ لماذا لا تتركنى أتكلم ؟ لو أننى ... "

" اللعنة ، ماذا تريد منى أيها الغلام عديم الحياء والخجل ؟ اغرب عن وجهى . "

" ما الذى تريده منى ؟ هل اشتريتنى ؟ هل أنا مربى عبد الله ؟ إلى متى أحمل عبد الله على كتفي وأصطحبه معى أينما أذهب ؟ ألست ... "

صرخ والده . لكن صرخات كمال كانت أعلى :

" إلى متى ... لى الحق ... ولا حق لى ... افعل هذا يكون حسنا ، افعل ذاك يكون سيئا ، هذا واجب وذاك مستحب ، هذا ثواب وذاك ... دعونى ... لست عبدا اشتريتموه . كل الحياة معكم مذلة واختناق ولعنات ومصائب . اتركونى ، سوف أمضى الآن ولن تملكوا شيئا لى ، لا تستطيع أن تقوم بعمل قط . "

كان مبهوتا وكانت تطويه سحابة سوداء كأنها خيمة أو نقاب وغطته . وذهب سواد عينيه وكانت يداه تعتصران أعلى الباب ، وغضبة مجنونة تجتاح كل كيانه .

نهض أبوه من مكانه ، والغضب يشع من عينيه . فكانت عيناه قبساً من النار . سمع صوت صراخه :

ماذا قلت يا تافه ؟ ماذا قلت ؟ لقد تخيلت الآن أننى لا أستطيع أن أضربك كالكلب حتى لا تتفوه بمثل هذه النصائح ؟ أتتدلل بجسدك

المهترىء العفن ؟ سأضربك كالكلب حتى ... "

عندما رأى نفسه يغوص فى الخيمة السوداء ويغرق فيها ، لم يكن يدرى هل هو جالس ، واقف ، يمشى ، يتكلم ، نائم ويحلم ؟ فرأى والده يقترب منه كما يقترب جاره العجوز من كلبه بالسوط . رأى يد والده ترتفع وتنخفض ، وكانت عيناه مغمضتين تحت الضربات . كان يسمع صوت الضرب فى أعماق رأسه ... وأحس بوخز مؤلم فى كل وجهه ، واختلط كل شيء فى رأسه . كان الرجل العجوز يضرب كلبه ، وشعر بحرارة الدمع فوق وجنتيه .

* * *

نظر إلى السماء وكان الجو مظلما ، وكان الليل . وكان الظلام قد خيم على الكون . عندما خرج من المنزل ، كانت الأرض قد أصبحت صفراء أمام عينيه ، حمراء ، رمادية وأصبحت الآن سوداء . كأنها دفاتر صفراء وقرمزية ورمادية وسوداء تفتح فى إثر بعضها أمام وجهه . كان يسير فى الأزقة والشوارع مسلوب الإرادة بلا هدف يبغيه ، ومن الآن فحسب سعادته أن يستطيع أن يمشى ... ثم يمشى ... فقد حدثت كل هذه الأحداث التى كان يتوقعها ، وكل تلك الأحداث التى لم يكن يتوقعها ، ولم يبق فى رأسه شيء واضح منها كلها، كأنه رآها كلها فى حلم ، حلم مخيف ومزعج . عندما أغلق باب الممر خلفه ودخل الحى ، لم يعد يملك شيئا . فقد ترك كل شيء خلفه فى المنزل وخرج . كانت كل الأحلام

والرؤى المحببة كأنها دخان بعيد . دخان كان يظلم فضاء فكره ولا يترك عنده أثرا سوى أن يجعله حزينا . كان حزينا وسيطرت عليه حالة إنسان عائد من تشييع جنازة أشخاص كانوا أعزاء عليه ومحببين له ، أشخاص طيبون وأعزاء كان يبعد كثيرا عنهم وأصبح منفصلا وغريباً جداً ... عندما كان يغمض عينيه يتذكر كل ذلك كأنه حلم مخيف ومحزن ومزعج . كل هذه الأحداث غامضة ومبهمة ... وبضعة أشخاص أمسكوا به من الخلف يشدونه ، وهم يسبون ويلعنون ، ويصرخون ويجاهدون فى رفعه من فوق الكتلة المتألمة المتحركة التى كانت تجاهد تحت يده وقدمه ... كان قد وقف ، واستمع إلى أصوات البكاء ورأى الوجوه الشاحبة المرتاعة الخائفة المرعوبة تتحرك من أمام عينيه التى علاها الضباب هنا وهناك تصرخ وتنوح ... بعد ذلك رأى المعممين الذين كانوا يئنون فى المرآة الكبيرة ، واللحاف الذى كان قد طواه على الفراش وكأنه يخنقه . بعد ذلك رأى وجهه فى المرآة . الجمش الذى كان يمتد إلى أسفل من تحت عينيه ، والشعر الذى كان ينسدل على رأسه كأنه شوك القنافذ ، ورباط العنق الذى تمزق من الوسط ، أنات ، لعنات ، صرخات ، صياحات وبكاءات ... بعد ذلك ، وقف داخل الزقاق فوق رأس كلب الجار العجوز الذى مات وسلك طريقه ثانية والدفاتر الصفراء والقرمزية والرمادية و ... الآن أصبح الدفتر أسودا مفرودا أمام قدمه بلا نهاية ... كان الليل الطويل لا يزال ينوء بكلكله على الكون . سار طويلا من زقاق إلى شارع ومن شارع إلى زقاق . كان يجلس ويقف ليسير ثانية ولم يزل ممزقا ومتعبا أيضا ، ثم أخذ يسير ثانية . كانت الأزقة خالية والمنازل

تغط فى سبات عميق ، بينما الكلاب تعوى وتجرى فى الزقاق فى إثر بعضها . جلس على درجات سلم دار وأسند ظهره إلى الجدار ، وعلق قدميه وأغمض عينيه . كانت الصور والذكريات الماضية تتشكل وتدور أمام عينيه ، كانت تبدو حية ومجسمة دون أن تؤلمه وتجرحه . كانت تأتى وتمضى وكأنها ظلال متعاقبة ممحوة ومعدومة ... كان يرى كمال الصغير يمشى ببطء فى الزقاق حاملا حقيبته السوداء الكبيرة ، ويترنم من تحت شفتيه بمرثية من مراثى آل البيت ويتلاعب بحقيبته ... ثم رأى كمالا وهو جالس فى الحجرة مع جمع من الأطفال . وقد وقف طفل على كرسى فى الحجرة وأخذ يعظ بينما كمال ممسكا بمصحف يتلو ، كانت هناك جماعة من الأطفال الصغار ، وفوق المنزل بيرق صغير كتب عليه :

" منظمة الفدائيين . "

إذن أين ذلك البيرق ؟ ذلك البيرق الأسود الصغير الذى اجتث من مكانه بهبة ريح واختفى ويبحثون عنه من منزل إلى آخر حتى يجدوه . إذن إلى أين ذلك البيرق ؟ أين يجب تتبعه والبحث عنه ؟ أين ذهب الفدائيون ؟ لقد هبت الريح وحملت معها البيرق والفدائيين . لقد هبت ريح ... وحملت معها كمال الصغير ... ومن خلف النافذة كان نور باهت يومض . وقف يتنفس بعمق نسيم الفجر البارد ، ونظر إلى ظله الطويل الذى كان يملأ جنبات الزقاق وبقلب خفاق دق على زجاج النافذة ، وفتحت النافذة وأطلت منها رأس وعينان يغلبهما النوم بحثت فى ضوء السحر الخافت .

قال :

" أخى ، أنا كمال ... جئت إليك ... "

وارتفع صوت محمود :

" مرحبا يا أخى ... "

*   *   *

تمت بحمده تعالى .

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت. محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت · أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت · أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت . بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا

(تحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت

الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى

تاريخ السينما العالمية

مختارات من المسرح الإسبانى

صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر

الابتلاء بالتغرب

نون والقلم

الحب الأول

أوبرا ماهوجونى

عالم التليفزيون بين الجمال والعنف

حروب المياه

ثلاث زنبقات ووردة

الأدب الأندلسى

الأدب المقارن

راية التمرد

السياسة والتسامح

مساءلة العولمة

ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٤٢١ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 085 - 8)

المجلس الأعلى للثقافة

در از نای شب

جمال ميرصادقى من كُتّاب القصة والرواية والنقد الأدبى المعاصرين فى إيران حالياً، وله عدة مجموعات قصصية . كما له مجموعة روايات أهمها رواية "طول الليل"، وهى من أهم الروايات التى ظهرت فى السنوات العشر الأخيرة: حيث إنه من أهم الكتاب الذين انتبهوا إلى حركة تفاعل المجتمع اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ... وإلى تأثير ذلك فى نمو الشخصية الإيرانية .

والرواية كنص أدبى يصور جيل إيران فى الستينيات وحيرته بين القديم والجديد . وضياعه فى مجتمع يخرج جزء منه عن جلده بسرعة شديدة . بينما يظل الجزء الآخر متشبثاً بالقديم خائف من الجديد .

هذا الصدام بين عالمين هو النبرة الرئيسية فى هذه الرواية العجيبة وبرغم أن المؤلف كان يكتب روايته وعينه على المحاذير التى تحيط به سياسياً فى إيران : فجاءت خلفيتها السياسية غامضة إلى حد كبير .

والصراع بين القديم والجديد فيها يقف ع... المظاهر ولا يبتعد عن السطح لكى يتناول الأعما... هذا هو ما أعطى الرواية هذه التلقائية الغريبة فى والبساطة التى قلما تتسم بها رواية إيرانية .